شهريات

بقلم
رئيس التحرير

١ ــ « الاداب » في عامها الـ ٢٤ ..

« الاداب » ... على عتبة ربع قرن !

ثلاث وعشرون سنة انقضت على صدور « الاداب »، وقد بلغت الان عامها الرابع والعشرين ، وهي تحبو الى عامها الخامس والعشرين بخطى بطيئة جعلتها أحداث لبنان تتعثر بعض التعثر ، ولكنها لم تتوقف ...

يقول بعضهم : ان « الاداب » قد تعبت ...

فنقول : ليس خطرا ان تتعب ، بل الخطر ان يعجزها التعب فتترنح أو تتهاوى أو تسقط ، أو تغيب !

أما وانها مستمرة ، وصامدة ، وماضية في دربها ، رغم كل العوائق والعراقيل ، فذلك مما يحسب لها في المزايا ، ولا يحسب عليها ..

ويقول آخرون : ليست المادة الادبية التي تنشرها المجلة الان في مثل مستوى ما كان ينشر في سنواتها الماضيات ..

فنقول : ان المادة الادبية ليست من صنع « الاداب » بل هي من صنع الادباء ، يجودونها أو يهبطون بها ، وقصارى ما تستطيعه المجلة أن تختار مما يردها ، أو تستكتب بعض من تثق بجودة انتاجهم ، فتعكس بذلك واقع الادب ، بحسناته وسيئاته . والسؤال هنا : هل ما تنشره المجلات الاخريات ، الادبية الشهرية ، أفضل قليلا او كثيرا مما تنشره « الاداب » حتى يصح الحكم على مستوى المنشور ؟

اننا نزعم ، بكل تواضع ، أن ما تنشره هذه المجلة من شعر وقصة ودراسة أدبية يظل من أجود ما يقرأه قراء مجلاتنا الادبية على تنوعها واختلافها ، ويبقى أكثر حداثة وأصدق تعبيرا عن هموم المجتمع العربي ، لا سيما بوجهها النضالي الملتزم .

هذا بالرغم من أن هذه المجلة لا تستطيع ان تنافس المجلات الادبية الرسمية في وسيلة اجتذاب الاقلام ، نقصد الوسيلة المادية التي هي اكثر توفرا في مجلات وزارات الاعلام العربية منها في « الاداب » التي تصدر عن مؤسسة فردية خاصة لا يمكنها ان تعرض نفسها لخسارة تؤدي بها ، اذا طال عليها الزمن ، الى اغلاق أبوابها ...

ان لوزارات الاعلام ميزانيات كبيرة تخصصها للمجلات التي تصدرها ، من غير ان تهتم بعائد المبيع من هذه المجلات ... ولا شك عندنا في ان جميع المجلات التي تصدر عن وزارات الاعلام العربية تسجل خسائر مؤكدة في ميزانياتها ، بدليل ان تكاليف النسخة منها يساوي أضعاف ثمن المبيع . اما « الاداب » فلا مفر لها من ان تحسب حساب الخسارة حتى لا تضطر الى الاحتجاب .

ومع ذلك ، فان هذه المجلة تعاني منذ سنوات طويلة، وتناضل من أجل الصمود والبقاء ، لكي تظل النافذة التي تتنفس منها حرية الكلمة العربية المكافحة ، ولكي تظل المنبر الذي تجتمع فوقه الاقلام العربية المنتمية الى كل قطر من اقطار الوطن العربي ، ولكي تظل الوثيقة ــ المرجع لتطور الادب العربي الحديث .

ان « الاداب » تعاني من أنها لا تزال تمنع في عدد من البلدان العربية ، وتعاني من ان المكتبات وشركات التوزيع تلتهم أكثر من نصف عائدات البيع فيها ، وتعاني من انها لا تلقى الا تشجيعا ضئيلا من بعض الحكومات العربية على صعيد الاشتراكات ، بالرغم من ان مؤتمرات الادباء العرب أصدرت توصيات كثيرة بتشجيع المجلات لتستطيع النهوض باعبائها في خدمة الفكر والادب ..

اننا هنا لا نشكو ، وانما نورد وقائع . غير أننا واعون لحقيقة واضحة : هي أن حرصنا على الاستقلال من أجل المحافظة على حرية التعبير ، وعدم الارتهان لاية

« الآداب » •• من بغداد

كان مقدرا لهذا العدد ان يظهر منذ سبعة أشهر ...

وكان مقدرا له ان يصدر ، كالعادة ، من بيروت ...

ولكن الاحداث الدامية حالت دون الامرين ، فكان لابد من انتظار الفرصة الاولى التي تمكننا من الخروج من جحيم بيروت ، حتى نحاول اصدار المجلة من أية عاصمة عربية أخرى .

وهكذا حملنا مادة « الآداب » وتوجهنا بها الى العراق ، القطر العربي الذي ساند وما يزال يساند نضال الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية .

وكان طبيعيا ان نلقى في عاصمة الرشيد والمأمون كل ترحيب بأن تصدر المجلة من بغداد ، ريثما يعود الهدوء الى لبنان بانسحاب جيش النظام السوري الغازي .

و « الآداب » اذ تقدر لحكومة الثورة العراقية ، كل ما تقدمه من تسهيلات لصدور المجلة بعد هذا الاحتجاب الطويل ، مؤمنة بان بغداد ستبقى الضوء الذي يوقد المشاعل العربية ، مهما حاولت انظمة التآمر وقوى الانعزال ان تطفئها !

سلطة عربية يتطلبان ثمنا معينا ، هو ضعف الموارد المساعدة ، ولكننا ندفع هذا الثمن عن طوع ورضى ..

أما ان كثيرا من الاقلام التي كانت تسهم في «الاداب» قد هجرتها الى صفحات مجلات وزارات الاعلام والثقافة العربية ، فهذا أمر طبيعي يرتبط بحاجة متبادلة بين تلك الاقلام وهذه المجلات . فالاقلام التي نشأت وترعرعت على صفحات « الاداب » ترغب رغبة مشروعة في الافادة من انتاجها ببعض الدخل الذي يساعد على مواجهة امور العيش ، والمجلات الرسمية تريد استقطاب الاقلام الموهوبة التي استطاعت ان تثبت اقدامها في عالم الادب ... وحسب « الاداب » فخرا ان تكون « العش » الذي تنطلق منه عصافير لقيت في كنفه الدفء ، والحنان والتوجيه ، حتى اذا قوى جناحها واشتد ريشها ، طارت بثقة وانطلاق لتحط على صفحات المجلات الرسمية .. هذه التي تبقى ، بعد كل حساب ، مدينة لـ « الاداب » الام بالشكر والتقدير !

على ان عددا كبيرا من هذه الاقلام كثيرا ما تشعر بالحنين الى المصدر الرؤوم ، فتعود بين الفينة والفينة الى الصفحات التي احتضنتها في نعومة اظفارها ، او في رقة أسلتها ، ردا منها لجميل ووفاء لعرفان ...

واذن ، فان « الاداب » باقية ، صامدة ، مدرسة لتخريج المواهب الادبية ، ومنبرا لحرية الكلمة ، وصوتا عاليا في التعبير عن الفكر القومي والدعوة الى الوحدة العربية ، ومرجعا رئيسيا لتسجيل مسيرة الادب العربي الحديث .

... على عتبة ربع قرن !

ما اطوله دربا .. ولكن ما اعذبه .. وما اشقه !

٢ ـ الادب اللبناني والاحداث

بعد الاحداث الدامية التي شهدها لبنان ، والتي هزت البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. لابد للمرء من ان يتساءل عن مستقبل الثقافة اللبنانية بصورة عامة ، والادب اللبناني بصورة خاصة .

نحن من الذين يؤمنون بأن الثقافة تيار مستمر متدفق لا تستطيع الاحداث ، مهما بلغ من أمرها ، ان تحجزه او توقفه ، ذلك ان الثقافة الحقيقية الفاعلة لا يمكن ان تنفصل عن الاحداث ، فهي متأثرة بها أبدا ، وهي بالتالي مؤثرة فيها . ومن الطبيعي ان يرتبط التأثر والتأثير بتوجيهات هذه الثقافة ونزعاتها .

ومع ذلك ، فمن استباق الامور تحديد الاتجاهات التي ظهرت في انتاج الادباء اللبنانيين اثناء الاحداث ذلك ان المجال الزمني للابداع ، تأثرا بأحداث ما تزال قريبة العهد ، هو أقصر من أن يستطيع ابراز انتاج أدبي يبلغ حد النضج النهائي . ان المثقف ، الى اية فئة من الفئات المتصارعة انتمى ، ما يزال يعيش وجدانيا آثار الاحداث ووقائع المحنة ، وهو لم يبلغ بعد ، في تدبر تلك الاحداث وهذه الوقائع ، مرحلة الانضاج الفني الذي يسمح له بالظهور الى النور .

والواقع ان الانتاج الذي نشر حتى الان ما يزال حتى الان ضئيلا . وربما كانت وسائل الاعلام الصحفية ، بسبب مخاطر النشر والتوزيع في فترة الاحداث ، أضيق من ان تستوعب الاثار الجديدة المستوحاة من المعركة . على أن ما قرأناه لادباء لبنانيين او مقيمين في لبنان ينتمي معظمه الى النزعة القومية العروبية التقدمية ، وتشير بوضوح الى المظهر الطبقي للصراع ، فينحاز بصراحة الى جانب الفقراء والمحرومين ، ضد المستغلين وأصحاب الامتيازات ، والى جانب الحرية والانسانية ضد الفاشية والارهاب ، والى جانب المقاومة والثورة ضد الانعزال والجمود .

أما النزعة الانعزالية التي تريد تحجير لبنان او رده الى الخلف ، فلم نجدها الا في انتاج « شاعر » لبناني واحد يريد ان « يعملق » لبنان بالشطحات الفارغة وهو لا يفعل الا ان « يقزمه » حين يصر على فصله عن العروبة، وحين يتباهى بأنه هو الذي كان وراء الكتابات الجدرانية التي تدعو الى طرد الفلسطينيين ، جميع الفلسطينيين من لبنان !

ومهما يكن من أمر ، فنحن نعرف كثيرين من المثقفين الوطنيين كانوا يؤدون دورهم في المعركة بالمشاركة في اللقاءات والاجتماعات الوطنية ، وبالادلاء بارائهم في الندوات والمؤتمرات . بل ان بعض الكتاب والشعراء قد شاركوا عمليا بحمل السلاح الى جانب المقاتلين من الوطنيين في خندق واحد .

ونحن نعرف كذلك ان هناك قصاصين وروائيين وشعراء لبنانيين وغير لبنانيين يكتنزون الان مادة كبيرة تصلح للاعمال الفنية ، وهم بسبيل استغلالها في انتاج منتظر لابد ان يكون له شأنه ودوره في أدبنا الحديث .

ونحسب ان « المعركة » اللبنانية ستكون مستمرة على الصعيد الفكري والثقافي ، وان توقفت على الصعيد القتالي ، لانها في نهاية المطاف معركة حضارية ترتبط بلبنان المستقبل . ولابد من ان تطرح موازين ومعايير جديدة على صعيد الانتاج الادبي ، حتى بالنسبة للادباء الذين كانوا يؤمنون بالبرجعاجية ، اذ سيشعر هؤلاء ان الغيبوبة التي كانوا يعيشون فيها بعيدا عن الهموم الوطنية والقومية والاجتماعية لم تكن الا لتشوه دور الادب في حياة الانسان اللبناني حين تريد قصره على اهتمامات جمالية او شكلية ...

لابد من ان يحمل الادب اللبناني الجديد بذور تغيير ملتزم بمطامح المواطن اللبناني بعد هذه التجربة المريرة التي هزت جميع البنى ، بالرغم من محاولات الساسة التقليديين اجهاض النتائج التي تمخضت عنها الاحداث . وستكون المعركة التي سيواصل الادباء اللبنانيون الوطنيون خوضها معركة صراع مصيري بين العروبة واللاعروبة ، بين التخلف والتقدم ، بين الماضي والمستقبل .

وسيواصل الادب اللبناني مسيرته في موكب الادب العربي ، مضيفا بنكهته المتميزة لبنة أخرى في بنيان ثقافتنا العربية التي تعمل لاقامة الصرح الحضاري المنشود .

٣ ـ « مركز دراسات الوحدة العربية »

شاركت يومي ١٠ و ١١ كانون الثاني (يناير) الماضي في اجتماع مؤسسي « مركز دراسات الوحدة العربية » الذي انعقد في الكويت وضم نخبة من كبار مفكري الوطن العربي الذين يؤمنون بالوحدة العربية ويدعون لها في كتاباتهم ومواقفهم .

وقد وافق المجتمعون على جدول الاعمال الذي اقترحته اللجنة التنفيذية المؤقتة ، فناقشوا النظام الاساسي للمركز ونظامه الداخلي وأقروهما ، واصبح المؤسسون « مجلس امناء » للمركز بحكم النظام (١) .

وغاية هذا المركز الذي اتخذ مقرا له في بيروت والذي يمكن ان تنشأ له فروع في عواصم عربية اخرى ، هي « البحث العلمي الهادف الى تكامل المجتمع العربي وتحقيق الوحدة العربية ، بعيدا عن كل نشاط سياسي او ارتباط حكومي او حزبي » .

ويتوخى المركز تحقيق غايته بـ « جمع الوثائق

(١) انتخب مجلس الامناء الدكتور سعدون حمادي رئيسا له ، والدكتور يوسف صائغ امينا للسر ، والدكتور بشير الداعوق امينا للصندوق ، والدكتورين عبدالله عبدالدائم وخيرالدين حسيب عضوين في اللجنة التنفيذية التي تضم كذلك الاعضاء الثلاثة الاول .

والنشرات والمؤلفات والمخطوطات والمطبوعات المتعلقة بالوحدة العربية والمجتمع العربي ، واعداد الدراسات على أساس علمي ونشرها ، والقيام بأي نشاط علمي آخر في حدود الغاية الاساسية » .

وكان عدد من المؤسسين قد اصدروا في العام الماضي بيانا عن الدور الاساسي للوحدة العربية في بناء كيان الامة العربية الحديث المنيع ، واكدوا على ضرورة انشاء ذلك المركز الذي يتولى بحث الاسس العلمية لقيام الوحدة العربية ، ويخلق الوعي العميق لدى ابناء البلاد العربية بدورها الاول في بناء المستقبل العربي ، ويقوم بدراسات وبحوث ونشاطات اخرى فكرية متنوعة تحلل الواقع العربي في شتى جوانبه ، وتستجلي العوائق التي تحول دون تحقيق الوحدة ، وتستشكف الوسائل المؤدية الى الوحدة .

ونحن نعتبر انشاء هذا المركز ، وفي لبنان بالذات ، على غاية الاهمية لما ينتظر ان يقدم من عمل علمي منهجي في خدمة العروبة والعرب .

وقد اكد الرئيس المنتخب لمجلس الامناء الدكتور سعدون حمادي أهمية المحافظة على الطابع العربي الشامل للمركز وضمان استقلاله الفكري وابتعاده عن المؤثرات السياسية والحزبية والحكومية .

ونحن نوجه ، من على صفحات « الاداب » ، نداء الى جميع المؤمنين بالوحدة العربية ليواكبوا عمل المركز ويسهموا في نشاطاته ويشدوا أزره ويولوه العون المعنوي والمادي (٢) .

٤ – جمعية متخرجي المقاصد

في أحداث لبنان الدامية ، برز صوت « جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية » في بيروت ، متميزا قويا ، معبرا أصدق تعبير عن مطامح الجيل اللبناني الجديد ، وعن رؤيته المستقبلية لما ينبغي ان يكون « **لبنان الغد** » .

وبالرغم من ان هذه الجمعية لا تضم الا متخرجين من مدارس المقاصد الاسلامية ، فانها بعيدة كل البعد عن الطائفية ، بل هي تشجب الطائفية البغيضة وتدعو الى العلمانية التي تعتبرها أساسا لكل دولة حقيقية يراد ان تقوم في لبنان على انقاض الطائفية المدمرة .

والواقع ان جمعية متخرجي المقاصد التي تضم اكثر من اربعة الاف وخمسمئة متخرج ومتخرجة من الشباب المسلم من حملة الشهادات الجامعية ، اجتذبت اليها الانظار في اثناء الازمة اللبنانية بما بذلته من جهود وما قامت به من نشاط على الصعيد الوطني والقومي ، وما أسهمت به من توعية المواطنين . وكان لها حضور بارز عبر البيانات الكثيرة التي أصدرتها في جميع مراحل الازمة ، تعبر عن مواقفها تجاهتطورات الاحداث بوحي من مفاهيم قومية تقدمية تنهض على روح العروبة ، قدر لبنان الاول والاخير ، وعلى العلمانية والديمقراطية والتطوير والتغيير، وعلى فضح روح التعصب وجذور التخلف في المجتمع اللبناني . وما الوثيقة الهامة المنشورة في هذا العدد من « الاداب » تحت عنوان « الحركة الانعزالية وخطر تفاقم القضية اللبنانية » ، الا نموذج معبر لرؤية جمعية متخرجي المقاصد .

ولعل أهم ما ستنهض به هذه الجمعية ، في الفترة القادمة ،نشاط « مركز الدراسات اللبنانية » الذي انشأته اخيرا ، والذي سيتوفر على اصدار البحوث والدراسات عن المجتمع اللبناني وعلاقته بالمجتمع العربي ، والذي سيعمل على صياغة الوجدان القومي للمواطن اللبناني الذي يقف الان على انقاض لبنان القديم مستشرفا آفاق لبنان الجديد .

سهيل ادريس

(٢) قدم بعض الدول العربية وهى دولة الامارات العربية ودولة الكويت والجمهورية العراقية والجمهورية العربية الليبية ، مساعدات طيبة للمركز ستمكنه من الانطلاق في العمل في الاشهر القليلة القادمة.

شوقي بزيع

الأجراس

(١)

هذا البرج لمن لا يلـدون
هذا البرج لمن يسقط في مرض الانهار ويسقط في الاحلام

نحن الاطفال الموتى الاطفال الرايات
نطلع من ورق التبغ وزهو فراشات الليل
حلي منديلك يا فاتنة العربات ولا تدعي الارض تنام
ولتعزف اجراسك للقمر الضائع في الليل ،
وللطفل الشارد في الارحـام

آه من القمر المطعون
آه من الفسق الوحشي على الافق المجنون
اسمع في الليل خطاهم
اسمع وقع النار على جسد الانهار
يا قمر الغيب متى يأتون
لأشق جيوب الرمل افتت صحن الدمع واسقيهم
قولي يا حورية هذا الماء
من اين تنزّل هذا الجرس النهري على جبل الاسماء
من اعلن عشق البرعم للنار ، وعشق الخضرة للرمل
وايقظ شمس الفقراء

(٢)

خرجت من بين ضفائرها
زينب(١) ذات الشعر الاسود والعينين السوداوين
خرجت مقمرة الحلم ومقمرة الشفتين
مسحت عن صدأ العالم زهو بكارتها
ورأت في قمة شهوتها جزرا تتهدل في قاع البحر ،
واحلاما تخرج من حدق الاموات وتطعن جوف الليل
خرجت من الخرز الجميل

تنحل في دمها طفولتها ولؤلؤتان فاتنتان ،
زينب تعلن الخبز المقابل والدم العلني والعشب القتيل
الارض نصف مضيئة ،
والعائدون من الخناجر اعتقوا دمهم لتخرج زينب :
العينان ساحرتان ، والشفتان تنتشلان ماء غامضا ،
واميرة الفقـراء تفرغ حزنهـا في البئر ، تقنع كل
ساقية بوردتها

وتدخل في دم الجنسين تمنحهم براءتهم وجثتها
فينتحرون كالشجر النخيل
خرجت وفي الازهار متسع لكي تتفتح الانثى
فأبصرها رعاة دم الحقول ،
وانذروها ان تنام وحيدة في القمح
واشتهت البراري جسمها ، فتسلل الموتى الـى
النعناع واعتنقوا البديل

عبروا على دمها ،
وكان الناس يلتئمون ، والشعراء يقتسمون خاتمة
القصائد

والنساء جلسن بين فراشة الموتى وقنديل الرحيل
وقفت على جبل البكاء
وقفت بلا قمر ، فأخرجها نواطير الغيوم من السماء

(١) احدى ضحايا القنبلة الاسرائيلية في عيترون .

تركت على شباكنا غصنا وغصنا ضاع في بقع الدماء
ويقال : كانت تستحيل فراشة وتحوم حول قرى
الحدود وحين يدركها المساء
كانت تغني للصغار ولا تعود من الغناء

(٣)

كان لي ذات يوم ضفيرة
كان لي قمر شارد بين امي وبين السماء الصغيرة
لاح في ذكريات القرى ثم مات
واستراحت على مقلتيه الشظايا
كان لي قمر في الحكايا
حين ابكي ينام على جثتي او يدور
ثم يجري الى مستقر له بين جسمي وبين استداراته
في القبور

(٤)

كان لا يعرف البحر لكنه يرتدي موجة وينام
كان يعلم ان الغصون التي هزها في الظلام
تناديه ، لكنه لا يصدق ،
تأتيه مثل البكاء الخرافي ، لا يتهدج ،
تأتيه مثل النواقيس ، ان قطيع الصدى يستحيل
كان بيني وبين القتيل
قمر فاتن واغاريد ، حين ارتدت راحتيه السيول
كانت الخيل تشرب اقدامها في القرى
فأغني لمن لم تمته الفصول

(٥)

المدى ينحني ،
والحجارة تبني اناملها وتدور
نادني يا خريف العصور
انا الورق اللانهائي والغامض المستدير
اطلقوا جثتي بين زنزانتين
اطلقوا كسرة من دمي بين صفصافتين
أنا الآن اصغر مما انا
من رأى البحر يسقط في دمعة ،
من رأى الشمس تفاحة في خريف صغير
انني موحش ودمي قارس
...ميد وحبيبي أسير

(٦)

وغادرت اسماءهم في العشية ،
والقلب نجم بعيد المنال
رآني غزال المسافات احصي خطاهم ، فأكمل صحراءه
في الضلوع ،
ولما أسال على وجنة الرمل دمع القرى
قلت هذا دمي يا غزال
فألقى على ساعدي نجمة واستراح ،
وكانوا على شجر الليل يبكون
كانوا ينامون في آخر الذكريات
فأسرجت قلبي على خنجر الليل ،
حتى تقوس مثل الهلال

(٧)

وسدوني دم القتيل
وسدوني حبيبتي
مشطوا شعرها الجميل
ان سنبلة تنحني في خريف الكلام
ايها الساهرون على صفحة الماء
هل من رأى صورة للاحبة فيها ؟
شمسهم في دمي
شمسهم في مهب السواد
دمهم ناصع كالحصى
سجلوا في بياض العناقيد احلامهم
هل ترون الثمار التي خلّفوها ؟
كلما اينعوا في دم يعتريهم ملائكة ميتون
واذ توصد الارض ابوابها .
ترتديهم نجوم السماء فلا يرجعون
ذهبوا باتجاه الحقول
قل لهم يا امير الجنادب ان يرجعوا
قل لهم اننا نعتلي تحت شمس سديمية طائر الذكريات
ان ريحا خرافية تبعد العاشقين عن العاشقات
ربما يرجعون
فلقد صار للجلد لون التراب ،
ولا شيء في الافق الا صهيل الجنون

لبنان الجنوبي

الحركة الأنعزالية وخطر تفاقم « القضية اللبنانية »

اعدت « لجنة الثقافة والدراسات » في جمعية متخرجي المقاصد الاسلامية في بيروت ، هذه الدراسة ـ الوثيقة التي تلقي الاضواء على الاسباب الاساسية لاحداث لبنان الاخيرة .

١ ـ الحركة الانعزالية خطر على العروبة

اكدت الاحداث الرهيبة التي سادت لبنان منذ نيسان ١٩٧٥ واستمرت ستة عشر شهرا ، وجود حركة انعزالية نشطة في لبنان بين صفوف « الموارنة » ، بحيث بات من الواجب التصدي لخطورة الوضع الذي اخذ يتمثل بما يلي :

١ ـ تعرض العروبة في لبنان لخطر التصفية عن طريق خلق اوضاع معينة تؤدي الى نزع الهوية العربية عن لبنان نهائيا .

٢ ـ محاولة انشاء كيان عنصري على اساس طائفي بحيث يلقى الدعم والتأييد من اسرائيل التي تجد فيه افضل مبرر لوجودها .

٣ ـ خطر احتمال انتقال عدوى الشعور بالانتماء الطائفي ، الذي يفكك الحس بالانتماء الوطني والقومي ، الى اقطار عربية اخرى .

وهكذا اصبح من الواجب التعرف الى الجذور التاريخية والى التحركات الحالية لتلك الحركة الانعزالية العنصرية ، تمهيدا لفضحها نهائيا ثم لمحاربتها وللتصدي لجميع وجوه تحركها المحتملة مستقبلا .
هذا مع التاكيد انه ليس من المبالغة في شيء القول باننا نعاني حاليا من « قضية لبنانية » يخشى في حال عدم مجابهتها بسرعة وجدية ان تتفاقم فتماثل وربما تفوق في خطورتها القضية الفلسطينية .

٢ ـ العلامات المميزة للتحرك الانعزالي خلال الاحداث

أ ـ رئيس الجمهورية السيد سليمان فرنجية تخلى عن دوره كرئيس لجميع اللبنانيين ودخل طرفا في الحرب الاهلية من الناحيتين السياسية والعسكرية ، خاصة وهو مؤسس ميليشيا معروفة باسم « جيش التحرير الزغرتاوي » كما انه استخدم الجيش اللبناني في المشاركة في تدريب الميليشيات الطائفية وتسليحها ، وفي المعارك ضد الفريق الوطني .

ب ـ وزير الداخلية السيد كميل شمعون (رئيس الجمهورية ايام فتنة ١٩٥٨) دخل أيضا طرفا ، ووجه جميع أجهزة الامن الداخلي لخدمة الفريق الانعزالي بالاضافة الى رعايته منذ زمن طويل لميليشيا خاصة نعرف باسم « النمور » .

ج ـ حزب الكتائب (رئيسه بيار الجميل) يدعو الى العمل الديمقراطي من خلال مؤسسات النظام وفي الوقت نفسه يمتلك أضخم ميليشيا قامت بتنفيذ ابشع المجازر الجماعية ضد الابرياء ، ومنها مجزرة اتوبيس عين الرمانة (٣٠ قتيلا) في ١٣ نيسان ١٩٧٥ (بداية الاحداث) ومجازر السبت الاسود ٦ـ١٢ـ٧٥ (خطف حوالي ٣٠٠ من الشوارع والمكاتب في العاصمة ثم تصفية حوالي ٢٥٠ منهم فورا على اساس انتمائهم الاسلامي) .

د ـ ظاهرة الاباتي « شربل قسيس » وهو الراهب المعروف ، رئيس الرهبانيات اللبنانية (المارونية) الذي كان يتبنى اكثر الافكار تطرفا ، ويشجع على اعمال العنف كافة ، ويضع الاديرة بامكانياتها في خدمة الميلشيات الطائفية على جميع الاصعدة .

هـ ـ رغم جميع اتفاقات وقف اطلاق النار والتي جاوز عددها الخمسين ، فان الفريق الانعزالي كان يعمد دائما الى خرق الاتفاقات والعودة للاقتتال ، حتى بلغت الخسائر البشرية ما يقدر بـ ٣٠ الف قتيل و ٨٠ الف جريح معظمهم من الابرياء والعزل (في بلد سكانه حوالي ٣ ملايين) . والخسائر الاقتصادية جاوزت الدخل الوطني لمدة أربع سنوات ، في الوقت الذي كانت الحرب تكلف الفريق الانعزالي ما يقارب المليون دولار يوميا (دون ثمن الاسلحة طبعا) .

و ـ منذ بدء الاحداث ، شجع الانعزاليون على التهجير ثم عملوا على تنفيذه بالعنف ، بقصف المناطق السكنية واقتحامها والتعدي على سكانها الآمنين وعلى اموالهم واعراضهم ونسف المباني القائمة بما فيها المساجد (حي الكرنتينا ، سبنيه ، الغوارنة) . كما جرى احراق اسواق شعبية بكاملها بعد نهبها كسوق سرسق ، وقد ترتب على ذلك ردات فعل اصابت الابرياء من اللبنانيين في الجهة الاخرى ايضا ، كما في الدامور مثلا .

ـ قام الانعزاليون بحصار تجويعي لمخيمات واحياء يقطنها فلسطينيون ولبنانيون (مخيم تل الزعتر : ١٦ الف فلسطيني

و ١٥ الف لبنـاني) في الوقت الذي كانت تبحث فيـه قضـية فلسطين في مجلس الامن بعـد ١٢-١-٧٦ ، ثم اعلنـوا ان حرب تحرير كامل التراب اللبنـاني قد بدأت .. ضد العروبيين طبعا .

ز - عمل الانعزاليون على اضفاء الطابع الديني عمـدا علـى الكثير من تصرفاتهم ، وكان ابرز تصرف هو قيام محاربيهم بتعليـق صليب خشبي كبير بشكل استفزازي علـى صـدورهم تشبها ب « الصليبيين القدماء » .

ح - لم يوفر الانعزاليون الرعايا العرب من مذابحهم ، بل قاموا بالبطش بهم اينمـا علقوا في شباكهم ، رغـم تشدقهم المنافق ب « الشقيقات » العربية وبالدفاع عن قضايا العرب .

ط - يصنف الانعزاليون المقاومة الفلسطينية بين « مقـاومة شريفة » واخرى غير شريفة ، وهم فعـلا ضـد المقاومة اطلاقا ، لانهـا تمثل الارادة العربية بمقاومة الصهيونية حليفـة الانعزاليـة . فعقب اجتماع « للقمة المارونية المسلحة » برئاسة سليمان فرنجية صـدر بيـان عشية اجتياح مخيم ضبية (١٤-١-٧٦) جاء فيه « ان الطائفة المارونية في لبنان تعتبر ان النزاع الحالي انمـا هو نـزاع بـين اللبنانيين خاصة المسيحيين منهم وبـين الفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين » علما بأن مخيم ضبيـة يضـم لاجئـين فلسطينيين مســيحيين .

ي - يثير اقطاب الحركة الانعزالية موضوع « تسليح المخيمـات الفلسطينية » في الوقت الذي يعرقلون فيه اتخاذ اية اجراءات فعالة للدفاع عن ارض الوطــن وسمائــه وسواحله ، علمـا بأن تسلح الفلسطينيين في لبنان كان بالدرجة الاولى للدفاع عن النفس ضـد الغارات الاسرائيلية المتكررة .

ك - قبل الاحداث وخلالها ، دأب دعاة الحركة الانعزالية مـن الموارنة على الاصرار بالادعاء انهم يمثلون جميع مسيحيي لبنان وينطقون باسمهم ، وان ما عداهم اقل منهم « لبنانية » وبالتالي فان الطائفـة المارونية هي التي تستحق بنظرهم تمثيل كل لبنـان ، علمـا بانهـا تشكل اقل من ٢٠ بالمئة من عدد اللبنانيين ، كما دأب بعض دعاتهـم على الادعاء بأن موارنـة لبنان هم حماة الايمـان المسيحي في الشرق ، وبالتالي فان « لبنانهم » يجب ان يكون ملجأ جميع مسيحيي الشرق.

ك - يلاحظ ان مئات من «الجامعيين» و « رجال الفكر »واصحاب المهن الحرة من اطباء ومحامين ومهندسين وغيرهم قد شاركت في الاعمال القذرة التي شهدتها الحرب الاهلية ، وذلك ضمن اطـر مختلف الميلشيات الانعزالية المسلحة ، بل ان المسؤول عن احـد التنظيمـات الجديدة التي ظهرت خلال الاحداث هو « نقيب » الاطباء الدكتـور فؤاد الشـمالي .

ولا يفوتنا الاشارة الى « الشاعر » سعيد عقـل ، احد منظري الحركة الانعزالية ، والذي هو بالمناسبة صاحب الدعوة الى احلال « العامية » محل « الفصحى » وكتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني.

٣ - مواقف الحركة الانعزالية بعد الحرب العالمية الاولى

أ - مرحلة الانتداب (١٩١٩ - الحرب العالمية الثانية) :

ادت الحرب العالمية الاولى الىالقضاء على الامبراطوريةالعثمانية والى دخول بلادنا ضمن نطاق النفوذ الفرنسي . ونظرا لاثر التدخلات الاجنبية فقد تراءى للانعزالية ان الفرصة قد سنحت لربط « جبل لبنان » ذي الاكثرية المارونية في حينه مباشرة بفرنسا ، غير ان مصلحة فرنسا الدولة الكبرى كانت تقضي بتوسيع نفوذها ليشمل اكبر جزء ممكن من الشرق العربي ذي الاكثرية الاسلامية ، فكان مولد « دولـة لبنان الكبير « (الحدود الحالية) على يد الجنرال غورو بعـد معركـة ميسلون (١٩٢٠) . وحظيت الانعزاليـة بعدئذ ، بالرعاية الكاملة من قبل فرنسا ، التي شجعت انصارها من الموارنة وغيرهم ، على التغلغل في اجهزة الدولة . ولا يفوتنا ان نذكر بهـذه المناسبة ان « الكتائب » قد نشأت في تلك الفترة (١٩٣٦) بايحاء من سـلطة الانتـداب لمجابهـة الوطنيين من جميع الطوائف ، وقد ترأس تلك المنظمـة منـذ ذلك الوقت الشيخ بيار الجميل . وبالمقابل كان الوطنيون يقاومـون الانتداب ويعملون للاستقلال حتىكانت الحرب العالمية الثانية ، فنشأت متغيرات دولية مهدت لمرحلة الاستقلال .

ب - مرحلة نيل الاستقلال (١٩٤٣)

نتيجة المتغيرات المشار اليها ، اضطرت فرنسا للاعلان عـن استقلال سورية ولبنان (حزيران ١٩٤٢) ، فقوى الاتجاه الاستقلالي في البلاد وضعف التيار الانعزالي المرتبط بفرنسا دون ان يتلاشـى .

في هذه الاجواء ، تمكن الاستقلاليون من جميع الفئات من وضع اسس دولة الاستقلال ضمن صيغة وطنية تؤمن بالتعاون التام مـع الدول العربية وقد كان لبنان بالفعل من مؤسسي جامعة الدول العربية (١٩٤٥) .

ج - مرحلة الاستقلال ولتاريخه

ما ان بدأت تتضح اتجاهات الحرب العالمية الثانيـة وتظهـر نتائجها ، حتى عادت الانعزالية في لبنان تطل برأسها ، اعتمادا علـى اتجاه الدول الكبرى الى اعادة اقتسام منـاطق النفوذ في الشـرق الاوسط والى تثبيت مصالحها . وهكذا رأينا الانعزاليين يجاهرون تارة بمعارضتهم لجلاء القوات الاجنبية عن لبنان ، ويطالبون تارة اخـرى بانشاء وطـن قومي مسيحي في لبنان ، على غرار وطن يهـودي في فلسـطين .

ومع ان جلاء الجيوش الفرنسية عن لبنان قد تم في نهاية١٩٤٦، فان نكبة العرب في فلسطين بانشاء اسرائيل عام ١٩٤٨ قد انعشتامال الانعزاليين بامكانية تحقيق احلامهم بالعمل الطويل المنظم وبالاعتماد على الدول الاجنبيـة .

ثم كان عهد كميل شمعون الذي صدم بتعاظم المد الوطني العروبي في لبنان ، فعمل على ادخال لبنان ضمن ما عرف « بمبدأ أيزنهاور » « حماية » للانعزالية . وهكذا حدثت فتنة ١٩٥٨ التي صعدت ، بتشجيع من كميل شمعون والكتائب ، الاجواء الطائفية في البلاد . على اثر تلك الاحداث تمكنت الكتائب من دخول مجلس النواب لاول مرة وانشأ كميل شمعون حزب الوطنيين الاحرار .

وبوصول سـليمان فرنجية « الاقطاعي الطائفي » الى سـدة الرئاسة (١٩٧٠) توفرت للانعزاليـة اللبنانية افضل الاجواء لتصعيد ممارساتها على جميع الاصعدة ، ومنها النشاط الاعلامي وشحن النفوس والاجواء بالتشنجات الطائفية وبالعداء للعروبة (متمثلة خاصـة بالفلسطينيين) وتضخيم الميلشيات وتجهيزها حتى توفرت منذ اكثر من عامين ظروف هيأت للاحداث الاخيرة ضمن عوامل دولية مؤاتية .

٤ ـ التدخلات الاجنبية في الشرق وزرع بذور الحركة الانعزالية في « جبل لبنان » .

أ ـ من الحروب الصليبية (القرن الثاني عشر) وحتى الغزو العثماني (القرن السادس عشر)

بدأت التدخلات الاجنبية خلال الحروب الصليبية بمبادرات (١٢١٣ م) من باباوات روما نحو الكنيسة المارونية بغرض استمالتها ، ولم يكن ذلك بالشيء السهل بل استغرق قرونا . هذا ، وان اقتلاع الكنيسة المارونية من جذورها الشرقية وربطها بالغرب قد رافقه نزاعات بين الموارنة . ولجأت الكنيسة الكاثوليكية ايضا الى استخدام المرسلين الذين كانوا يتغلغلون في اوساط الاكليروس الماروني ويتبوأون رتبا كهنونية رفيعة .

واستمرت المحاولات المختلفة ، والتقارب التدريجي ، حتى تم الاتحاد بين الكنيستين في ١٧٣٦ م ، وكان هذا ذروة النجاح في وضع كنيسة شرعية بكاملها تحت سلطة البابا بحيث اصبح التوجه الروحي للموارنة نحو اوروبا ، أي نحو الغرب .

ب ـ الحكم العثماني وخاصة في القرن التاسع عشر

جرى تنظيم العلاقات التجارية بين الغرب والشرق ، التي نشأت في الحروب الصليبية ، وتوقفت فترة طويلة ، ثم استؤنفت في القرن الرابع عشر ، بموجب ما عرف بـ « الامتيازات الاجنبية » . وكان اشهرها اتفاق السلطان سليمان وفرنسوا الاول ملك فرنسا عام ١٥٣٥م، وكان هناك بعد ذلك اتفاقات سياسية اباحت للدول الاجنبية ومنها فرنسا التدخل في امور داخلية كحماية الحجاج الاوروبيين (١٧٤٠) وبالتالي حماية النصارى الكاثوليك في سورية ..

بالاضافة الى ذلك كان هناك تدخلات مباشرة مع الموارنة ، بشخص رئيسهم الديني ، من قبل ملوك فرنسا (١٦٩٧ و ١٧٣٧ مثلا) وبواسطة قناصلهم وذلك مع تعهد « بحماية الموارنة » . كما لجأت فرنسا الى تعيين قناصل لها هنا ، من اهل البلاد ومن كبار اقطاعيي الموارنة ، وبعضهم كان على علاقة خاصة مع الامراء المحليين وخاصة الشهابيين . وشهد القرن الثامن عشر والقرن التالي تنصر الامراء الشهابيين ، وازدياد نفوذ الموارنة في « جبل لبنان » ، ووقوعهم تحت التأثير الكامل للارساليات التبشيرية والتعليمية التي كان جل افرادها من الفرنسيين . كما ان سياسة الامير بشير الثاني المحلية قد هيأت الظروف للفتن الطائفية (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) حتى كان الانفجار الكبير عام ١٨٦٠ ، وعلى اثره ظهرت بوضوح اكثر « المسألة الشرقية » ، وتدخلات الدول الاوروبية في « الرجل المريض» بحجة « حماية الاقليات المسيحية » ، وقد فرضت تلك الدول على « جبل لبنان » حكم المتصرفية الذي اعطى الطابع الطائفي للجبل بشخص حاكمه « الكاثوليكي » « الاجنبي » . كما أن احداث ١٨٦٠ زادت الحساسيات الطائفية ، وجعلت الموارنة اكثر التصاقا بفرنسا ثقافة وتطلعا سياسيا ، حتى كانت الحرب العالمية التي توجت بمآسيها سوء الاوضاع في « جبل لبنان » خلال عهد المتصرفية ، وظن الانعزاليون ان الخلاص سيكون بسلخ لبنان نهائيا عن الشرق والحاقه بفرنسا بعد انتصارها في الحرب . وكانت الظروف التاريخية ، التي رافقت نشأة الموارنة ثم لجوؤهم الى « جبل لبنان » وانقطاعهم فترة طويلة عن الاحتكاك بالعالم حولهم حتى كانت الحروب الصليبية وما تلاها مما ذكرنا ، عوامل رئيسية في جعلهم العمود الفقري للانعزالية في لبنان ، وهذا واضح في الدراسة التاريخية المرفقة .

٥ ـ الاسباب الظرفية المباشرة لانتقال الحركة الانعزالية من العمل السياسي الى العمل العسكري .

اخذت الحركة الانعزالية منذ سنوات ، خاصة في الثلاث الاخيرة منها ، تعدل من نمط عملها ، وتحضر للانتقال من العمل السياسي المغلف بالمسالمة الى العمل العلني العنيف ذي الطبيعة الفاشية ، الى ان كان الانفجار الاول في ربيع ١٩٧٥ . وقد تم هذا التغيير في نمط العمل بعد ان وجدت الحركة الانعزالية انها ستخسر جميع مواقعها اذا تابعت عملها باسلوب الحوار الديمقراطي والممارسة البرلمانية، خاصة وانها قد وجدت من اسرائيل وحلفائها كل ما تبتغيه من دعم ومساندة . اما الاسباب الظرفية ، التي ساعدت على دفع الحركة الانعزالية في اتجاه تغيير نمط العمل ، فهي كما يلي :

أ ـ ان التغيير السكاني (الديموغرافي) بين اللبنانيين منذ عام ١٩٢٠ (انشاء كيان لبنان الحالي) قد ادى الى حصول اختلال عددي كبير لغير صالح الموارنة (والحركة الانعزالية بشكل عام) .

ب ـ ان النمو العددي المشار اليه قد رافقته زيادة في عدد « المتعلمين » وتحسن في القدرة الاقتصادية اجمالا عند الفئات الاسلامية مما زاد في مخاوف الانعزاليين .

ج ـ تصاعد الحس الوطني عند كثير من اللبنانيين بشكل اخذ يهدد الشعور الطائفي الذي تستند اليه الحركة الانعزالية ، هذا بالاضافة الى تنامي الشعور العربي في لبنان خاصة بفعل وجود « المقاومة الفلسطينية » على أرضه .

د ـ بعد ان سادت الحكم خلال الثلاثين سنة الماضية ، هيمنة « مارونية » طاغية ، بفعل تأثير مرحلة الانتداب ، وتثبيت الامتيازات الطائفية « المارونية » ، بات من الاصح تسمية عهد الاستقلال « بالعهد الماروني » . غير ان هذا الحكم ، لم يحقق فعليا أي نجاح في اقامة الدولة المستقرة المتجانسة ، كما فشل في تحقيق أية سياسة انمائية فعالة في المناطق المتخلفة . وقد برز الفشل بشكل فاضح خلال عهد الرئيس فرنجية حيث عم الفساد وساد الانحلال في النواحي السياسية والاجتماعية والانمائية على صعيد مختلف مؤسسات الدولة. ازاء هذا الواقع المرير ، ونتيجة لمطالبة الفئات الوطنية بتحقيق الاصلاح وبالمشاركة الفعلية في الحكم ، توطد العزم لدى الانعزاليين على طمس الفشل ، فكانت الاحداث الاخيرة افضل وسيلة لذلك ، بتوتير الاجواء الطائفية وشحنها بواسطة مختلف الممارسات.

هـ ـ بعد حرب ١٩٧٣ خاصة ، اصبحت اسرائيل بحاجة ماسة الى تبرير وجودها الطائفي العنصري في المنطقة ، وذلك بالعمل على نشوء دويلات طائفية عنصرية اخرى تكون في الوقت نفسه مبررا وحليفا لها ، وكان لدى الحركة الانعزالية كل الاستعداد والرغبة للعب هذا الدور في لبنان ، أو في جزء منه على الاقل .

و ـ نظرا للتوافق بين اهداف الصهيونية والانعزالية في ضرب العروبة ، فأن الحركة الانعزالية وجدت نفسها تنجرف وهي بكامل وعيها الى العمل على استنزاف المقاومة الفلسطينية والهائها بمواضيع جانبية تمهيدا لضربها ، وضرب حلفائها العروبيين في لبنان .

ز ـ نظرا للتوافق بين الاهداف البعيدة للانعزالية والصهيونية والقوى العالمية ، المعادية جميعها لتصاعد قوة العرب ، وبعد ان ظهر خلال حرب تشرين الاول ١٩٧٣ مدى تأثير التضامن العربي ، كما برز بعدها تزايد نفوذ العرب السياسي وتصاعدت مقدرتهم الاقتصادية والمالية (النفط ومداخيله المتزايدة) ، فأن الحركة الانعزالية قد تحالفت مع القوى المضادة لضرب التضامن العربي ، ولمحاولة تفكيك الشعب العربي في لبنان ، وفي غيره من الاقطار العربية

باحلال حس الانتماء الطائفي الفئوي محل الحس الوطني والقومي ، تمهيدا لافتعال الصراعات الداخلية المدمرة .

٦ ـ بعض المعلومات عن أبرز قيادات ومنظمات الحركة الانعزالية

أ ـ السيد سليمان فرنجية ، رئيس الجمهورية ومنشيء «جيش التحرير الزغرتاوي » (لاي تحرير ؟) لا يتعدى افقه الفكري حدود قريته « زغرتا » ، ونظرته للمواطن تتحدد حسب انتمائه العائلي الطائفي. قامت الميلشيا التابعة له ، التي يشرف عليها ابنه طوني ، وتضم بعض الفارين من وجه العدالة ، بممارسات عسكرية بشعة ضد طرابلس وقضاء الكورة ، وبمجازر جماعية أشهرها مجزرة داريا وبقطع مياه الشرب عن مدينة رئيس الحكومة طرابلس .

ب ـ السيد بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب ، اسس الحزب عام ١٩٣٦ كمنظمة سياسية شبه عسكرية برعاية السلطة المنتدبة فرنسا لمقاومة الاتجاه العربي في لبنان . لم يدخل البرلمان الا بعد فتنة ١٩٥٨ التي اشعلها كميل شمعون وساندته فيها الكتائب . كانت لبيار الجميل ، حتى قبل انشاء دولة اسرائيل ، مواقف عبر فيها عن تعاطفه مع الحركة الصهيونية ، انطلاقا من مسعى الانعزالية لانشاء وطن قومي طائفي في لبنان . (راجع الملحق التاريخي) .

اما ميلشيا الحزب ، فهي اضخم ميلشيا انعزاليه واكثرها تنظيما، ولها أطر من رجال الاعمال واصحاب المهن من اطباء ومحامين ومهندسين ، والمنتشرين خارج لبنان ايضا ، حيث يعملون متسترين لخدمة اهداف الحزب في البلاد العربية وفي بلاد الاغتراب ، اميركا واستراليا . وفي الاحداث الاخيرة فرض الحزب نفسه على سكان المناطق التي يسيطر عليها الانعزاليون (المنطقة الشرقية من بيروت والمتن الشمالي وكسروان) كبديل للسلطة في محاولة لتامين بعض الخدمات بالقوة والخوة . شاركت الميلشيا بشكل بارز في عمليات التهجير القسرية والجماعية في حارة الغوارنة ، الكرنتينا ، المسلخ ، مخيم ضبية الخ .. كما شاركت في الحصار التجويعي لمخيمي تل الزعتر وجسر الباشا ومنطقة النبعة . قامت بمجازر جماعية (عين الرمانة ، السبت الاسود ..) وباعمال القنص والخطف والقتل حسب الانتماء الطائفي والتشويه والتعذيب . كما جندت الكتائب فتيات لبنانيات شاركن في جميع الاعمال المذكورة ..

ج ـ كميل شمعون ، مؤسس ميليشيا « النمور » المسبب لفتنة ١٩٥٨ ، التي جعلته قائدا طائفيا بارزا ، اشتهر بالالاعيب السياسية الملتوية وبارتداء لباس العروبة الكاذب وهو الانعزالي المتعصب .

د ـ الرهبانيات برئاسة الاباتي شربل قسيس المعروف بتردده على الاراضي المحتلة في فلسطين ، قامت بدعم الميليشيات العسكرية على كافة الاصعدة ، ووضعت الاديرة ومؤسساتها في خدمة الاعمال العسكرية .

هـ ـ الرابطة المارونية برئاسة المحامي شاكر ابو سليمان ، كان لها ايضا تنظيمها العسكري الخفي .

و ـ « التنظيم » (الماروني) ، والمسؤول عنه الدكتور فؤاد الشمالي نقيب اطباء لبنان . اشتهر بممارساته البشعة لاثبات وجوده في الساحة ، وفي صفوفه يكثر عدد اصحاب المهن الحرة ، والمسؤول عن التدريب هو « المحامي » جورج عدوان .

ح ـ حراس الارز ، ومنظرهم « الشاعر » سعيد عقل المغالي في عدائه للعروبة وللثقافة العربية خاصة . مسؤولهم العسكري « ابو ارز » وهو السيد اتيان صقر .

وهناك تنظيمات عسكرية اخرى بأسماء عديدة ذات مدلولات دينية او عنصرية . (مار نهرا ، جماعة الصليب ، فتيان ادونيس ..)

٧ ـ الحركة الانعزالية تحاول التشبه بالحركة الصهيونية

نعلم ، بالرجوع الى التاريخ (راجع الملحق) ان نشأة الموارنة المذهبية ، كان لها تأثير كبير على ايجاد « الشعور بالاقلية » لديهم تجاه ابناء ديانتهم من سائر مسيحيي الشرق وتجاه المحيط الاسلامي في ما بعد .

كما ان مشاحناتهم المذهبية مع اليعاقبة من مواطنيهم المسيحيين ثم اضطهاد الروم البيزنطيين لهم قد دفعهم الى « اللجوء الى جبل لبنان » فنشأت لديهم تلك العقدة بانهم « لاجئون » وبأن لبنان الجبل « ملجأ » لا وطن كسائر الاوطان .

اما بقاؤهم قرونا عديدة في الجبل بعيدين عن الاحتكاك بالمحيط حولهم فقد نمى لديهم نزعة « الانغلاق » .

يضاف الى ما ذكرنا ، التدخلات الاجنبية للبابوات والمرسلين المذكورة في الملحق ، والتي استغلت اوضاع الموارنة المشار اليها واوحت اليهم انهم « وردة بين الاشواك » وانهم « شعب مختار ، اصطفاه الله ، وأوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحية في الشرق » .

وتابعت التدخلات الاجنبية مع الموارنة في لبنان مساعيها حتى سلختهم كنسيا عن الشرق والحقتهم بالغرب فزاد شعورهم المصطنع بانهم غريبون عن هذا الشرق .. وجاءت فرنسا تعرض عليهم «حمايتها» و « رعايتها » امعانا في ابعادهم عن سائر اخوانهم في الوطن واكتسابهم وجعلهم اكثر التصاقا بها خدمة لمصالحها الاستعمارية في الشرق ، حتى اعتقد قسم كبير من الموارنة بامكانية انشاء وطن قومي طائفي خاص بهم يرتبط مباشرة بفرنسا . وقد كان للارساليات الاجنبية التأثير الاكبر في خلق التيار الفكري الانعزالي ، وذلك بطمس التاريخ الحقيقي للمنطقة وتزييف تاريخ اخر وتوجيه اهتمام الطلبة الى تاريخ فرنسا خاصة واوروبا عامة والى ثقافتها .

كما عمل المبشرون واتباعهم على محاربة اللغة العربية وتصغير دور الثقافة العربية مما رسخ في اذهان الاكثرية المارونية ضعف ، أو حتى انعدام صلتهم بالعروبة تاريخا وثقافة .

من هنا ، كان نشوء التيار الانعزالي المبني على فرضية وجود عنصرية مارونية متميزة ، وبالتالي اخذت الحركة الانعزالية تحاول تتبع خطى الحركة الصهيونية بتوجيه من القوى العالمية المعادية للعروبة .

أ ـ في الاستراتيجية

ـ السعي لانشاء وطن قومي طائفي يستند الى ان الموارنة شعب مميز ومختار من الله وله ، حسب زعمهم ، صفاته القومية .

ـ الاعتماد على الغرب في انشاء ذلك الوطن وفي تأمين الحماية له .

ـ استخدام الولاء المزدوج للموارنة المغتربين في سبيل تأمين الدعم والمساندة ودعوتهم للعودة الى الوطن . وقد يكون انشاء « الجامعة اللبنانية الثقافية في العالم » بداية لخلق المؤسسة العلنية لربط المغتربين ، وخاصة الموارنة منهم ، على نمط الوكالة اليهودية ، ولقد صرح بدوي أبو ديب الامين العام لتلك الجامعة في ١٤ـ٢ـ٧٦ « اننا سنقتدي بما فعلته منظمات اليهود في الشتات لكي ندافع عن ثقافتنا وحضارتنا .. ان اكثر من ثلاثة ملايين لبناني (؟) مسيحي يعيشون خارج لبنان سيقومون بتنظيم صفوفهم لمساندة اخوانهم في الدين ، الذين يعانون في لبنان » .

ـ جعل ذلك الوطن ملجا وملاذا لمسيحيي الشرق ابعادا لهم من اضطهاد مزعوم ، كما يفعل الصهيونيون عندما يشجعون هجـرة اليهود من بعض انحاء العالم بزعم اضطهادهم هنـاك .

ب ـ في التكتيك :

ـ تزوير التاريخ : وذلك لاختلاق المبررات الزاعمة بان الموارنة يشكلون قومية متميزة وليسوا عربا ، وبانهم من اصل خاص يختلط فيه الفينيقيون والعناصر غير السامية ، وما الى ذلك مما ليس له أي اساس من التاريخ الصحيح (راجع الملحق) . فالموارنة باكثريتهم الساحقة ، عرب كسائر شعوب الاقطار العربية الشرقية ، اي من وطن عرقي واحد : شبه جزيرة العرب .

ـ اعتماد الدين : (كما تعتنقه طائفة معينة) كأساس للرابط العنصري بين افـراد الطائفة المارونية ، واعتباره كشرط كاف لايجاد الدافع لترابط الموارنة المقيمين في لبنان ، مـع الاخرين المغتربين الذين تركـوا لغتهم ومقوماتهم الاخـرى .

ـ اعتماد سياسة المراحل : تعتمد الحركة الانعزالية لتحقيـق اهدافها البعيدة على اسلوب المراحل الذي يساعد على تذليل الصعوبات الآنية اولا بأول ، وتبتغي التريث الى ان تنشأ الظروف المؤاتيـة وخاصة دوليا . ويتمشى هذا الاسلوب مع المخادعة والنفـاق ، في سبيل غش الخصوم وايهامهم زورا بان الانعزالية قد تخلت عن نشاطها وعن العمل باتجاه اهدافها .

ـ وضع الاجيال الناشئة ضمن اجواء فكرية خاصة : يشـدد الانعزاليون على ما يسمونه « بالتعليم الحر » ويقصدون به حريـة الارساليات الكاثوليكية خاصة ، من اجنبية ومحلية ، في التعليـم حسب التوجيهات التي يرتأونها مناسبة لافكارهم ، وهم يعارضون في الوقت نفسه تطوير مناهج التعليم وتوسيع دائرة التعليم الرسـمي ورفع مستواه امعـانا في ابقاء « التعليم التبشيري » هو المسيطر ، خاصة في المناطق المارونية . ويتعاونون مع الرهبانيات (التي شاركت في الحرب الاهلية) ومؤسساتها المختلفة على « تعييش » الشبيبـة المسيحية (والمارونية خاصة) في اجواء متعصبة ضمن جماعات مغلقة على قدر الامكان ، في محاولة لعرقلة الاختلاط والتبادل الفكري مـع باقي المواطنين من الطوائف الاخرى . وقد تصاعد هذا النوع من فرض الحجر الفكري ، اثناء الاحداث طيلة الشهور العشرة ، حتى اصبحت مناطق الانعزاليين « غيتوات » مغلقـة اعترف بوجودها الكثيرون ، ومن اشهرهم السياسي الماروني ريمون اده .

ـ تنظيم الشباب : اهتمت الحركة الانعزالية بتنظيم الشباب وكانت اولى البدايات الواضحـة تأسيس « الكتائب » كجمعيـة رياضية ذات تنظيم شبه عسكري عام ١٩٣٦ ، كما رافق ذلك الاهتمام بجمعيات الكشافة وما شابهها .

هـذا ويلاحظ ان الكتائب قد طورت اساليب عملها في عهـد الاستقلال وتحولت الى ما يشبه « الهاغاناه » وامثالها من العصابات الصهيونية ، وذلك كسائر ميليشيات الانعزاليين .

ـ التوسع في استعمال العنف البشع : منذ بداية الاحـداث انفجر الحقد الانعزالي بوجه المواطنين المسلمين ، وبوجه المواطنين العرب اجمالا ، وتمثل في عمليات الخطف والتعذيب والتشويه والقتل والقنص دون أي سبب سوى الانتماء الطائفي أو القومي .

وقد خدمت هذه الاعمـال خطـة الانعزاليين في تقسيم المناطق اللبنانية وفي التهجير الطائفي وفي اعلان العداء للعروبة .

ان محاولة « الحركة الانعزالية » في لبنان تقليـد « الحركة الصهيونية » في معظم نواحي الاستراتيجية والتكتيك لا يعني بالضرورة ان هناك تطابقا في الاساس الديني والتاريخي :

أ ـ في الاساس الديني : لا يمكن انطلاقا من مفاهيم الديانـة المسيحية الوصول الى الاسس نفسها التي تقدمها الديانة اليهودية عن « شعب الله المختـار » و « ارض الميعـاد » وما الى ذلك ... فضلا عن ان الدين المسيحي هو دين المحبة والتسامح ، وهـو يرحب بكل من يريد اعتناقه ، ولا يمكن « للمارونية » التي هي غصن مـن الفرع الكاثوليكي في الدوحة المسيحية الكبرى ان تختلف عن ما ذكرنا .

ب ـ في الاساس التاريخي : يزعم الصهيونيون زورا ، ان اليهود المنتشرين في العالم هم نتيجة عملية التشتيت والتشريد (الدياسبورا) التي تعرض لها اليهود القدماء في فلسطين ايام السبي الروماني ، غير ان الموارنـة الذين تركوا موطنهـم الاصلي في وادي العاصي وسهول سورية الداخلية وقصدوا « شمالي جبل لبنان » ، كان ما وصلوا اليـه « لجـوء وتجمعا » لمعظمهـم ، وكل ذلك هو عكس الشتات .

اما عملية « الهجرة » خلال القرن التاسع عشر فقد انطلقت لاسباب اقتصادية عقب اقامة « متصرفية جبل لبنـان » التي فصلت بين « الجبل » وبين السهول المنتجة والموانىء الجيدة .

هذه « الهجرة » لا يمكن طبعـا ان تشكل شيئا مشابها من الناحية التاريخية « للدياسبورا » ، والا لكان جميع من هاجر من بلدان العالم المختلفة الى بقاع اميركا واستراليا طمعا بالثروة قـد تعرض الى تشريد وتشتيت .

ولا يسعنا في الختام الا ان نلفت النظر مجددا الى خاصية من خاصيات الحركة الانعزالية ، وهي سياسة المراحل التي تعمل مـن خلالها الحركة لتحقيق اهدافها . وهكذا يتوجب التنبه دائما الـى هذه الناحية والبقاء في حالة الحذر والترقب .

هذا ، ولا يستبعد بعد آن تراجع حاليا الانعزاليون المتطرفـون عن سعيهم للتقسيم الذي لم يلق التجاوب اللازم من بعض القـوى الدولية ، ان يلجأوا الى تحريك قضية اللامركزية الموسعة باعتبارها قضية داخلية بحتة ، ولكنها تنقـل البـلاد الى مرحلة الكانتونات الطائفية ، بحيث تكون مقدمـة لاعادة طرح موضـوع التقسيم في ظرف مناسب .

ملحق تاريخي

ان المقصود بهذا العرض التاريخي هو القاء الاضواء على تاريخ الموارنة في لبنان من الزوايا التي تساعد على تبين ظروف نشـأة الحركة الانعزالية ونموها عبر التاريخ بفعل التدخلات الاجنبيـة في الشرق .

٢ ـ عرض سريع للفترة السابقة للحروب الصليبية

ان « لبنـان » او « جبل لبنـان » ككيان سياسي لم يظهر الا في العصور الحديثة ، (منذ الامارة المعنية العربية ايام فخرالدين في بداية القرن السابع عشر) ، وخاصة في المائة سنة الاخيرة . وقد كان قبل ذلك تعبيرا جغرافيا يقصد به اجمالا سلسلتا جبال لبنان الشرقية والغربية بما فيها احيانا جبل الشـيخ (آو حرمون) .

ومنذ قديم الازمان نزلت في البقاع الواقعة شمال جزيرة العـرب في ما عرف ببلاد ما بين النهرين وبسوريـة الطبيعيـة اقوام خرجت بغالبيتها العظمى من شبه الجزيرة العربية وقد عرفت اصطلاحـا

« بالساميين » ، وقد كان منهم الاموريون والكنعانيون (ومنهم الفينيقيون) والاراميون والاشوريون والايطوريون (او العيطوريون الذين نزلوا الارياف جنوبي جبل لبنان قبل الميلاد بقرون عديدة) والقبائل العربية الاخرى (غساسنة ، مناذرة ، الخ ..) .

ومن المفيد ان نشير الى ملاحظتين :

أ ـ ان الفينيقيين قد نزلوا السواحل وأسسوا الممالك ـ المدن من عكا جنوبا وحتى اللاذقية شمالا مرورا بصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس ولم ينشئوا اية دولة او سلطة موحدة . وكانت السفوح القريبة من الشاطىء وحيث الجبال خالية اجمالا من السكان تتبع سلطان الممالك ـ المدن الى حد ما .

ب ـ الشعوب « السامية » المشار اليها اعلاه تخلت تدريجيا عن وثنيتها واخذت تعتنق الديانة المسيحية بمختلف نحلها ومللها خاصة بعد اعتناق الحكم البيزنطي لها . وقد ظهرت قبل الفتح العربي بحوالي ٢٠٠ سنة في سهول سورية الداخلية على ضفاف العاصي وحتى حلب وانطاكية شمالا جماعة دينية مسيحية نسبت الى احد المتنسكين واسمه « مارون » فعرفت بالموارنة . كما ظهرت جماعات أخرى كاليعاقبة الذين كان لهم نزاعات دموية مع الموارنة (بسبب الخلاف المذهبي) استمرت حتى الفتح العربي حين سمح للموارنة « باللجوء » الى القسم الشمالي من « جبل لبنان » (الجبال الموازية للساحل بين طرابلس وجبيل على السلسلة الغربية فقط) . فكانت بداية اقامتهم في شمالي جبل لبنان وذلك ابتداء من النصف الثاني للقرن السابع الميلادي .

وكان الفتح العربي لسورية الطبيعية بشهادة المؤرخين فتحا يسيرا لان السكان الساميين ، ومنهم كانت بعض القبائل العربية المسيحية كالغساسنة وامثالهم ، قد رحبوا بالعرب الفاتحين الذين تربطهم بهم روابط القربى العرقية . وقد جاءوا يخلصونهم من حكم « البيزنطيين » الغرباء عنهم عرقا ولغة وثقافة . هذا مع العلم ان « جبل لبنان » كان شبه خال من السكان اللهم الا من بعض النساك .

وقد يكون من المفيد ان نذكر هنا ان بعض العائلات اللبنانية المارونية العريقة تعتقد انها من عرب جنوب الجزيرة العربية كآل الخازن الذين يدعون انهم من الغساسنة أو آل ملحمة الذين يقولون ان اجدادهم قد اتوا الى العاقورة (جبل المنيطرة) من حوران أيضا وعن طريق دمشق (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) فالموارنة اذن هم عرقا عرب .

وفي النصف الثاني للقرن العاشر ، بعد ان حل الضعف في الدولة العباسية واستطاع الروم استرجاع قسم كبير من سورية ، ترك باقي الموارنة وادي العاصي و « لجأوا » الى شمالي جبل لبنان وقسم اخر منهم الى حلب حيث اجتمعوا بامرائها العرب المسلمين من بني حمدان ثم بني مرداس . وقد كانت المدينة السورية التي لم تسقط في يد الروم . (د. ك صليبي ـ الموارنة ، صورة تاريخية) .

وهكذا تبت ان « لجوء » الموارنة كأقلية دينية الى شمالي جبل لبنان قد تم على مرحلتين : الاولى بسبب مشاحناتهم مع مواطنيهم المسيحيين من اليعاقبة ، والثانية : هربا من اضطهاد اخوانهم في النصرانية وهم الروم الغرباء ، اما العرب المسلمون فكانوا افضل حماة لهم داخل امبراطوريتهم الكبرى . وقد مكث الموارنة في بيئتهم الجبلية المحصورة في الكتلة الجبلية الموازية للساحل بين طرابلس وجبيل قرونا عديدة حتى حوالي نهاية الحروب الصليبية ، فكانوا قليلي الاحتكاك بالمحيط حولهم حتى بالغ بعض المؤرخين بالقول « انقطع الموارنة بعد لجوئهم الى جبل لبنان عن العالم الخارجي » (د. ك صليبي ـ الموارنة ، صورة تاريخية) . اما فترة الحروب الصليبية فلم تشهد اية علاقة خاصة او متميزة بينهم وبين الصليبيين بل كان منهم بعض المرتزقة من الادلاء وحملة الاقواس كما كان من غيرهم بعض الفرسان المسلمين والمشاة الارمن (فيليب حتي ـ لبنان في التاريخ) . وهنا لابد من لفت النظر الى انه من الناحية الدينية الكنسية كان الموارنة من المسيحيين الشرقيين الذين لا علاقة لهم بالكنسية الغربية في روما حتى بدأت بعض الاتصالات البابوية بهم خلال الحروب الصليبية مما سنعود له فيما بعد .

.. وبعد الفتح العربي ، بالاضافة الى الموارنة الذين لجأوا كما قلنا الى شمالي جبل لبنان ، فقد نزلت ابتداء من منتصف القرن الثامن في جبالنا ، خاصة المحيطة منها ببيروت ، قبائل عربية (مسلمة) من اللخميين والارسلانيين ثم التنوخيين فعمرت الجبال بالسكان المقيمين . وخلال الحروب الصليبية تعززت عروبة هذه البلاد على عكس ما قد يظن بعضهم « فقد بقيت جبال بيروت مع المسلمين فيما كانت المدينة في ايدي الفرنجة » (تاريخ بيروت لصالح بن يحي التنوخي) . ووفد المزيد من القبائل العربية الاصيلة كالمعنيين والشهابيين الذين شاركوا مشاركة فعالة في تطهير البلاد من الفرنجة وفي حمايتها من غزوات فلولهم على سواحلها ، وفي عهد المماليك اخذ الموارنة ينتشرون جنوبا فدخلوا كسروان باعداد كبيرة ، وهم لم يتعرضوا بشكل خاص لاي اضطهاد من المماليك، بل على العكس فان التأديب قد اصاب فئات من المسلمين المتواطئين مع فلول الفرنجة ، فحل الموارنة مكانهم في كسروان ، بعد ١٣٠٥م .

واذا كانت الحروب الصليبية قد شكلت نقطة تحول في تاريخ الموارنة فلانها بعد قرون من « العزلة » التي فرضها على انفسهم معظم الموارنة في شمالي جبل لبنان ، فولدت لديهم اولا بحكم وضعهم الديني عقدة « الاقلية » بالنسبة لباقي المسيحيين ثم لمجموع المسلمين وثانيا بحكم التجائهم لبيئة جبلية عقدة « اللجوء والانغلاق » نقول بعد قرون من العزلة بدأت اوروبا نحوهم تحركا مشبوها تمثل اول ما تمثل بتقرب روما منهم كنسيا .

٢ ـ نتائج الحروب الصليبية

منذ عام ١٢١٣ م بدأ البابوات يبعثون برسائل الى البطاركة الموارنة يشيدون فيها بحسن ايمان الكنيسة ـ المارونية وبرسوخ عقيدتها الثابتة وذلك لاجتذابهم مظهرين لهم شديد اعجابهم حتى لقد وصف احدهم الكنيسة المارونية « بالوردة بين الاشواك » ، امعانا في التحريض المبطن . لكن تجدر الاشارة الى أن عملية اجتذاب الموارنة للالتحاق بكنيسة روما لم تكن سهلة بل انقسم الموارنة في الامر « وقام بين الفريقين خلاف شديد ادى الى اشتباكات دامية » هذا بالاضافة الى ان الفرنجة « كانوا على العموم ينظرون الى المسيحيين من ابناء البلاد بشيء من الغطرسة ويعتبرونهم ادنى مرتبة » ، وهكذا فان عملية اقتلاع الموارنة من جذورهم الشرقية وربطهم بالغرب (روما) تحقيقا لمصالح البابوية التي كانت في الاساس وراء التحريض على الحروب الصليبية لم تكن عملية سهلة ولا بمبادرة من اهل البلاد بل بتحريض من الاجنبي خدمة للنفوذ الاوروبي في بلادنا باصطناع اقليات (دينية) مرتبطة بالغرب . ومع الزمن اخذت العلاقات تتوطد حتى افتتح عام ١٥٨٤ في روما معهد خاص لتدريس اللاهوت لرجال الدين الموارنة . « ولقد كان لهذا الحادث مغزاه التاريخي فقد تخرج من هذا المعهد ألمع رجال الاكليروس الماروني الذين عادوا الى وطنهم ليعملوا في سبيل ضم الكنيسة المارونية الى حظيرة الفاتيكان ، لكن اتحاد الكنيسة المارونية التام مع الكنيسة البابوية لم يتم الا عام ١٧٣٦ (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) .

يضاف الى ما ذكرنا تأثير « الحركة التبشيرية » التي بدأت خلال الحروب الصليبية مع تأسيس الرهبانيات الكرملية (١١٥٤) والفرنسيسكان والدومينكان ، والتي وصف مهمتها احد اساقفة الدومنيكان عام ١٢٧٠ بالقول « نريد مرسلين لا جنـدا لاسترداد الارض المقدسة » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) وكان من جملة الاساليب التي اتبعت ان امتزج بعض الرهبان الاجانب بالاكليروس الماروني امتزاجا حتى تسلقوا فيه رتبا كهنوتية رفيعـة كالراهب الفرنسيسكاني غريفون (في لبنان ١٤٥٠ ـ ١٤٧٤) الذي كان يرسل الى رومة تلاميذ ليعودوا منها رهبانا قد تشربوا هناك الروح المطلوبة كجبرائيل القلاعي الذي « كتب مقالات عديدة دافع فيها عن علاقة الكنيسة المارونية بكنيسة روما » (ف. حتي ـ لبنـان في التاريخ) وقد تبوأ ذلك الراهب الفرنسيسكاني مركز مطران (توفي ١٥١٦) ونشرت له بعض القصائد الزجلية التي يصف فيها الطائفة المارونية بانها « شعب مختار ، اصطفاه الله ، والجاه الى مناعة جبل لبنان ، حيث اوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحية في الشرق » (ك. صليبي ـ الموارنة ، صورة تاريخية) .

وفي ايام المعنيين والشهابيين والمتصرفية (في القرن السابع عشر والثامن عشـر والتاسع عشـر) تدافعت ارساليـات الكبوشيين واليسوعيين الى بلادنا تزيد في ترسيخ النفـوذ الاوروبي في بلادنا وفي خلق العملاء له وتجميعها بواسطـة « التعليم والتبشير » في اطر طائفية .

ومن الملاحظ انه « كان جل افراد هذه البعثات ـ سواء أكانوا مرسلين ام تجارا ـ من المواطنين الفرنسيين الذين كانوا عن عمـد أو غير عمـد يمهـدون السبيـل لتحقيق السياسـة الخارجية الفرنسية التي وضعها لويس الرابـع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) والتي اتبعها خلفاؤه في تشجيع التجارة الفرنسية وحماية الكثلكة » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) .

٣ ـ العهد العثماني ؟ ترسيخ النفوذ الاجنبي

والان لابد من وقفة لنتبين بعض الملامح للعلاقات الاقتصاديـة والسياسـية بين الشـرق والغـرب انطلاقا من ظروف الحـروب الصليبية ونتائجها .

فبعد انشاء المملكة اللاتينـية في القدس عام ١٠٩٩ شعر الصليبيون بضرورة الاستيلاء على المدن الساحلية ضمانا لحرية المواصلات مـع اوروبة .

وقد تم ذلك بمساعدة المراكب الحربية التابعـة للجمهوريات الايطالية والتي كانت تمدهم بالمؤن والسلاح والجند .

ومن جملة المكاسب التي حصل عليها الملاحون الاوروبيون لقـاء تلك المساعدة الحق في توريد البضائع وتصديرها دون دفع ضريبـة المكوس ، وقـد كانت تلك المنافع « مقدمـة لما عرف فيما بعـد بالامتيازات الاجنبية التي اخذت تمنح للتجار الاجانب في الشـرق الادنى » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) . وبعد زوال خطر الغزوات الصليبية استؤنفت العلاقات التجارية مجددا عند النصف الثاني من القرن الرابع عشر » (ف. حتي ، لبنان في التاريخ) ثم توطدت في عهد العثمانيين بفضل « الامتيازات » واهمها اتفاق السلطان سليمان مع فرنسوا ملك فرنسا عام ١٥٣٥ الذي كان « اساسا لازدهار التجارة الفرنسية وانتشارها مع الشرق » وبالمناسبة نشير الى معاهدة أخرى عقدت عام ١٧٤٠ بين السلطان محمود الاول ولويس الخامس عشر تنص بنودها على ان لفرنسة الحق في حماية جميع الحجاج والزوار (الاوروبيين) الذين يؤمون البلاد العثمانية . وقد كانت « هـذه الامتيازات اساس الادعاء بأن فرنسة هي حاميـة جميع النصـارى الكاثوليك في سورية » (ف. حتي) .

وفي بلادنا بعد زوال عهد المماليك سيطر العثمانيون ، وقد تميز حكمهم :

أ ـ بالابقاء اجمالا على الحكم المحلي للامارات العربية في « جبل لبنان » ومنها على وجه الخصوص الامارة المعنية التي برز منها بشكل خاص الامير فخرالدين المعني الثاني وقد لقب بأمير « صيدا وجبـل لبنان » . وفي عهده تنشيطا للزراعة شجع « الموارنة » على الانتشار جنوبا باتجـاه الشوف كما نمت التجـارة الخارجيـة واندفعت الارساليات اكثر فأكثر نحو بلادنا للتعليم والتبشير .

ب ـ بتنظيم العلاقات المشار اليها اعلاه بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية وبازدياد التدخل السياسي المباشر لدولة فرنسـا مع الموارنة بشخص رئيسهم الديني . وقد ظهر ذلك بشكل واضـح منذ عام ١٦٩٧ عندما اصدر لويس الرابع عشر تعليماته الى قناصله في سورية لمساعدة « الامة » المارونية (وكان تعـدادها ٧٠ الفـا) وليكونوا في عون سائر الكاثوليك في المشرق واعلم رئيس الكنيسـة المارونية بالامر ، وبعد اربعين سنة جدد لويس الخامس عشر هـذا التعهد بحماية الموارنة مصدرا تعليماتـه الى قناصله « ليضعوا قنصلياتهم في خدمة بطريرك الموارنة ، وجميع افراد رعاياه » (ف. حتي ـ لبنان في التاريخ) . وقد ارتدى التدخل الفرنسي مظاهـر أخرى منها تعيين قناصلهم من كبار اقطاعيي الموارنة (آل الخازن في كسروان على وجه الخصوص) فكان اولهم نادر الخازن (١٦٥٥ م) الذي كان وصيا على احمد ابن الامير ملحم المعني كمـا كان منهـم غندور اسعد الخوري (عام ١٧٨٧ م) الذي كان يشغـل في الوقت نفسه منصب امين سر الامير يوسف الشهابي .

وقد شهد القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التالي خلافات شديدة بين الامراء الشهابيين خاصة بعد ان استقر الامـر للقيسيين في جبل لبنان (ومنهم الشهابيون) بعد معركة عين داره (١٧١١) حيث انهزم اليمنيون (منهم آل علم الدين خاصة) فهاجرت اقوام عديدة من الدروز الى حوران حيث كانوا النواة لجالية درزية قوية هناك « وقد ادت معركة عين دارا الى اختلال التوازن الطبيعي الذي كان قائما بين مختلف الجماعات الروحية » (وخاصة بين الدروز والموارنة) ، وذلك طبعا على ضوء التدخلات الاجنبية المشار اليها . وقد تدخل في الخلافات بين الامـراء الشهابيين ، ولو بشكل خفي امناء السر او المستشارون من الموارنة الذين كانوا يمثلون احسن تمثيل مصالح فرنسا ، مما زاد في نفوذهم وتأثيرهم على اولئك الامراء حتى رأيناهم يتنصرون « أو يتمورنون » ولو خفية استجلابا لتأييد «ماروني» مدعوم من فرنسا . وقد قيل مثلا عن اشهرهم الامير بشـير الثاني (١٧٨٨ ـ ١٨٤٠) انه « كان مسيحيا بالمعمودية (اي بالسر) مسلما بالزواج ، ودرزيا بالمصلحة » (ف. حتي ـ لبنـان في التاريخ) . هذا الامير الذي ايد ابراهيم باشا ضد السلطنة العثمانيـة عند اجتياحه وحكمه لسورية (وقد توافق ذلك مع السياسة الفرنسية في حينه) قد ارسل جيشا من « الموارنة » بقيادة ابنه خليل للمؤازرة في اخماد ثورة « دروز حوران » فكان هذا بداية عهـد عـداء بين الدروز والموارنة » (ف. حتي) .

٤ ـ الفتن الطائفية (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) :
نجاح الاجانب في التخريب

وهكذا نصل الى منعطف كبير في تاريخ « جبل لبنان » ، الـى فترة « الفتن الطائفية » (١٨٤٠ ـ ١٨٦٠) . وقـد كان من عوامل الانفجـار ، بالاضافة الى ما ذكرنا اعلاه ، محاولات الامير بشـير

القضاء على نفوذ مشايخ الدروز واعيانهم (وذلك يذكرنا بما فعله كميل شمعون مع زعماء المسلمين التقليديين قبل ١٩٥٨) . كذلك كان من عوامل نقمة الدروز ازدياد عدد النصارى ونفوذهم في المقاطعات الدرزية (نتائج معركة عين دارا و « تنصر » الامراء مثلا بالاضافة الى الدعم الاوروبي للموارنة) . كما يمكننا ان نضيف الى العوامل الناجمة عن التأثير الفرنسي والاكليركي والبابوي على الموارنة طوال القرون الماضية ، العوامل الناتجة عن تدخل انكلترا وتحريضها للدروز وعن استغلال تركيا للنزاعات الفئوية في جبل لبنان لتدعيم نفوذها المتهاوي ، وتنافس الدول الكبرى اجمالا على اقتسام « تركة الرجل المريض قبل وفاته » . وهكذا حدث الانفجار الكبير (١٨٦٠) بعد سلسلة انفجارات صغيرة (١٨٤١ ، ١٨٤٥) بين الدروز والموارنة الذين باتوا يعتقدون بانهم « جالية فائمة بذاتها وتتمتع بحماية دولة كبرى كاثوليكية هي فرنسا » . وقد فشل حكم القائمقاميتين في جبل لبنان (١٨٤٢ - ١٨٦٠) درزية ومارونية ، المقترح من قبل « مترنيخ » (ويعتبر كيسنجر من كبار المعجبين به حاليا !) ففرضت الدول الكبرى (ومعها تركيا) ضد رغبة فرنسا ، وضع المتصرفية في جبل لبنان » . كانت فرنسا ترغب في اعادة حكم الامراء الشهابيين (أو على الاقل حكم زعيم ماروني آخر كيوسف بك كرم الاهدني - الزغرتاوي) على لبنان تدعيما لنفوذها ، لكن الدول الكبرى الاخرى لم توافق فتوافق الجميع على جعل « جبل لبنان » متصرفية ذات استقلال داخلي ضمن السلطنة العثمانية يحكمها متصرف مسيحي كاثوليكي من رعايا الدولة العثمانية ، ولكن من غير اهل البلاد . وقد تميز عهد المتصرفية اجمالا (١٨٦١ - ١٩١٥) بسوء الحال في جبل لبنان ، نظرا لفساد الحكم وسوء الادارة ولحرمان « الجبل » من المناطق الخصبة في الساحل الجنوبي خاصة ، والبقاع ومن المرافىء الجيدة ، فزادت الهجرة الى مصر وبلاد اميركا واستراليا . وكان معظم المهاجرين من الموارنة ، كما زاد في تلك الفترة نشاط الارساليات « فكان لفرنسا قبل الحرب العالمية الاولى في سورية (ولبنان وفلسطين) ..٥ مدرسة تضم بين جدرانها ٥٠٠٠ تلميذ وتلميذة » (ف. حتي) والمعروف ان معظم تلك المدارس كان في « جبل لبنان » .

وعلى سبيل التذكير ، نشير الى انه في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى وزادت فيها اطماع الدول الاوروبية في البلاد المحكومة من قبل الاتراك ، نشأت « الصهيونية » وعقد مؤتمر بال عام ١٨٩٧ فوضع اسس الحركة العنصرية الاستيطانية المدعومة من قبل الاستعمار . ثم كان ما كان .. حتى قامت اسرائيل عام ١٩٤٨ .

٥ - الحرب العالمية الاولى والانتداب الفرنسي - الوصاية على الحركة المارونية ورعايتها .

نصل الان الى منعطف جديد وخطير هو الحرب العالمية الاولى التي انهت عهد « متصرفية جبل لبنان » وافسحت المجال ، بنتائجها، امام الاستعمار الفرنسي ان يأخذ مداه في بلادنا تحت صيغة الانتداب . وعلى كل حال ، فقد كان تثبيت دعائم النفوذ البريطاني - الفرنسي في الشرق آنئذ ردة صليبية استعمارية بمعناها الواسع . فقد قال الجنرال اللنبي عند دخوله كنيسة القيامة بعد دحره للاتراك « الان انتهت الحروب الصليبية » وقال زميله غورو بعد دخوله دمشق اثر موقعة ميسلون ، وهو يقف على قبر صلاح الدين « صلاح الدين ها قد عدنا ، وانها لحملة صليبية جديدة » .

بعد موقعة ميسلون (مواجهة بين الفرنسيين والجيش العربي في سورية) التي فتحت ابواب سورية العربية امام الفرنسيين ، « اعاد » الجنرال غورو اعلان (١٩٢٠) « لبنان الكبير » , امارة فخر الدين المعني الكبير) اي « جبل لبنان » مع الاقضية الاربعة وبيروت (عكار - البقاع - جبل عامل - صور صيدا - بيروت - طرابلس) ضد رغبة اكثرية سكان تلك المناطق « المضمومة » التي كانت عروبية الاتجاه (باكثرية اسلامية) ترفض الانتداب الفرنسي وترغب بالعودة للدولة الام سورية العربية التي كانت تناضل من أجل الاستقلال التام . ويظهر كذلك ان الفئة الشديدة الحماس للفرنسيين في « جبل لبنان » كان يهمها في الدرجة الاولى قبل ١٩٢٠ ان يتبع « لبنان » فرنسا مباشرة اكثر بكثير مما كان يهمها توسيع حدود المتصرفية لتشمل ما عرف بعد ذلك بلبنان الكبير . وقد قال بشارة الخوري عن هذا الامر « وخفت البحث (١٩١٩) في انضمام لبنان الى المقاطعات الفرنسية وانصرفت سلطة الاحتلال الى التمسك بلبنان خشية حرمانها من السيطرة على غيره من اجزاء البلاد التي حررت من الحكم التركي » .

ومما علق في ذاكرة المؤلف عن حفلة استقبال هيأها الفرنسيون للامير فيصل (ربيع ١٩١٩) واوعزوا فيها « للبنانيين » بان يظهروا تمسكهم بالاستقلال (عن الدولة العربية في سورية) قول احد الزجالين :

عيشي بذلي ما نجبا	نتظاهر ما منتخبا
يا منال الاستقلال	يا منرحل عا اوروبا

ولم يكن اعلان « لبنان الكبير » (المستقل تحت الانتداب) الا بتحريض من فرنسا التي دعت البطريرك « الماروني » حويك الى باريس على رأس وفد من الاحبار والكهنة للمطالبة بذلك . « وقد ابحر عن جونيه اواخر صيف ١٩١٩ على مدرعة حربية » (بشارة الخوري - حقائق لبنانية) .

وهكذا كان في انشاء دولة « لبنان الكبير » مصلحة كبرى لفرنسا التي كانت تنظر الى مستقبل نفوذها في الشرق ، وبالتالي لم يكن من مصلحتها تشجيع انشاء « دولة مسيحية » بل عملت على توسيع حدود « لبنان » ليكون دولة ليس لها اي طابع طائفي واضح ولكنها تضم ظاهريا اكثرية مسيحية معظمها من « الموارنة » المتعاطفين مع فرنسا . ومع دستور ١٩٢٦ الذي رفضه العروبيون واكثريتهم من المسلمين اعلنت دولة لبنان جمهورية .

هكذا اخذ « الموارنة » يتمتعون تحت رعاية دولة الانتداب ومفوضها السامي بنفوذ متزايد في اجهزة الجمهورية المختلفة ، كما ان سياسة التربية والتعليم الرسمية بالاضافة للارساليات قد وضعت لخدمة اهداف المستعمر - عامة ولتزييف الشخصية الوطنية خاصة ، وهكذا قويت النزعة المعادية للعروبة عند قسم كبير من الموارنة الهيابين لذلك اصلا وازدادوا التصاقا بفرنسا « الام الحنون » .

وبعد ان كانت فرنسا تعتمد سابقا على الكنيسة المارونية والزعماء الاقطاعيين والتقليديين الموارنة ، شجعت عام ٩١٣٦ على انشاء منظمة شبه عسكرية « الكتائب » لمواجهة احزاب وتنظيمات اخرى ذات توجهات غير طائفية تتنافى مع مصلحة الاستعمار . وقد توافق ذلك مع بروز الفاشستية والنازية في اوروبا ومع الثورة العربية في فلسطين ضد الصهيونية التي كانت هي ايضا تلقى تشجيعا من الدولة المنتدبة بريطانيا .

ومما يجب الالتفات اليه اننا لا نعني بكلامنا عن المتعاونين مع فرنسا جميع الموارنة ، فقد كان هناك منذ زمن بعيد قسم من الموارنة المنفتحين على العالم العربي وقد برز منهم عدد كبير من المفكرين والسياسيين المعروفين ، واستمر هذا الاتجاه في عهد الانتداب ايضا . ويقول بشارة الخوري عن اجواء ١٩٣٦ في لبنان

- التتمة ص ١٠٤ -

فؤاد الخشن

مزامير للإله الجديد

يا اله الدم والنار ..
عبدناك طويلا
ففقدنا رعشة الاحساس ..
ضيعنا العقولا
وصدمنا بلظى الاحقاد فردوس الرجاء
ثم رحنا بين ما يجرفه سيل المآقي
من ركام الجمر والانقاض
نرجو ان نلاقي
في بقاياه البديلا

●

ايها البحار في هيكلنا الهاوي
على كل الرؤوس
القرابين التي ترمى لنيران المجوس
خيرها الموعود منذور لمن ؟!
ولمن تجري نبيذا يتصبب
هذه الاعراق في كل الدروب
ولماذا يصمت البعل النحاسي الغضوب
خلف أسوار الاضاليل ويشرب
دمنا المر ويطرب
كلما صال اله الشر في ساحاتنا
يوما .. وجرب
بوقه الوحشي ، موتورا .. وحرك
نفخة الاحقاد في جمر النفوس !

●

دأبكم في رحلة الحلم السرابي محال
يا دعاة العبث المهدور .. لن يقضى الوطر
بالسهولات التي ترسمها هذي الخطوط ..
وبهذا الجبل الصلب رجال
لن يقادوا للسقوط
في أحابيل الذي يتقن تحريك الخيوط
وبأطلاع ثرى – لن يستكين
صدره النابض بالبعث لاكفان الصقيع –
دم « تموز » سيحيي سكبه
بذرة حبلى بغرس منتظر
فهو في نسغ الربيع
وبأفواه قناديل شقيق محرق
وهجها ، في حقلنا الموروث ،
ما ينبشه الكهان ..
من اظفار اشواك غريبة

مستريحين على وهم التمني .. حاسبين
انها تقوى على دفق الخصوبة
في جذور الكرمة البكر التي
مدها الاجداد في الارض الحبيبة ..
وبان الكائن المسخ سيحيا للابد
بانسلاخ الروح عن طين الجسد
مثلما يهوى افتراء
كل من ضل واشرك
مستخيرا « صنم الازلام » في فجر السفر
نحو ساحات صقر

●

آه يا قلبي على هذا الوطن !
كيف أذوته المحن ..
كيف بيروت ، عروس الشاطىء السحري ،
بالإمس السعيد ..
ماسة الليل التي تهمي حبورا وضياء ،
غبشت مرآتها الزرقاء ..
غشى صفوها غيم الشجن
في الزمان الكالح الوجه .. ولكن
– يا دمى الشر الدؤوب المتمادي –
لن يبيد
وطن الحب .. وذاك الخالد الدهري
رفاف على الغيم مراوح
وأكفا لنقاء الابيض المفروش
شالات واغراء مشالح ..
لا .. وحبات تراب بعبير المسك فائح
وشراع لاكتشاف المغلق المجهول رائح
لن يظل الهيكل القدسي نهبا
للصوص من بلادي يذبحون
في الدجى ناقة صالح
لبقاء الدر حكرا ابديا لخبيثات الضروع ..
وسيمتد كما كان الصنوبر
بعد عصف واحتراق
مستفيقا من رماد الموت ..
مفتوحا مظلات من الديباج .. في تلك التلال
تسكب الفيىء المعطر
في لظى الصيف ابترادا
لجباه المتعبين ..

بيروت

عبدالخالق الركابي

متوسطيات

١ ـ النذير
لم أرَ الصقر ينقضّ ، لم أر عصفورةً
يتلقفها مخلب الموت ، لكنني ،
كل امسية ، أستفيق على
خفق أجنحة تتقاذف في ملكوت
الفضاء المشاع ،
اقول :
« ـ لمَ الخوف ؟
أجنحة
يستفيق دمي ،
كل ليل ، على خفقها المستريب ـ
لمَ الخوف ؟ »
ـ لكنني عندما تطرق الشمس نافذتي ،
أستفيق على ريشة
خضَّبتها ..
الدماء

٢ ـ الخوف
ها هو البحر متسعٌ .. شاسع
ها هي الارض ممتدة .. رحبة
ها هي الشمس ترخي ذؤابتها الذهبية
مقرورة
ها هو الخوف يطرق ابوابنا واحدا
واحدا :
البنادق ـ مبهورة ـ تشرئب
باعناقها الزرق ،
تفتض عذريَّة الصمت ـ
تفردنا ـ كل ليل ـ طغاة أذلاء ..
او شهداء

٣ ـ الكرنتينه
في زمان الطوى
قاسمتنا المدينة زاد الكفاف
« ازدردنا رغيف
القناعة ، لم يكن الجوع ـ
سرا خفيًا ... »
وردنا المدينة ليلاً ، وقلنا :
ـ رأيناك في الحلم مشدوهة
كانت الطير تأكل من
سمت رأسك ـ
لكنها أومأت ، فاستدرنا ،
رأينا السيوف مسلطة
فوق أعناقنا ..
نحن نعرفها .. نتوجَّس ـ مستلبين
براءة احلامنا ـ من تقلب اجوائها الموسمية ـ
نعرف احياءها السكنية :
« حيث الزنود
المنداة بالعرق المر .. »
نعرف أحياءها البرجوازية السمت :
« حيث الرجال ـ الحجار ،
النساء ـ الدمى .. »
نحن نعرف حتى مقابرها المستكينة :
« حيث الشواهد مثقلة ..
- بتواريخ هجرية
- وتواريخ مجهولةٍ
- وتواريخ سريَّةٍ

لرجال مريبين قد
يستضافون في ليلة ما .. »

٤ ـ درس
ترى عرفتنا المدينة منذ ناصبتنا العداء ؟
في انطفاء الرنين الاخير
استدارت « معلمة الرسم »
قالت :
ـ صغاري ، ترى ما الذي
نرسم الان :
- عصفورةً ؟
- وردةً
- منظرا خلويًا ؟
- ....

ـ ولكنهم رسموا وجه « بيروت » في
دفتر الرسم صفصافة لطَّختها الدماء

٥ ـ مرثيَّة
كلما ازدهرت زهرة الموت ـ
ما بين ثديك والقلب ، واتسعت
بقعة الدم فوق بياض القميص
الملطخ ، فاجأت خطوي المهادن ـ
ينسل كي يختفي في ازدحام الخطى
كلَّما أثقل زنديّ قيدي :
المريرة في فمك العذب ، الهبت نار
الفجيعة ملء دمي
كلَّما أثقلت زندي قيدي :
ترى
مَن بنا ، الان ، أجدر ـ سيدتي ـ
بالرثاء ؟!

بغداد

ناجي علوش

بيروت تولد في العاصفة

(الى ابني ابراهيم الذي شهد ميلاده ايلول الدموي وعاش ملحمة بيروت مع كل ابنـــاء جيلـــه)

ـ ١ ـ

واصـحو ...
فبيروت تخلع ثوب المنام
وتهـرع في الطرق الواسعة
وبيروت تكدح ،
بيروت تسرح ،
بيروت تـذبح
بيروت تـذبح
بيروت تلهث وسط الزحـام
وبيروت تأكل لحم بنيهـا
وتترك للعابرين العظـام
وبيروت تلهو بها الفاجعة

ـ ٢ ـ

وبيروت تبنـي
وتعلي البنايات صفا فصفا
وتغلق ابوابها للرياح
وتأكل أشجارها الخانعة

وبيروت تمتد عبر البطـــاح
وبيروت تكبر في ظلها المدن « التنكية »
وتلتف حول خواصرها حاضرات
الخيـام

وبيروت تأخذ من كل فنّ
وبيروت عامرة بالتمني
ومثقلة بمنى ساكنيها
وبيروت تأكل رعبـا
وتشرب خوفـا
وبيروت ترقص حتى الصباح
وبيروت معنيّة « بالقضية »

ـ ٣ ـ

وبيروت حين يجن الظلام
تعود الى نفسها الضائعة
وتسأل عن لحظات السلام
فيكتظ مقهـى
ويصـخب ملهـى

وتـذوي مع الساهرين المـدام
ويصرخ في المقل الهاجعة
حنين الى راحة لا تزول ،
وخوف من اليوم والغد ،
والحارس البلدي الذي يطلب
الرسم في كل عام ، ومن شرطي
يجوب الدروب ، ليبحث عن
صيده المرتجـى ،
ومن صاحب البيت
لا يتأخر حقـه
ليلـة

ومن قدر داهم ليس يخطيء ،
او عشرة من بنات الزمان
وبيروت آمنة وادعة
وبيروت تعشق طعم الزمان
وبيروت صاحية هاجعة
وبيروت تعمي عيون بنيهـا
وتضحك في وجه مغتصبيها
وبـيروت ...
وبـيروت ...
وبـيروت ...

ـ ٤ ـ

وبيروت تصـحو
وبيروت تغفـو
فينبطّ جرح
ويلتمّ جرح

وبيروت ان كدرتها الجراح
فبيروت تصفـو

وبيروت انهارها لا تجف
وبيروت تشرب ماء « القناني »
وبيروت حاضرة وادعة
تفوّر احشاؤها بالاماني
وبيروت ثائرة خاضعة

ـ ٥ ـ

وبيروت ..
يبهرها البحر ، تخطفها الريح ،
يسرقها العابـرون
فتخلد للراحة الخادعة
وبيروت يقصدها الجائعون
ليلهوا بأنوارها الساطعة

وبيروت
ملاعب للارجل الضائعة

مسارح للانفس الضائعة
وبيروت ...
بيروت ...
بيروت ...
لو تعلمون

ـ ٦ ـ

واصـــحو
واغفـــو
وبيروت تصحو وتغفو
وعكـــا ...
تغالب اغلالهـا الآســرة
وتبصق نارا على الغاصـب
وتسألنا عن رحيل الجليل
وعن وجع اللــد والناصرة
وعن امة حــرة لا تضام
تخلّف ابناءها في السلاسل

ـ ٧ ـ

وعكا على البحر ..
منذ افترقنـــا
تطالع في أعين العابرين
رؤى أرقتهـــا
وتسأل ريح الشمال وريح الجنوب،
وكل الطيور التي لا تني عابره
عن العائديـن
وتذكر في صحوها ، نومها ،
ليلــة داهمتها
فلمــا استفاقت وطل الصباح
وراحت تنــز الجــراح
وصاحت الا من يقاتل
تفرق في التيه شمل القبائل
وعكـــا
على البحـــر
منذ افترقنـــا
تضم جراحاتها وتقاتل

ـ ٨ ـ

وبيروت تغفــو
وتغفو العواصــم
وعكـــا
تقص ليافـــا
حكايات ثوارنا في الجليل
واحلام اجيالنا الطالعة
فعكا التي خلّفوها
مع الجــرح والعار ...
ظلت تقـــاوم
وأصـــحو
وتغفـــو العواصم
وعكا التي خذلتهـــا
تميم وقيس وبكر ووائل
تغالب أغلالها وتقاتــل
وعكـــا ســـبية
وبيروت ترطن بالاجنبية
وتنصر السفن الاجنبية
وتهتف للسحن الاجنبية

ـ ٩ ـ

وأصحو وبيروت تصحو
وبيروت تخلع ثوب المنام
وتطلق احلامها الهاجعة
فتسطع في الطرقات البنادق
وتعلو المتاريس .. ركنا فركنا
واصـــحو
وبيروت تمسح عن وجهها العربي
مساحيقها الزائفة ...
فبيروت تحمل اوجاع عكـــا
وأوجاع يافـــا
وتحتضن احلامنا الراعفة
وبيروت تصـــحو
فتزدهر في كل درب شقائق
وتعلو بيـــارق
واصـــحو
فبيروت مزهرة بالبنادق
وبيروت ...
تـــرعف
بـــيروت .
تهتـــف ...
بيروت تزحـــف ....
بيروت تولد في العاصـــفة

بيروت

غانم الدباغ

الليل الدبق

– ١ –

(.. ماأذكره من ذلك الليل ، ان القمر يسكب نوره بسخاء على ارضية السطح ، فينسفح على زاوية منه ، وان زوجتي نزلت عن سريرنا المشترك لتنام على الارض مع الضيفتين اكراما لهما ولياقة ..)

اسأل ماأقرأ كل يوم .. لماذا وضعت الاخلاقيات ، ومتى كان البدء بها .. ! ما الرغبة وكيف نخنقها ، ونحن نبعها ، وطوفان الافكار القديمة لم ينقذ الاحلام من الغرق في دنس الفكرة ، فكبرياؤنا تشمخ في نكران احمق .

– ٢ –

(.. قبل صعودي الى السطح ، سكبت ثمالة الكأس في المغسلة مرددا في خاطري انها الاخيرة ، وسحقت بقدمي عقب الدخينة بعنف، وزهو القمر في السماء الصافية بسلط على قدمي شلالا ، فاخطو بحذر كمن يخشى ان يطأ مقدسا او لاكذب في الصباح مدعيا اني نمت مبكرا ..)

الغزاة كانوا يهرعون بالجواري ، اغصانا لانتصارهم ، والتاريخ لم يتحدث عن بداية التسري ، ومنذ متى بدأت الفضيلة .. ولماذا عاش امرؤ القيس وعمرو بن ابي ربيعة وأبو نواس حياة النعماء يتخللون سراويل الجواري والقيان على الزرابي المبثوثة .. انها تلطم اكذوبة الفسق في عصرنا ..

– ٣ –

(.. تنفس سعاد ، أمزه بوضوح ، انه يتسلل مع ارهاف حواسي نحوها ، وانا ارهب صمت المكان ، وفي ينسحق توتر يحكي قلقا مأزوما من خلال تحديقي في اجسام زوجتي وسعاد وامها ... اطرافهن مسترخية باهمال ، وهي ترسم منحنيات وزوايا تتلاقى تحت الاغطية الخفيفة المدعوكة بينهن ..)

متى كانت الانثى المختارة هي نهاية الرغبة ؟ .. هل مسح القدم كل طبقات المجتمع ؟ ان الكآبة التي توحي بها السقوف الواطئة ومواخير البغاء ، ومنازل التفريغ البتري ، اهي الهروب من سقم الفراغ ،ام هو الحل البائس ليقين يطاول الحقيقة وهي تسفر عن وجهين ، أشدهما زيفا ما تدعيه المدنية لتكبحنا ، ثم تترك نوازعنا الاولى دفينة كسراب ملحي يذوب اذ تطغى الطبيعة ، فلا يلجمها الا خداعنا لانفسنا ؟

– ٤ –

(... اتكأت على الجدار الواطىء هنيئة ، لاجر بعدها خطاي بحذر نحو السرير الفارغ ، شادا جسمي ، محاذرا هز اسلاك السرير تحت ثقلي .. وكعادتي في بداية رقادي ، ارفع صفحة وجهي تحت كفي ، رأيت المجال الداكن امامي ينتهي عند شبح سعاد المستلقية بين امها والزاوية المغمورة بالنور ..)

رأيتنا ، نحن الذكور .. ننبش كل يوم في حسنا الداخلي ، فنقتلع قشرة القداسة الزائفة للعلاقات البشرية التي لايشذب طاقتها المكبوحة ونحن في قمة المعاصرة العلمية الا انكفاؤنا على ذواتنا ، فلا تتبقى فينا سوى فوة الفناء .. وتكرار الوجود في دهرية متتالية ..

– ٥ –

(... فتحة البراءة تنشق عن فمها وهي تنفث انفاسها الهادئة وتمتد ساق لها ، خمرية ، يبين الضياء الشاحب لونه بوضوح ،ويترك ظلا قاتما على نصفها الاخر . يدمع التحديق حدقة عيني ، فتنز كبعج الدم من مقلتي ، وقتامة اللون في القماشة المتغضنة يبدو حزا يحدد كتلة الفخذ المسترخية وقد انزاح الغطاء تماما عن الثانية ..)

يقينا ان النواح العبقري لـ (تشايكوفسكي) في فورات الله ، ومنطلق العذاب المبرح في عناق (بودلير) الرجيم لعواطف البغايا في (مونمارتر) لا تلتقي مع شبق (بارون) الى (اوغسطا) ، فهي معادلات تتناقض صعودا وهبوطا ،يصمها المؤرخون بلوثة جنون،والبحث عن معطيات خرافية للفن الذي تجذر شموخه في حضارة اليوم .

– ٦ –

(.. انزلقت الى اسفل الفراش محدقا في السماء ، وقد طمس القمر بريق نجومها .. لم تكن ثمة فكرة أخرى تشغلني ، فانقلبت الى وضعي الاول ارهف سمعي الى تتابع ملحن لقطرات حنفية الماء في

المغسل ، يتناغم وانفاس سعاد عبر امها في متتابعة موسيقية يقود اداؤها لهاثي الخافت ..)

وهل يزيح الستر عنا في مقولة (فرويد) ..ان عالما بدائيا بعيش بهيميته في داخلنا اللاواعي ، تكظمه الحضارة وتدلف بـه الى مغاور الكبت ليحتال ضاريا معنا في الاحلام ، فهو قابع يستهزيء، ساخر يقهقه .. يلطم جدار لحمنا الواهي .. لينفذ من خلال سجيل ما ، قد نغمض عنه العين .

— ٧ —

(.. واذ يطل ربيعها الخامس عشر من المكورين ، ينسحق احدهما تحتها وبرعم الاخر يندعس لينا فوق الفـراش ، ولمع من طفولتها القريبة تتداعى الى خاطري ..فبالامس كنت اداعب فيها ختل المراهقة وارهافها ، اسألها : ما هذا الذي ينمو في صدرك ، فتصرخ ، وتضرب ، وتشتم فاقذف بها نحو السقف ، لينة ، خفيفة ، لتمسك بالمروحة ، وتغص وهي تهوي بضحكة يتجمع في سمعي الان صداها المكركر بنغـم عذب ..)

هل خلقنا المصير ! ام ما يزال حتـف انوفنا ..اكراه وتمزق وطرائق يلفها المجهول لتدمي القلب الانساني وتغسله حتـى الشغاف باللهفة الدائمة . ام ان هذا المعطوب فينا ، هو اللحم يدق حساسية الرغبة الخطرة ، ليزهق تطلعها الى المطلق ..

— ٨ —

(.. اطل شبح قطة تتسلل على سور الجدار الواطيء ، ليعكس تيار الوعي فيذهني لاتابع حركات هذا الحيوان الساهر طوال الليل .. صدرت عنه هرهرة خافتة ، وتوقف فوق الزاوية المقيمة ، تطلع نحوي بعينين حذرتين تلتمعان .. ولما اطمأن الى جو السـكون ، أقعى على قدميه ، وبدا يلحس يديه ، ويمسح بهما فروته ..)

يبدو ان نسر المعرفة الذي عاش على كبد (بروميثوس)ما زال مجهولا وهرقل الجديد لما يأت بعد .. او انه جنين ينمو في ضمير العصر ، فالمعاناة هائلة تبد يءالاشياء ، وتخفي المعاني ، فهل نختبيء نحن ضمـن اسطورة الزمن ؟ ان كل مافينا غامض ومثير ..

— ٩ —

(.. تململت .. فاهتزت اسلاك السرير واجفلت القطة ، وكفت عن عملية التنظيف وهي تتطلع بتحفز اتجاهي ، ثـم قفزت نحـو السلم ، وانقلبت الام على جنبها الاخر فغاب وجهها في العتمة ، وحين هدأت حركتها ، عاد شخيرها يملأ اذني ..)

كالنوم واليقظة ، ورفض الالم ،وغريزة الحياة ،وغموض المجهول والحنين الى الطفولة ، كأستحالة الخلود ، ونمو الوعي فينا ينفتح كتبرعم الزهور ، كعزف (اورفيوس) على اوتاره .. ننهج دروبنا في الوجود ، كسجبية العدم والفناء .. ازمنتان تعللان ماهية الانسان ، فمنطوق الوعي ، هو السراب ، وما خلاه لاشيء ..

— ١٠ —

(... تخيلت ان عينا لسعاد مفتوحة ، وانها اخذت عن حرص الذئب خلة المستوطن الاول من اجدادها في الغاب .. ام لا ..! فمـا هو الا هدي الغريزة في الغمر الغرير وصـح تصـوري حين تثاءبت ثم اتكأت بمرفقها على الوسادة وتمتمت بشيء ، فخلتها تحـلم او تهذي في نومها ، كأنها تردد اسمي خلال لغطها الذي طغـى شخير الام عليه ، ثم رمت برأسها على الوسادة ، في حين غرق الليـل في السكون من جديد .. عندما انقطع شخيرها فجأة ..)

تقول الاديان ان الكون خلق في سبعـة ايام ، وكان اليـوم السابع لراحة الخالق الذي جبل الانسان على صورته ،لكن انطلاقه نحو الارض جعل له سمانها دون صفات السماء ، وانتهى عندها مفهوم الدنس والفضيلة ، وأقام المقننون الحدود ما بينهما ، والنهب عذابه بين ماصور خيرا وما اعتبر شرا ، هل نسى هؤلاء ان يريحوه علـى صفة الاله فيبترد بالراحة يوما من تسميـة الخـير والشـر ... فكلاهما رغبـة .

— ١١ —

(... اتسعت دائرة الضوء المسفوح على وجه سعاد ، وانزاحت ظلال العتمة عن النصف من وجهها حتى مفرق شعرها ومنتصف جبينها، سوى ان محجر عينيها كان بعيدا عن الرؤيا الواضحة ، لان ظـل المحجرين كـان يسقط بقتامة فوق العين .. وهبت نسمة فازاحت الغطاء الخفيف الذي كانت الام قد اسبلته على سعاد ، فتعرى جزء من ركبتها يستقبل فيضا من شعاع القمر في حين التمع من عيني شعاع اخر شدني الى رضفة الساق الذهبية ..)

قال القدماء ، ان المرأة وعاء تنصب فيه الرغبة ، وان الجنس ماهو الا وسيلتنا الى التكاثر والبقاء ، وقدست الكهانات المندثرة جسم المرأة فنصب منه ـ كمصدر تنبع منه الحياة ـ ألها ، ونسبت عن المسيح مقولة دنس الانسان لانبثاقه جسما وروحا عن محتـوى قد ترتفع فيه الخطيئة اذا لم يلجمها نقاء الضمير ورادع العـرف الخلقي ، وكون المطلق تهويما سائبا لا يخضع لارادة ما ، فالانسان ضمير متعب ، سيبقى رضيع التجربة ابدا ..

— ١٢ —

(.. ارتفعت من قلب السكون غمغمة خافتة ، خلت اولا ان زوجتي تهذي كعادتها في النوم ، الا ان الشعاع المفنط الذي كان توترة يشدني الى جسم سعاد المسترخي دلني على حقيقة ارهاف الحس لدي ،لقد كانت سعاد تردد اسمي ..! أكان ذلـك فينـومها ، ام انها يقظة .. خالجني احساس مباغت بالاندهاش ،واوشكت ان اقفز من سريري ..)

سيان لدى الانسان ان تربطه القداسة الى الخضوع ،اوتحطه الغريزة الى منزلة الحيوان ـ فكنوز الحياة دفق لاينضب ، واذا هدمت روحه صعدا ، فكبرياؤه يحطها سيل تنشق عنه الرغبة ، تجرف كل شيء ، الا الذات ، فهي صنيعتها الام ، واذا وشت النفس بالفضيلة فما هو الا العجز تطوبه سورة من الاحلام ، خدينها ، ان لا معرفة بالحياة تعلو معرفة النفس ، ومقولة (سقراط) هي الانجيل الذي صعد بالكائن البشري نحو الافلاك .

— ١٣ —

(... نبا صوت الام ، تسأل وفي نبرته خنة النوم :
ـ عيني سعاد .. تريدين ماء .. ؟

لم تجبها ، فعاودت الام رقادها بعد ان سوت الغطاء المنزاح عن جسمها ، ثم ارتفع غطيطها بعد حين ، وادرت راسي نحو السماء محدقا بالقمر من جديد .. وهبط سعار الرغبة ينكمش مرتعشا في داخلي ،غير ان حواسي كانت هناك .. تصلها ذبذبات متقطعة بالجسم المستلقي تحت اشعته ..)

هل صور مؤلف (حي بن يقظان) جفاف الحياة عنده ، وقد انقطع عنه رافدها الاول ، فهو في خواء ، رغم سبره لغور المعرفة وفلسفة الوجود ام كانت جزيرة نفسه يحيطها لهب الرغبة ؟ هل هرب واضعها الى الخرافة كما نهرب اليوم من حقائقنا البيضاء وهي تنخر في نفوسنا .. وغلواء الرياء يصد نصوعها ، فتسبقنا العتمة ، وخليفتنا وهج بضيء ، فلا يراه الابصار لانه يغشاها .

— ١٤ —

(... استرجعت في غفوتي لذاذة اتكاء سعاد علي في النهار ، وهي تجتاز باب الصالون نحو الحديقة ، وكذبت عيني اولا ، لكنني بدأت استعيد الموقف جيدا ، فقد كان جسمها اللدن الملفوف يتمسح بكتفي وهي تكاد ترتمي علي ، وانباني بريق عينيها خلال اليومين اللذين قضتهما هي وامها عندنا ، ان براءة تعلقها الطفولي بي ، ينمو الان شغفا واعيا لاطاقة لها بامساكه ، وعاودتني مرة اخرى وبجنون فكرة القفز اليها ، عبر الجسمين الراقدين بجانبها ..)

بوكاتشيو في الـ (ديكامرون) ومؤلف (الف ليلة وليلة) المجهول نشرا امام الانسان صورته من الداخل ، تعربد فيها الشياطين حية كالحقيقة ، موهبتها الحياة ، وكل قصورنا عن الادراك يستتر وراء خدعة نلف بها كينونتنا الغافية على فراغ ما نسميه بالتقاليد ، وسيوف (دون جوان) و (كازانوفا) تمرغها بالتراب ، وتعري نفاق البشرية الاصيل .

— ١٥ —

(.. دقت ساعة الصالون الواحدة بعد منتصف الليل ، وكان القمر — كعهدي به — يبتسم وهو ينحدر باتجاه الافق الغربي ، فبدأت الظلال تعمق عند الزاوية ، حيث مرقد سعاد ، وغاب شقها الايمن معتما ، الا ان صفحة خدها وغدائرها بقيا في فسحة الضوء ، وقد دفعت ساقا عبر الغطاء الابيض الخفيف انذ يكان بحركه النسيم ، وتقلبت خلال لحظة ، مرتين او ثلاثا ....)

تريح اوربا صدرها الان فوق بحر من اللذة ، لتقول انها قضت على مايتحكم في الانسان من عقد نفسية تعيق دولاب الحضارة ! واضحى الجنس وجبة يومية يتناولها المرء أنى شاء ، لا تطاله يد القانون ، بل وقد تحميه .. وامسى معنى الفحشاء التقليدي نادرة يرويها التاريخ .. هل كان شرق الجواري وعصر السبايا الاالوجه المحسن لاوربا اليوم ..!

— ١٦ —

(..ململت بعضا من اطراف شجاعتي ، وهمست باسمها ، فسمعت صوتي يخرج ميتا ، فهمست ثانية وبوضوح ، مرهفا سمعي، موسعا حدقتي عيني نحوها .. فرأيت راسها يرتفع عن الوسادة ببطء ، ثم تتكيء بمرفقها عليها ، وابان الضوء الذي سقط عن ملامح شبح ابتسامة فيها عجب وتساؤل ، مالبث ان اتسعت على ثغرها الدقيق ، فاهتزت في نفسي غبطة فرح هائل يجلله الخوف ، لكني اشرت اليها بيدي نحو السلم فهزت راسها رافضة ، ثم عادت تسترخي على الوسادة ، وهي تحدق بي ، عاودت التلويح ، فادارت وجهها نحو الجدار ، فغمر كيانها كله الظلام ..)

قالوا : ان المرأة اذا ارادت تمنعت بقوة تعادل قوة الرفض الذي تبديه ، والحدس في انك اذا سعيت اليها دؤوبا فستهرب ، واذا تركتها تطاردك ، فرضية تعادل جبرية لامر ، وتأخذ معادلة الصراع هذه ، ابعاد كل صراع نفسي يفل له الانسان . وحول معاني التمنع والابتذال ، دارت كل القيم الخلقية حول المرأة ، وفي ان تكون هي القيمة الفرد .. ام ان تكون ضلع آدم المخلوع .. رغبتها تعني (هو). و (هي) تعني الفناء والاحتواء ابدا في شمس الرجل ..

— ١٧ —

(.. دقت ساعة المنزل الثانية .. وبدا القمر يختفي وراء جدار السطح المجاور ... وزحفت عتمة الجدار تغطي الاجسام الثلاثة ، وفجاة استوى شبح سعاد قاعدا وهي تتلفت صوب امها ، ثم نهضت واقفة . غمغمت الام :

— هـا !؟

— سانزل الى ..

وخطت مسرعة الى السلم ، محتكة بحافة سريري ، وانتظرت برهة ريثما تعاود الام شخيرها ، فانزلقت بهدوء من فوق السرير محملقا في الشبحين الراقدين قربي بحذر شديد ، ومن اول درجات السلم رايتها في اقصاه ملتصقة بجدار عند منعطف السلم نحو الباحة الصغيرة المعتمة حيث يبدأ عندها السلم الثاني المؤدي الى صالون المنزل ..)

اي هتاف يضج به القلب عند دفق الحب ، واي معين يندفق عند الشعور بمتعة الغرابة ... صنوان هما .. الحب المحرم ، ونقيضه السأم ، اذ يدق نبضه المألوف ، فيصفع كل يوم وجها عاريا، وصخب الحياة فيه هو توقع الموت اليومي في ترديد مزمن وجفاف صحراوي يلغ في الدم ، يأكل الساعة التي مضت بالامس لتموت اليوم ، وتسحق كل معنى ، لتنمو الهولة المرعبة .. الرغبة ..! ام الطبيعة ، وليدة الحياة .. الزمن عدوها ، ومكانها اللامكان ..

— ١٨ —

(.. غيبت وجهها الطفل بين ذراعي ، وتحسست كل نتوء وفراغ في جسمها وهي ما تفتأ تردد :

— أمي ..! زوجتك ! ستستيقظان ..

لكن جهدها للتملص من بين ذراعي كان واهيا ، وما لبثت ان همدت وارتخت كل عضلة فيها مستجيبة للامساتي ، وكنا نبدو في العتمة كتلة واحدة سوداء تتحرك تحت الجدار الذي اخفانا ..

في خلال ثوان .. دقت في اذني ثلاثة اصوات متنافرة النغم ، تتابعت بسرعة مذهلة ، كان من بينها صوت سعاد النافرة من احضاني :

— ماما ..! ـ

— سو .. .. .. سو ..

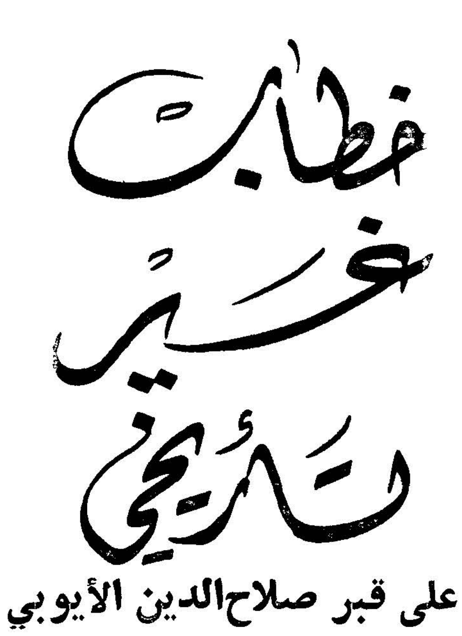
— سعاد !؟

شخصت عيني الى اعلى السلم احدق في اشباحهن الثلاثة .. طويلة .. غاضبة .. معتمة .. وهن يطاردن القطة ..)

حين تطلعت الى القمر في افوله الاخير .. كنت خجلا ، وكان هو يبدو كبيرا وكئيبا .. لقد غاضت ابتسامته وهو يغوص وراء جدار السطح المجاور ..

بغداد

امل دنقل



على قبر صلاح الدين الأيوبي

ها أنت تسترخي أخيرا ..
فوداعا ياصلاح الدين !
يا أيها الطبل النحاسي الذي تراقص الموتى ..
على ايقاعـــه المجنـــون
ياقارب الفلـين
للعرب الفرقى الذين شتتتهم ســفن القراصــنة
وأدركتهم لعنة الفراعنـــة !
وسنة بعــد ســنة ..
صارت لهم « حطـــين »
تميمـة الطفل ؛ واكسير الغــد العنين

* * *

(جبل التوباد حيـاك الحيـا)
(وسقى الله ــ ثرانا الاجنبي !)

* * *

مرت خيول الترك
مرت خيول الشرك
مرت خيول الملك الدب ،
ومر الملك التنـــين
مرت خيول التتر الباقـين .
ونحن ــ جيلا بعد جيل ــ في ميادين المراهنـــة
نسقط تحت الاحصنة .
وأنت في المذياع ، في جرائد التهوين
تناشـــد الفارّين .
وترتدي العقـــال تارة ..
وترتدي ملابس الفدائيين .
وتشرب الشاي مع الجنود في المعسكرات الخشنة
تخطب فيهم قائلا : حطـــين
وتطلق النار على جوادك المسكين !
حتى قتلت ــ ياصديقي ..
بأيـــادي الكهنـــة !

* * *

(وطني لو شغلت بالخلد عنه)
(نازعتني ــ لمجلس الامن ــ نفسي !)

* * *

نم يا صلاح الدين !
نم ، تتدلى فوق قبرك الورود .. كالمظليين
ونحـن ساهرون في نافذة الحنين
نقشر التفاح بالســكين
ونسأل الله .. القروض الحسنة !

القاهرة

د . عبدالرحمن منيف

ثلاث قصص قصيرة جدا

عندما ابتعدت الباخرة .. كثيرا

اطلقت الباخرة صفرها الثانية .. وبعد قليل سوف تتحرك .
الاوراق الملونة تمتد كشريط لاينتهي بين الرصيف وكل شيء على الباخرة ، تريد ان تمسك بها ، ان تمنعها من الرحيل !

الان التصوير لا تتوقف ، البالونات الملونة تقذفها الانفاس الحارة نحو الباخرة ، باقات الزهور تحملها الايدي بفرح وبحزن .. الاوراق الملونة شريط لاينتهي !

جرت خطواتها بصعوبة كمن يدفع الى الموت ، وباقة الزهور مثل حمامة ترتاح على صدرها . كانت دموعها تتساقط .. تتساقط بغزارة ، والعيون تنشد اليها ، تتابعها في رحلتها الحزينة وهي تبدأ بصعود سلم الباخرة .

ثبت نظارته ، مسح الدمعة التي خبأها طويلا ، اضطربت حركاته، مد يديه ، انزلهما ، اضطرب اكثر حين وصلا الى النقطة التي يجب ان يفترقا عندها ..مد يده برجاء حزين الى شعرها ،الى جبينها الى كتفها ، امسك بيدها يريد ان يمنعها ، لكن فجاة ، وبعصبية قبلها وركض الى الرصيف !

بدأت الباخرة تتحرك بهدوء ، واخذت الاوراق تمتد وتطاول ثم مالبثت ان تمزقت وتساقطت في مياه البحر وعلى ظهر السفينة .. وبدأت الايدي تتراخى حتى كفت عن الحركة ، وتداخلت ملامح الوجوه ثم بدأت تغيب تدريجيا .

وقفت على الحاجز تلوح له بباقة الزهور وتبكي . .. ظلت هناك حتى ابتعد كل شيء ولما لم تعد تحتمل ركضت بعصبية الى مقصورتها وكأن شيئا ما يطاردها !

هدأ كل شيء في ممرات الباخرة .. ولم تعد ترى الا اطيافا بطيئة تظهر مسرعة ثم تتوارى في الغرف ، في البار ، في الزوايا !
وظلت وحدها تملأ الرأس ، مثل الدوار ولا تغيب .. وسكرت بحزن شديد .

حاولت ان اراها مرة اخرى ، انتقلت بين البار والمطعم مرات كثيرة طوال النهار .. لكن لم ارها .

وفي المساء وانا اشرب كأسا من الكونياك قدرت ان الدموع التي رأيتها تتساقط من عينيها خلفت فيها هذا الحزن الذي يسيطر علي الان .. وتذكرت اشياء حزينة اخرى !

وفي اليوم التالي هاج البحر ، تساقط الركاب من الدوار .صعدت الى ظهر السفينة لاتغلب على حالة الغثيان التي بدأت تنهشني ...

رأيتها هناك .. كانت وحيدة حزينة متعبة .. وتنظر باتجاه الشاطئ الذي تركناه ! كانت تحدق في الفراغ .. وتأكدت انها لا ترى سوى شيء واحد .. ولكن لم تصبر طويلا .. ضربت الحاجز بعصبية ومرارة وركضت .

ظهرت في المطعم ، نظر اليها الكثيرون ، لكنها لم تنظر الى أحد ، والطعام الذي قدم اليها تركته دون ان تمسه .

اثناء الليل ، ونحن في صالة السينما ، كانت عيناي ترقبان ، تنظران في الظلام لعلي اراها ولم يكد الفيلم ينتهي حتى رأيتها في زاوية الصالة ، كانت تربض مثل قطة صغيرة . حاولت ان استبعد صورته وهو يضغط نظارته ، وهو يمسح الدموع الصغيرة المرتجفة التي بدأت تتساقط من عينيه مثل حبات الزئبق الصغيرة ، ولم يحاول ان يمنعها .. فكان مظهرها وهي تدخن سيجارتها في الزاوية يذكر باحزان لا تنتهي .
في اليوم الثالث .. والباخرة تصل ميناءها الاخير ، حملت حقيبتي ونزلت .
في لحظة ما التفت الى الوراء .. كانت تنزل السلم ، معطفها الكستنائي يلفها بشدة ، حركتها رشيقة ، راقصة ، ويدها تماما تحت ابطه ، كانت تتأبط شابا قصيرا متينا ، كانت تنظر اليه بلهفة مجنونة وتضحك ، وكانت تمسك به بقوة .
وقفت انتظر .. في لحظة مجنونة مرت .. لم نر احدا ، كانت تمسك الباب بقوة ، وتنظر اليه بفرح وتضحك !
وفي تلك اللحظة عرفت اكثر من أي وقت لماذا يصبح الانسان حزينا !

★★★

عالمان

الى عمانوئيل لبيب

.. في تلك المدينة الالمانية الصغيرة ، التي اعيد بناؤها من جديد ، بعد ان هدمها الامريكيون في الغارات الاخيرة من الحرب .. ذهبنا انا وصديق الى بار صغير ، واردنا ان نكون وحيدين في الليلة الاخيرة .. اردنا ان نقول الكلمات الاخيرة قبل السفر !
جلسنا في ركن منزو ، وبدأت زجاجات النبيذ تفرغ واحدة بعد اخرى ، وقد حاولنا مع كل كأس جديدة ان نخلق جوا خاليا من الحزن .
ـ تذكرنا مئات الاشياء الصغيرة ومئات الوجوه ، حاولنا ان نستعيد ذكريات بعيدة ونعطيها شيئا من حرارة الماضي لتبدو كبيرة خارقة !

الوجوه حولنا تتحرك ، تتغير ، ولكن لا نراهـا ولا نحس بها الا اطيافا ، وصديقي يرد باختصار على تحيات الذيـن يعرفهم ، وفـي محاولة غريزية للدفاع لابعاد أي زائر او عابر من الجلوس معنا . اما محاولات الموسيقي المتقاعد فقد انتهت ، بعد ان قابلناها ببرود ، لكي لا تتكرر تجربة ليلة سابقة .. عندمـا شـاركنا طاولتنا على الغناء وارغمنا اكثر على سـماع اغانيـه .

في احد الاركان جلس رجل مسن وحيدا .. كان ينظر بسرعة نحونا بين فترة واخرى ، وكأنه يبحث ، عبر الدخان واقـداح البيرة، والابتسامة الحزينة التي ترتسم على شـفتيه ، عن شـيء ما .. كنا نهرب من نظراته ، وشغلنا عنه الذكريات .. وعندما تلتقي نظراتنا ثانية كانت عيناه تعبران عن رغبة ما ، وتتحرك يـده بعصبية حاملة كأس البيرة لنشرب معـا !

ونغيب في الذكريات .. نتذكر انسانا لـم نـره منذ سنوات ، وتمر اطياف بشر منسيين .. ونتذكـر .. ثم بلهجة المودة والتهديـد نطلب الى بعضنا الا ننقطع عن الكتابة .. ان نكتب عن كل شيء ، وان نعيش تجارب كبيرة ، وان نغرق في حياة تفيض برائحة البشر والعالم ، لكي نتعرف على البشر وهمومهم ، وان نسكر ونضحك ونغامر ... نكتشـف ونتعلم !

وتعود النظرات لتلتقي سريعـة كأنها تخـاف شيئا ، وتبرق عينـاه بذات الفـرح وهو يرفع يده بالكأس .

انقضى اكثر الليل .. لم يبق في البـار الا نحن وذاك الرجـل المسن وثلاثة رجال انضم اليهم الساقي وبدأوا يلعبون الورق .

ومن ركنه البعيد .. بدأ يغني .. كانت اغنيـة حزينة متعبة ، لونتها كؤوس البيرة برنابة حادة .. لم يكن الرجل المسـن يكتفـي بالغناء ، كان ينقر على الطاولة بضربات بطيئة تشبه وقع حوافر الخيل .. ومـا كدنا ننظر اليه هذه المرة حتى كانت تلك النظرة مثل جسر اقيم في لحظة .. فما كان منه الا ان حمل كأسه .. وجـاء

وقف فوق رؤوسنا ، ونظـر الى كل شيء بهدوء ، نظر الينـا والى الجدران والستائر والدخان .. ثم امال رأسه واخذ ينصت الى المطر ، وشعرنا ان جوا صعبا يمتد بيننا .. لم نسـتطع ان ندعـوه الى الجلوس ولم نستطع ان ننصرف عنه .. كنا نريـد تصرفا مـا ينقذنا من الصمت ويبتلع نظراته التائهة الحزينـة !

وضع كأسه على الطاولة المجاورة وانحنى فوقنا ، بعـد ان مـد يديه مثل دعامتين على طاولتنـا ..

الصمت ما زال حادا مثل وتر مشدود ، وعينـاه تـدوران ، تحدقان في الفراغ ، تنظران الينـا بحزن وتعب .. واخيرا جاء صوته ثقيلا غامضـــا :

ـ بقي لي عشرة ايام .. نعم عشرة ايام .. اين يمكن ان اذهب ؟ اريد بشرا .. آه لو لم تمت .. الان انتهى كل شيء !

وبدأت نظراته تأخذ شـكلا قاسيا ثم عصبيا ، وبعد فترة صمت قـال بتحـد :

ـ اشربوا .. تحـدثوا .. اضحكوا .. ولكن لا اريد ان اذهب الى البيت .. الى ذلك الجحيم .. وهذا المطر القذر لم ينقطع منذ ثلاثة ايام .. اين يمكن ان اذهب ؟ مع من اتحدث ؟

وفي لحظة جمع كل نفسه ، اعتدل في وقفته ، واخذت ملامحه شـكلا قاسيا .. نظر الينا وهو يهز رأسه ثم قال :

ـ لا يمكن ان نتحدث الان .. لقد اردت ان نكون اصدقاء ، لكنكم كنتم بعيدين .. سأشرب كأسي وامشي .. لا فائدة .. لقد ماتت زوجتي قبل أسبوع .. وابنتي الان في رحلة مع صديقها !

وضحك بسخرية ثم اضـاف :

ـ عشرة ايام من الاجازة سوف اقضيها بشكل ممتع !

وبعصبية شرب كأسه دفعة واحدة وخرج

كان المطر ما يزال يتساقط عندما خرجنا .. لم نكد نمشـي بضع خطوات حتى وجدنا الرجل يستند الى جدار ويبكـي .. كـان يبكـي بحرقـة !

ومشينا بصمت .. ولم نستطع ان نستعيد اية ذكريات اخرى .



عملة مزيفة

تموز .. الساعة تتجاوز الثانية ، ريح ساخنة مغبرة تلفـح الوجوه ، اسفلت الشارع يعكس الشمس الحارقة ، انتظار مشحون بالقرف ، آلاف الشتائم تندلق الى الداخل دون صوت .. الذباب يتنقل فوق اكداس اللحم باسترخاء لزج ، السكين تغوص في الذبيحة المعلقـة مثلما تغوص في القلب ، صريرها يشـبه صرخة طائر مذبوح ... الاشياء في حالة غرق ... سقوط .. عصبية يائسة .. والكلمات تنزلق بتعب ورخاوة لتصدم بالضحكة المرسومة الى جانب غمزة العين!

ببلاهـة اقف . كل شيء حولي لونه اصفر : الجدران ، اللحم ، اكياس الورق ، الوجوه ، السيارات العابرة .. والوجوه مرة اخرى!

فتاتان .. اختان ، رأس الكبيرة يرتفع فوق مستوى الـرف المركوم بقطع اللحم والعظام .. عيناها تنظران الى كل شيء بخـوف وباستطلاع . وجه الصغيرة يكاد يلتصق بالجدار .. وبين لحظـة واخرى تقف على رؤوس اصابعها لتـرى شيئا .. وقبضتها تمسـك بثوب اختها مثل استغاثة اخيرة !

ـ نصف كيلو شـرحات

ـ عندك كبـده وقلوب ؟

ـ نصف اوقية هبرة لمريض .. الله يستر عليك !

ـ ٣ كيلو بالعظـم

صوت الريح ، صوت السيارات ، الاعياء ، القرف ، الذباب الذي لا يخاف يتنقل فوق اكوام اللحم ، فوق العظام ..

أخذ الجميع .. لم يبق غيري والصغيرتان

اريد لحمـا .. لا اريد أي شيء ! اه لو انام الان .. في هـذه اللحظة ، لو اغرق في ماء بـارد .. بارد ، لو اتخلص من كل شيء ، من جلدي ، من عيني ، من اللزوجة التي احسها فوق روحي .. اه لشد مـا اكره كل من حولي : اللحم ، الريح ، الاسفلت .. اه لو انقيـــأ !

مدت الكبيرة يدها : مجموعة من الاكياس والاوراق مطوية بفوضى .. وبصوت صغير .. صغير :

ـ اريد عظاما بدل هـذه

يمسك الاوراق ، يقلبها ، يطويها ، يعيدها ، .. دون كلمات .. يحرك يده بقرف تنزلق الصغيرتان الى الخارج .

في لحظة توقف كل شيء ، تجمد تماما : الفكر ، الرغبـة ، الريح ، الشمس ، النوم ، الماء البارد ، الكلمات .. كل شيء ..

اللحظة الثانية : القبضة الصغيرة تفلت من كل شيء بجنون ..

تمر سيارة مسرعة .. تترك خلفهـا كومة من اللحم الطري المعجـون بالـــدم .

الاكياس .. الاوراق تتطايـر

اجلس على الارض .. وأتقيـأ

وتبدأ الريح مرة اخرى .. ريح لافحة مغبرة تكنس الاسفلت واللحم الطري والذباب .. وكل شيء .. كل شيء !

بغـداد

سامي خشبة

الأدب المصري في عام ١٩٧٥ : هل هي بداية حقبة جديدة ؟

طلبت مجلة «الطليعة» القاهرية هذا المقال من الكاتب ، عن طريق المحرر المسؤول عن « ملحق الادب والفن » فيها . ونشرت المجلة المقال ، بعد ان حذف هذا المحرر مقدمته كلها ، وعبارات وفقرات هامة منه ، بحجة « طول » المقال ، رغم الاتفاق مسبقا على عدم « الاختصار » الا باستشارة الكاتب . ورفعت المجلة اسم الكاتب عن مقاله ، بناء على طلبه لاستحالة اضافة المحذوف او رفع المقال كله . ونحن هنا نستأذن « الآداب » ، لنقدم المقال كاملا ، دون حذف .

س . خ

في حركة الزمن ، ليس الحاضر وحده هو الذي يتحرك بتقدمه الى المستقبل نحو الامام . الماضي يتحرك . يتراجع ، ويزداد على الدوام ابتعادا الى الوراء . والمستقبل يقترب دون توقف ،ويعلن دائما عن اعماقه اللانهائية فيصبح اكثر حضورا . ونحن حينما نركز ابصارنا على الامام ، اذ نخطو نحوه ، فنقطع حيز المكان والزمن في آن معا ، فانما نبحث ايضا عن « ثقب » في جدار هذا الحيز ، نلقي منه نظرة خاطفة الى ما يمكن ان نلمحه من اعماق المستقبل الذي نتقدم « فيه » . ولكننا ايضا نشعر بنبضات الماضي ، افراح مكاسبه او آلام ندوبه المستكينة الحية في مكان ما من الدماغ والقلب كالمادة المشعة ، المنتشرة آثارها في كل شعيرة من جهاز عصبي واع ، يتحرك ويسعى دون ان يخامره وهم التحرر الكامل عن ماضيه وتاريخه .

وفي حركة الواقع ، حينما يحاول الادب رصدها ، يصعب ان « يسلخ » الاديب الكاتب قطاعا واحدا ليفحصه في تمهل او على حدة، ثم يظل بعد هذا على رجائه في ان يتجاوز ادبه قامة المسامرات المسلية.

في حركة الواقع المرصودة في الادب ، يكتسب الواقع صفة «الجماعة الانسانية » : كتلة ، وافرادا متمايزين . فهي حركة تكتسب كل جوانبها في الادب وحده صفة « الواقعية » ، وتكتسبها بالانصبة المتساوية من القدرة على الحضور والتأثير ، التي تمنحها ارادة الابداع ووعي الكاتب : هواجس النفس الباطنة ، وتراث الاجداد الثقافي والاخلاقي، لا يقلان « واقعية » عن قواعد السلوك او قيود الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على حركة الانسان الاجتماعية ، ولا عن الكوابح الاخلاقية على رغبات الانسان الطبيعية ، ولا عن « الامكنة » التي تقع فيها الاحداث ، ولا عن الدلالات التي اكتسبتها اللغة — بمفرداتها وتراكيبها وايقاعاتها — عبر تاريخها الطويل حتى لحظات الابداع الجديد ، وحتى لحظة قراءته مرة اخرى .

ان الادب المصري الحديث ، القائم على اساس نوع جديد من الحساسية النابعة من وجدان ووعي انسان فارق بشكل كيفي — اذ فارقت حياته ، وهو انساننا البرجوازي — الجانب الاكبر من تكوينه الذوقي الموروث ، وانماطه واساليبه التقليدية في الشعور والتفكير والتعبير (العادي او الفني) وفي ممارسة العمل والعلاقات الاجتماعية وانواع الحلم والعذاب والاسترخاء والقلق ، مفارقة من البساطة والتسطح ، الى التركيب والتعقيد وتعدد الجوانب والاعماق ، وهي ايضا مفارقة تعني ان هذا الانسان قد وصل الى مرحلة الشعور باغتراب حقيقي ، لا ازاء ثقافته الموروثة القومية وحدها ، وانما ازاء ركام الثقافات الواحدة التي تعني نفيه او اغترابه الانساني مرتين ..

هذا الادب الذي لا يريد ان يكون مجرد دراسة « شاملة !! » ووضعية لـ « حالة » ما ، مثلما طمح الطبيعيون التقليديون ، ولا يريد ان يكون مجرد اعلان برفض العالم وهجرانه لمجرد انه عالم منحط ومدان ، او محض بواح بالاشفاق على الذات او الاعجاب بها لانها سحقت او انتصرت في مواجهة غير عادلة مع انحطاط العالم او لانها تمكنت من الافلات من مثل هذه المواجهة مثلما طمح الرومانتيكيون التقليديون ، ولا يريد ان يكون مجرد تعليب شاعري لاشكال وانماط انسانية محددة سلفا ، واشهار لقيم العلم الاجتماعي والمعرفة الثورية او التضخيم الخطابي لابطال هذه القيم او انشاد غنائي لفضائلهم مثلما طمح الواقعيون التقليديون « وارجو ان يكون مفهوما انني اريد ان استخدم مصطلحات الطبيعيين والرومانتكيين والواقعيين في حدود دلالاتها « المصرية » التي اكتسبتها في الابداع والنقد المصريين فحسب !) .. هذا الادب ، الذي يطمح ان يتجاوز مستوى الدعوة — وان تضمنها بمعنى البشارة — لكي يكتسب قامة الرؤية وافقها العريض ، من خلال تجسيده — في العمل الادبي ذاته — لمثله الاعلى الذهني والجمالي الخاص .. اقول ان هذا الادب ، بهذا

النوع من الحساسية الجديدة ، هو الذي ينبغي ان يشد انظارنا ونحن نتحدث عن الادب المصري في عام ١٩٧٥ .. لان هذا الحديث ، انما يهتم في الدرجة الاولى ، بما سيكون عليه ادبنا في العام الجديد واعوام اخرى تالية ، نعتقد ان ستتشكل فيها صورة بالغة الاختلاف والجدة لادبنا « الحي » كله .

اننا لا نعتزم ان نتحدث هنا عن « أدب ١٩٧٥ » المصري ، مثلما يتحدث الاقتصادي في نهاية السنة المالية بحساب الارباح والخسائر . فالادب ، والفن بوجه عام ، لا يحسبان ، ولا يقيمان ، بانتهاء السنوات او بداياتها . ولكننا نظن ان هذا العام ، قد تجمعت فيه مجموعة محددة من الظواهر اللافتة للنظر ، سنتحدث عنها حالا ، تجعل من هذا العام بداية لحقبة جديدة للادب المصري : مثلما قد يكون نفس العام نقطة التحول الى حقبة جديدة من تاريخ تطور المجتمع المصري ككل : سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، ومن تاريخ تطور ثقافته القومية بالتالي .

★ ★ ★

لا تزعجنا حالة التوقف أو التجمد او « الوخم » ـ او حتى النكوص والارتداد في بعض الجوانب ـ التي ترين في الظاهر على الاجزاء الاكثر « بروزا » من حياتنا الادبية امام عيوننا اذ تتلفت عاما الى الوراء . ما الذي يزعج من فزاعات طير حركت اطرافها ريح شاذة تثار لكي توقف مؤقتا تيار التاريخ ؟ انتاجها الرديء المتخلف ، وتظاهرها احيانا بانها المدافعة عن تراث السلف الصالح الذي تسيء استخدامه وتسيء فهمه ، او تظاهرها بالتجدد « الرصين » او بالاعتناء النقدي بنكرات الكتابة ومجاهيل الادب الذين تحرص « فزاعات الطير » على وضعهم في صدارة اجهزتنا الثقافية بعد ان حرصت على ان يحتلوا صدارة الحياة الثقافية كلها ، او تظاهرها (الفزاعات) بالموضوعية في الاهتمام باشباهها او بـ « الظواهر » الجديدة ... اقول ان كل هذه الشعوذات المؤقتة ، الناشئة فوق تضاريس حياتنا الادبية كرؤوس الدمى القديمة المهشمة ، يصعب حقا ان تكون مصدرا للازعاج . وانني لارجو ان تحاول الاجهزة المسؤولة عن توزيع كتاباتها الادبية ، ان تنشر الارقام الحقيقية ، بطريقة معتمدة ـ لتوزيع ما ينشرونه من كتب النظم الرديء والروايات ومجموعات القصص والكتب « النقدية » .

هناك طبعا ما يزعج .. منعا لاصحاب المواهب الحقيقية ، والاحترام الصادق للنفس وللحقيقة والجمال ، من الحصول على فرصتهم العادلة ـ حتى في التساوي مع الشطار والنصاح والوجهاء وصبيانهم .. الخ .. الخ .. وتعطيلا بالتالي لمسيرة تطور أدبنا القومي وثقافتنا القومية تطورا لا يمكن ان يتحقق الا على ضوء العقل النقدي الواعي والمعرفة الصحيحة والاحساس الاصيل بحقيقتنا ، بكل جوانبها ومثلها العليا .

وهناك « ظرف » معين ، لابد من الاشارة اليه هنا ، بسبب تأثيره الخطير ، ومشاركته في عملية « التعطيل » تلك . لقد تضافر « تأميم » اجهزة النشر ، والتوزيع ، او تمليكها لجهات رسمية يسيطر عليها بيروقراطيون جهلة او موظفون اصحاب استعدادات تجارية لا ترى فارقا كيفيا بين اية سلعة وبين منتجات الثقافة ، تضافر هذا ، مع محدودية سوق الكتاب الادبي المصري ـ ، (محدودية بحكم الامية السائدة من جهة ، وبحكم المنافسة القوية من جانب وسائل الاتصال الجماهيرية من جهة اخرى ، ومن جهة ثالثة بحكم الحواجز العقلية والشعورية التي تقيمها منتجات « الثقافة » الهابطة والتجارية المستأثرة بحماية ورعاية وسائل الاتصال الجماهيرية نفسها) ، تضافر هذان العاملان مع « التضخم » الاقتصادي والارتفاع الفاحش في اسعار الضروريات والكماليات ، واكثر الكماليات ثانوية ـ نظرا لكل الظروف السابقة ـ هي بالطبع كتب الادب الجادة والجميلة .. اقول ان كل هذه العوامل تضافرت لكي تجعل مسألة اعتماد الكاتب ، او مجموعة الكتاب الاصلاء المبدعين على انفسهم او على مؤسسات النشر الخاصة لنشر كتبهم ، مغامرة او تضحية مكلفة بحاجة الى اخلاص من نوع خاص .

ويقودنا هذا « الظرف » بالضرورة ، الى الظواهر المحددة التي تجمعت ملامحها في العالم الماضي ، والتي تدفعنا الى الظن باهمية خاصة لهذا العام في علاقته بالاعوام القادمة .

● اول هذه الظواهر بداية تحول الكثيرين من كتاب « القصة القصيرة » الشبان ـ من جيل الستينات ـ الى الرواية ، باحثين فيها عن اشكال وقوالب ومضامين ونماذج من البشر والعلاقات جديدة « كيفيا » كلها ، ويؤكدون فيها عثورهم على اساليبهم التعبيرية الخاصة ، وطرق استخدامهم المتميزة للغة والقوالب والتراكيب والاساليب ، التي تؤكد انهم تمكنوا دون معونة من احد غالبا (سوى الاهتداء بمجموعة من الاعمال الابداعية والنقدية المحددة) من حل مشاكل فنية كثيرة قديمة ، وتؤكد ايضا انهم يطرحون مشاكلهم الفنية الخاصة الجديدة ، التي يجب ان يعثروا على حلها او ان يتركوها لحقبة لاحقة .

انني اشير هنا الى روايات « نجمة اغسطس » لصنع الله ابراهيم و « الطوق والاسورة » ليحيى الطاهر عبدالله ، و « الزين بركات » و « الزويل » لجمال الغيطاني ، و « الخماسية » لغالب هلسا و « صدمة طائر رغيب » لكمال القلش . ولنلاحظ هنا ان « الرواية » كنوع ادبي ، وبالصورة التي تظهر بها في هذه الروايات التي ظهرت في ذلك العام ، وان كانت قد كتبت او بدأ التفكير في « تجربتها » منذ سنوات ماضية قد تعود الى أواخر الستينات ، اقول ان الرواية كنوع ادبي وبالصورة التي ظهرت بها في تلك الروايات ، لم تفقد خاصية هامة من خصائصها ـ رغم كل جوانب « التجديد » في الاشكال والقوالب والنماذج البشرية والعلاقات واساليب التعبير وطرق استخدام اللغة ـ وهي خاصية القدرة على تجميع عدد كبير من جزئيات حياة الجماعة الانسانية (كتلة وافرادا متمايزين) بجانبيها الحسي والمعنوي ، واستخدامها كمادة خام ، تتحول الى كيان فني ، او الى « واقع » جديد متسام ومصفى وخاضع للوعي النابع من ارادة الكاتب وموهبته (قدرته على البناء والتشكيل والنسج) ومشبع برؤية الكاتب الى « الحقيقة » التي استمد منها مادته الخام ، من اجل تجسيد المثل الاعلى الذهني والجمالي الخاص الذي يطمح الكاتب الى تحقيقه في عمله . وستكون لنا عودة الى هذه الروايات الست بالتحديد ، والى جذورها ، او جذور الحساسية الجديدة التي تعبر عنها ، من اعمال مصرية او عربية (غالبا) والى اسباب هذا الازدهار الطيب للنوع الروائي .

● الظاهرة الثانية ، هي تراجع الدراما المسرحية عن مركز الصدارة الذي احتلته حركة الابداع الادبي في مصر حتى اوائل السبعينات ، وتقدم الرواية ، لا القصة القصيرة ، ولا الشعر ، لكي تحتل مركز الصدارة . (ولنلاحظ ايضا ان الدراما السينمائية ، ذات الطابع الواقعي التقليدي ، والهم السياسي غالبا ، او الاجتماعي العام احيانا ، تتقدم هي الاخرى ـ راجع مجلة (الطليعة) عدد يناير ١٩٧٦) . فلم يشهد عام ١٩٧٥ من الانتاج الدرامي المسرحي البارز سوى « برج المدابغ » لنعمان عاشور و « رسائل قاضي اشبيلية » لالفريد فرج ـ ونشرت في مايو الماضي في مجلة « البلاغ » البيروتية ، ثم « رسول من قرية نميرة » لمحمود دياب .

ان ازدهار الدراما المسرحية يحتاج الى شروط كثيرة ، اولها واكثرها اهمية ، سيادة موجة من التحرك الاجتماعي الحر الى

الامام ، والتحرر الفكري المصاحب له بالضرورة ((من امينا الفلاسفة العقليين والثورة الاجتماعية ، الى انجلترا بيكون ونيوتن واندثار الاقطاع ، الى باريس الموسوعيين وازدهاره البورجوازية الجديدة ، الى المانيا هيجل وتلامذته والتحرك الديمقراطي بعد بسمارك ، الى بطرسبرج ما بعد ثورة ١٩٠٥ ، الى المانيا ثانية في ظل جمهورية فيمار ، الى لندن ، وباريس و ((خارج نيويورك)) في الستينات الماضية المشتعلة بثورات الشباب ـ هذا اذا شئنا مثالا سريعا مستمدا من تاريخ الدراما المسرحية الغربية) . وفي الوقت نفسه فان ازدهار الدراما المسرحية ، انما يعني ان ((الافراد)) اصبحوا على استعداد للتحول الى ((جمهور)) ، أي للخروج من عزلتهم ، ومواجهة اغترابهم عن العالم وقهره بالفهم الجماعي الذي يحققه الفعل المسرحي . ان هذا الاستعداد هو ما ينتكس الان :

الجمهور يعود الى اصله ، ويتحول الى ((افراد)) منعزلين .

ولم يكن صمت كتابنا الدراميين الكبار ـ باستثناء نعمان عاشور ، الكاتب المتخصص في أزمة البورجوازية الصغيرة ، والفريد فرج الذي وجد في التاريخ والتراث ، وما يحتويان من قيم انسانية عامة وثابتة ملاذه الروحي ، ومحمود دياب الوحيد الذي يجمع بين القدرة على تأليف قصته الدرامية ، وبين تحقيق قامة الرؤية وتجاوز الدعوة الى البشارة ، وبين القدرة على اكتشاف قوالبه الدرامية الخاصة الجديدة ، تجسيدا لمثله الاعلى الجمالي الخاص وليس انبهارا او تقليدا لنموذج جاهز سابق ـ كما لم يكن تراجع مستوى انتاجهم او هجرتهم الى الخارج سوى بداية ازمة الدراما المسرحية المصرية . فقد كان من الممكن ان تحل محلهم او تقف الى جانبهم موجة من الجيل الجديد من الكتاب المسرحيين ، لو ان الظروف الموضوعية كانت تفرض ازدهار الدراما المسرحية ... ولكن هذا الجيل يتحول الى الرواية ، لا الى هذه الدراما المسرحية التي يعرفون انها لن تعتلي منصة المسرح ، فتظل ناقصة التحقق كعمل فني لا يكتمل الا على تلك المنصة : مثلما حدث لمسرحيات نعمان عاشور والفريد فرج ومحمود دياب ، تحت وطاة الاحكام الرقابية او الاعيب اجهزة القراءة والادارة في هيئة المسرح .

● الظاهرة الثالثة هي الضعف البادي على حركة القصة القصيرة . لقد بدأت طلائع ((الحساسية الجديدة)) في هذا النوع الادبي بالذات ، الى جانب نوع اخر هو القصيدة الغنائية التي سنتحدث عنها حالا . هناك بالطبع قصص قصيرة ، ممتازة واصيلة التجديد (أي اصيلة التعبير عما هو جديد في الحياة العامة والباطنة لجماعتنا الانسانية) تنشرها بعض المنابر القليلة التي استبقت لنفسها القدرة على التذوق والحكم السليم او التقدير ((الحر)) وغير المتحيز الا للصدق الفني والجمال . ولكن هذه القصص لا تشكل موجة من التأليف القصصي مثل تلك التي شهدتها الستينات ـ والتي كانت رغم تزامنها مع ازدهار الدراما المسرحية وانغلاق النوع الروائي على اسماء مؤلفيه الكبيرة التقليدية ـ كانت كأنها الارهاص بمقدم الظروف الاجتماعية والسياسية التي ستعمق ظاهرة ((الاغتراب المزدوج)) ، اغتراب انساننا البورجوازي ازاء ثقافته الموروثة القومية التي عزلـه عنها ((التعليم)) الحديث وروافده من منتجات ((الثقافة)) الحديثة ، وعزلته عنها اكثر واكثر وسائل تغذيته الوجداني وامتاعه الذهني التي تزداد هبوطا وبعدا عن حقائق حياته وعن حقائق الحياة ، وازاء ركام الثقافات الوافدة ، التي يستوردها مثقفون (وظلوا يستوردونها منذ بداية عصر ((نهضتنا)) .) لا يملكون ((المصفاة)) العقلية ، القومية اللازمة لتمثيل ما يستوردونه واستيعابه دون خضوع له ، استيعابا لصالح ((قيم)) الثقافة القومية وليس على حسابها . ولقد كانت موجة ازدهار القصة القصيرة المصرية في الستينات ايضا ، لانها الارهاص بمولد الحساسية الجديدة الناجمة من ذلك الاغتراب المزدوج ، حيث يتركز ازدهارها في الرواية ـ لاسباب سنحاول مناقشتها بعد قليل ـ بينما تراجع الدراما المسرحية الى الوراء .

لقد امتنع يوسف ادريس وادوارد الخراط ويوسف الشاروني عن انتاج القصة القصيرة ، ولا اقول انهم ((كفوا)) عنها بعد ـ فربما نكون هي التي امتنعت عليهم . وباستثناء مجموعة فاروق منيب : ((عابر سبيل)) لا نكاد نسمع صوتا متميزا للجيل الاوسط من كتاب القصة القصيرة . ورغم استمرار اسماء بارزة من جيل الستينات واوائل السبعينات: يحيى الطاهر عبدالله وابراهيم اصلان ومحمد المنسي قنديل وغيرهم في الكتابة وتحايلهم على النشر ، فان ((حجم)) انتاجهم مجتمعين ، وتكرارهم للحلول المحدودة التي سبق لهم اكتشافها لمشاكل نوعهم الادبي القديمة ، واخشى ان أضيف ، عجزهم عن تجاوز المشاكل الفنية الجديدة التي طرحها انتاجهم السابق .. كل هذه عوامل تشترك ـ ذاتيا ـ في تحديد افق القصة القصيرة المصرية .

ولكن القصة القصيرة ، تحتاج ـ موضوعيا ـ الى حياة اجتماعية وفكرية ذات معالم واضحة وعلى قدر من الاستقرار ، حتى يمكن ((اجتزاء)) شرائح مستقلة منها ، تعبق بطعم وبرائحة الكل الذي اخذت منه وتصبح بذرة له ونافذة لاكتشاف معا وتصلح مادة خاما لتجسيد المثل الاعلى الذهني للاديب الفنان . ونحتاج القصة القصيرة ايضا ، لا الى الكتاب في المقام الاول ، بل الى الصحيفة والمجلة .. ولكنها تحتاج الى الصحيفة والمجلة اللتين تنشرانها لانها جيدة ، لا بحكم الوضع المتميز لكاتبها ، او لاحتياج المنبر الذي ينشرها الى ملء مساحة معينة بمادة مسلية من نوع مختلف .

● والظاهرة الرابعة هي انحسار ((الشعر)) انحسارا فادحا حقا . ومن المحقق ان الشعر بالذات ـ بعد الدراما المسرحية والى جانبها ـ قد واجه عملية ((تطويق)) قاسية باستيلاء ارباع الموهوبين من النظامين واصحابهم على منابر النشر ، وهم الذين نصبوا انفسهم مدافعين عن ((تقاليد)) الشعر العربي وتراثه ، وهم ابعد ما يكونون عن قيمه الجمالية والفنية الحقيقية (هل هناك اي مجال للمقارنة بين أي واحد من هؤلاء ، وبين اصغر من اختار لهم ابو تمام او الاصبهاني او البارودي او أدونيس ؟) . ولكننا لا نظن ان هذا التطويق وحده هو السبب . ولا حتى الدوافع التي ادت الى عملية التطويق ذاتها ، القديمة التقليدية ، او الجديدة الطارئة . ثمة شيء ((خطأ)) في العلاقة بين الشاعر المعاصر الحقيقي وبين الفئة ((القارئة)) في مصر : ربما كان راجعا الى نظام التعليم ومناهجه ، او الى التطور المستمر نحو ((التجزئة)) والتسطح في التكوين العقلي والثقافي لطبقتنا المتوسطة ((المتعلمة)) ، يقابل هذا التطور تباعد مستمر بين طبقات الشعب الامية وشبه الامية وبين الصورة الرسمية للثقافة القومية ـ الصورة التي تصفعها عقلية هذه الطبقة المتوسطة المغتربة في وقت واحد ازاء ثقافتها الموروثة ، وازاء ثقافاتها المستوردة ، والمعادية في وقت واحد لاي معرفة حقيقية بذاتها ، او بالعالم ، لانها اصبحت ((تعرف)) ان ((معرفة الحقيقة)) والاعتراف بها ، يعنيان هلاكها (!!) كل هذا يساعد او يغذي ميلا فطريا لدى ((الشاعر)) ـ ايراد القلائل الذين يملكون الحقيقة ـ الى الانعزال ايضا والدخول في دائرة عالمه الخاص وهو بالضرورة سيكون عالما اكثر تعقيدا او تركيبا من ان تستوعبه عقول طبقات قارئة من النوع المذكور .

هل كان الارهاص بذلك الانحسار للشعر ، والانعزال للشاعر ، قبل اربعة اعوام ، عندما اكتشف صلاح عبدالصبور ((شجر الليل)) فاشتبك معه في صراع لم يخلص منه بعد ، وعندما وقف احمد عبد

المعط يحجازي ، قبل ثلاثة اعوام ـ عند ذكرى بطله الضائع لكي يكتب « مرثية العمر الجميل » ؟ . كان صلاح يرثي الشباب المولي وروحه الجسور واشباح أيامه الجديدة ، وكان حجازي يدين الشباب المولي الذي انقضى مع وهم جميل لجيل باكمله في مطلع العمر تباشير « لؤلؤة العدل » والكرامة والحرية الحقيقية في متناوله ، فأعلن الشاعر ـ لما ضاع البطل وانجلى الوهم ـ ان قد آن له ان يعود لقيثارته ، مواصلا ملحمته وعبوره ـ ولم نحصل منه ولا من صلاح عبدالصبور بعدها سوى على قصائد معدودة . وفي عام ١٩٧٥ لم نحصل الا على ديوانين لشاعر واحد هو محمد عفيفي مطر : رسوم على دفتر الليل ، شهادة البكاء في زمن الضحك . ولكننا في عام ١٩٧٥ كله لم نحصل على « شعر » سوى ديوان « الشاب ! » أمل دنقل : « العهد الآتي » . بين رثاء الاحلام الضائعة ، في العدل والشباب ، من العهد المولي ، وبين المدخل المؤدي الى العهد المقبل ، أين يقف الشعر المصري اذن ؟

الى اين يؤدي بنا مدخل أمل دنقل ـ فالسطر الاخير في الديوان يدعونا جميعا الى دخول عهده الاتي : فادخلوها بسلام آمنين !؟ .

سندخل عالما كاملا : منذ لحظة تكوينه الاول ، الى الخاتمة التي تتضمن « رؤيا » القيامة بعد الفناء النهائي . في هذا العالم يستحيل العدل والعقل والحرية والامن والحب ، ولايستطيع الانسان ـ خالقه ـ ان يفلت منه ولا من العبث الذي يسوده او من تساوي كل الاشياء فيه وضرورة فقدان الوعي عمدا حتى يمكن نسيان المأساة ، والبحث عمن يبيد الاجيال القادمة حتى نجنبها مصيرا مظلما . (الاغتراب بدأ كضرورة مفروضة ، ويصبح في النهاية اختيارا ـ !!) ومع هذا فالشاعر يدعونا الى دخول عالمه هذا « آمنين » . ومع هذا ايضا فانه لا يقول ان هذا هو العالم الوحيد المكن : فلمحات اليقين وسط الشكوك والسخرية ، ولمحات المقاومة وسط الاستسلام الكامل ، والمعنى وسط العبث المطلق والشعور الحقيقي وسط البلادة المطبقة .. كلها تؤكد ان « العهد الآتي » يستحق المغامرة من اجله ، خاصة اذا قرأنا « المدخل » مرة اخرى بعد ان ننتهي من قراءة الخاتمة . فالمدخل يؤكد ان الثائر على القهر موجود أبدا طالما ظل القهر قائما .. وان العكس أيضا صحيح .
ولكن المشكلة الحقيقية هي ان أمل دنقل نفسه لم يضف جديدا الى فنه وعالمه الشعريين منذ ديوانه الاول « البكاء بين يدي زرقاء اليمامة » قبل سبعة اعوام . لقد ازداد بالتأكيد قدرة على تكثيف صوره بتركيز سطوره واستثمار قدرته على تحقيق العلاقة بين المعنى المجرد والايقاع الداخلي وبين الموسيقى الخارجية ـ بما فيها القوافي أحيانا ـ باقتدار . وربما يكون قد ازداد قدرة على استيعاب الشكل او القالب لخدمة الرؤية ، حيث أصبح التصميم العام للديوان ، والتصميم الخاص لكل قصيدة جزءا جوهريا من الرؤية العامة أو الجزئية ، وحيث تتصاعد الرؤية العامة وتزداد اكتمالا مع كل قصيدة . ولكن لا اضافة حقيقية في الرؤية ولا في البناء . ولكن علينا ـ بعد هذا الحكم ـ ان نتساءل : اذا كان أمل هو في الحق أقرب شعراء جيلنا الى وجداننا واكثرهم قربا من الناس . ربما لبساطته ومباشرته وحمله « هموم هذه الدنيا » .. فهل كان يمكن ان يضيف الى فنه الشعري جديدا ، اذا لم نكن نحن ـ كلنا ـ قد أضفنا جديدا الى الحياة القائمة ؟!

**

ان الاجابة على ذلك السؤال هي التي يمكن أن تحدد الاسباب الفائرة لازمة الشعر والدراما المسرحية والقصة القصيرة ، وللازدهار الذي ننتظره لادب الرواية في السنوات القادمة . ذلك ان الرواية ، بمحافظتها على قدرتها على تجميع عدد كبير من جزئيات حياة الجماعة الانسانية التي تكتب عنها ولها ، ما تزال هي النوع الادبي القادر على تحقيق مطالب ثلاثة في وقت واحد : اعادة ترتيب جزئيات عالم الحقيقة المبعثرة المفككة على اسس واعية ومن الممكن الامساك بها ، وخلق عالم « مواز » لعالم الحقيقة ومختلف عنه ، يتيح لعقل الانسان ووجدانه ان يعثر فيه وقتما يشاء على منطق ما يسند اليه ، وتحقيق ذلك الترتيب لعالم الحقيقة وذلك الخلق للعالم الموازي والمختلف في عزلة ، وعلى انفراد .. اننا بحاجة الى ان نخلو قليلا لانفسنا ، لكي نعيد ترتيب اجزاء العالم المفكك ، ولكي نصوغ عالما نموذجيا يمكن القياس اليه ، او المقارنة به ، او استخلاص بعض المنطق من قانونه . والادب الروائي وحده الان ، هو الذي يستطيع ان يساعدنا ـ نحن الذين نتحول من « جمهور » الى افرادمنعزلين ـ على التوصل الى كل ذلك . انه وحده ، لا الشعر ، ولا الدراما المسرحية ، ولا القصة القصيرة ، هو ما يفي بالاحتياجات الثلاث مجتمعة . لا يشاركه في ذلك سوى السينما الاجتماعية . ولكن هذا مبحث مختلف .

لنلق اذن نظرة شاملة على الروايات الست التي تركناها من قبل : هل هناك ما يجمع حقا بينها ؟ .

ان الارتحال الى امكنة وازمنة بعيدة او مختلفة ، بحثا عن يقين ضائع او استقرار مفقود او منطق لعالم تسوده الفوضى ، سمة اساسية من سماتها جميعا .

يرتحل صنع الله ابراهيم في « نجمة اغسطس » ـ في المكان ـ الى اسوان بناء السد العالي ، والى النوبة تحت اقدام ابي سمبل اثناء « انقاذه » ، ويرتحل في الزمان عبر ذاكرته الى الوراء ، في السجن ، والى الامام في لحظته القائمة ، ويجول بين البشر المختلفين من مثقفي القاهرة بدوافعهم العملية والعاطفية المتضاربة ، الى عمال البناء وسائقي الالات الجبارة ، الى نماذج من الرجال والنساء لغرباء (السوفييت) الى بحارة « صندل » في البحيرة الصناعية الجديدة وركابه ، الى مهندسي الاثار المصريين والاوروبيين .. لكي يكتشف على الدوام غربته الثابتة ، واستحالة التواصل في عالم « يشتغل » فقط دون وعي ، مع انه جاء في البداية حاملا اسئلته عن « بناء الحاضر » عله يستعيد يقينا مفقودا ، لكي يكشف ان مجرد « الشغل » دون وعي ، وفي ظل « الخوف » من نتيجة هذا الشغل ذاته ومغزاه ، ليس الا تأكيدا لاغتراب الانسان عن نتيجة عمله بالذات .

ويرتحل جمال الغيطاني في « الزيني بركات » الى قاهر ، القرن الخامس عشر فيقيم عالما كاملا بأطاره التاريخي من « البصاصين » الجواسيس ، ومن العلماء والمتصوفين والتجار والمغامرين الباحثين عن الرزق ، ثم يرتحل في رواية « الزويل » الى جبال البحر الاحمر الجنوبية المصرية ، لكي يجد البيئة الملائمة لخلق شعب خرافي « ممكن الوجود » من البصاصين ، الجواسيس المتعصبين ، يتسللون ـ ـ ويأتي هو من خلالهم ـ الى عالم القاهرة المعاصرة الذي يستدعيه في ذاكرته وهو اسير في ايديهم ثم يعود لكي يسجنه مباشرة حين يصلون هم اليه ـ يتجول معهم في داخله بين رجال ونساء عاديين ، يدمرون انفسهم بالعجز عن التواصل ، حتى يتم دمارهم على ايدي قوة « الزويل » البصاصين ، الخرافية .

ويرتحل يحيى الطاهر في « الطوق والاسورة » الى قرية مصرية في جنوب الصعيد ، قبل الخمسينات وفي اوائلها ، الى عالم الاطفال المقهورين والكبار الحكماء القساة ، حيث يبدو « الوضع اللاانساني » قدرا خارجيا يتساوى امامه الجميع ، اطفالهم والكبار ، وحيث لا ينتظر الجميع سوى الحزن والموت والجنون أمام أحكام اجتماعية واخلاقية خانقة .

ويرتحل كمال القلش في « صدمة طائر غريب » الى بيروت وتركيا ، ومنهما الى كل اوروبا الوسطى والجنوبية ، حاملا معه مرارته وهزيمته

في الحب والحياة ، يلتقي بكل انسان مرة واحدة فحسب ، يفـرح مؤمنا ويستحلب المرارة طويلا ، ويلتقي بالاصدقاء فيثرثرون كثـيرا ولا يقولون شيئا ، ويعود الى مدينته (القاهرة) في النهاية مثلمـا خرج منها : مثقلا بالمرارة والهزيمة وشيء من القدرة الجديدة على تحملهما كجزء اصيل من حياة فوجيء هو بأنها لم تكن عذراء ظاهـرة كما كان يتوهم .

أما غالب هلسا فلم يغادر القاهرة ابدا سوى الى الاسـكندرية ولكنها مدينة المقتربين الذين اختار كل منهم منفاه الخاص داخلها ، او الذين استمرأوا الظروف التي فرضت عليهم المنفى ، انهـم مرتحلون على الدوام الى عوالمهم الخاصة ، منافيهم ، حيث يعتزلون كل ما هو خارج ذواتهم عزلة يصنعون جدرانها بالكبرياء او الحـزن او الفن او المخدرات ، ويتجول هو بين عالمـه الخاص أو منفاه ، وبين عوالمهم او منافيهم دون امل في ((الاستيطان)) ابـدا . فلا بـد ان يتجسد الوطن في انسان اخر قادر على احتوائك ، ويقبل أيضـا ان يحتوي داخلك ، وهذا هو المستحيل لمن اختار المنفى ((حـالة)) استيطان دائمة ، سواء كان منفاه مكانيا او بالوجدان .

* *

نستطيع ان نتبين القيمة الوجدانية لظاهرة الارتحال المكاني والزماني ـ وهي الظاهرة التي تنعكس بقـوة على جماليات الروايات الست وابنيتها ـ اذا تذكرنا كل ما في روايتي نجيب محفوظ الصادرتين هذا العام : ((قلب الليل)) ، ((حضرة المحترم)) ، من ثبات الامكنة والازمنة ، ونمطية الشخصيات ودلالاتها الاجتماعية المسبقـــة والمحدودة (حتى رغم التضمين الرمزي للمعاني العامة لاسـاطير : الانسان / الرب ، الذكر / الاب ، الانسان / الام الخالقة ، موت الام والطرد من الفردوس ـ في بداية رواية ((قلب الليل)) ، الجـزء الفاتن الوحيد من الرواية) .

لابد ان يكون الانعكاس الاول لهذا الارتحال الدائم في المكـان والزمان هو ((التفكك)) الظاهري للبناء . لم تعد هناك تلك القصة ذات الخط الواحد او الخيوط المجدولة بمنطق يبدأ مكتملا منـذ السطر الاول . ان التفكك الظاهري للعالم حقيقة قائمة لابـد ان تنعكس على المثل الاعلى الذهني والجمالي الذي يجسده الكاتب . ولكن لابد ايضا من اعادة تركيبه اعتمادا على ((ذهن)) القاريء وقدرته المكتسبة من الحياة الجديدة نفسها على اعادة تركيب اجزاء عالـم الحقيقة (وهي المتراكبة اصلا ، ثم تفككها الظاهري) من أجل استخلاص التجربة الشاملة ومعانيها الكلية .

والبناء لا يتفكك ميكانيكيا الى اجزاء متشابهة . فليس هـكذا يتفكك عالم الحقيقة . هناك الجزء الحسي الذي يمكن أن يستوعبه الوصف او السرد او حتى الحوار . وهناك الجزء الانطباعي ، المتجسد ((انفعالا)) شعوريا خالصا ، حتى وأن تكون من خلال مراقبة مشهد طبيعي او منظر لشارع مزدحم تجتاحه رياح مترية . وهناك الجـزء الخيالي (المعتمد على خيال الراوي لا على اوهامه) حيث تدور المناجيات الذاتية او تجري تيارات الوعي او المونولوجات الداخلية ، لـكي تكشف ما يدور داخل عقل الشخصية الفنية فيما يتعلق بالاحداث (الظاهرة او المستترة) لا فيما يتعلق بمجرد ـ المناظر .

ولعل هذا ان يكون السبب في الحضور القوي لـ ((المؤلف)) في كل مرة . قد يكون حاضرا كمؤرخ او باحث (الزيني بركات) ، وقد يكون حاضرا كمشارك في الكشف عن الحقيقة وفي المعاناة من وراء التجربة (الزويل) ، أو كمصور يرسم لوحة هائلة يبتدعهـا ابتداعا رغم انه ينتزعها من قلب الواقع الحي ، ويضع توقيعه في صورة رسم دقيق لذاته بعد ان يستمد ابتداعه من تفاعلـه الشخصي مع حياة الجماعة الانسانية التي يصورها (الطوق والأسورة) ، وقد يكون حاضرا ببساطة ، بوصفه كاتبا لذكرياته الشخصية وتجاربـه وتأملاته الباطنية ويومياته ومسجلا لما يدور في ذهنه (نجمة أغسطس، صدمة طائر غريب ، الخماسيين) .

كما ان السبب نفسه هو ما يدفع الى تلك ((التلقائيـــة)) الخالية من الاحساس بالتدبير المسبق لايجاد العالم الذي تتضمنه كل من الروايات الست . انه عالم جاء الى الوجود طبقا لقوانين خاصة بالوجود نفسه ، ثم تخلقت في داخله قوانين حركته الجديدة . وحتى في روايتي جمال الغيطاني ، حيث يبدو من التعمد القاصـد الى الارتحال في الزمان والمكان ، تكشف ـ وقد وصلت الى هذا العالم ـ ان لا عالم ((في الحقيقة)) سواه ـ بالنسبة الى ما وصلنا اليــه بالفعل ، ثم نعود فنكشف انه عالم يتحرك وفقا لقوانين ((عادية)) تماما بالنسبة لتكوينه الخاص .. فهو ليس عالما ((وهميا)) لا علاقة له بالحقائق التاريخية أو البشرية ، انما هو عالم ((خيالي))فحسب، تجسيد لمثل أعلى ذهني وجمالي قام في ذهـن الفنان ووجدانه ، مستندا الى تجربته الخصبة في الحياة اليومية وفي التاريخ والثقافة . ولا يمكن لبديل هذا العالم ـ هذا المثل الاعلى ذاته ـ ان يوجد ، الا اعتمادا على ((الفعل)) الذي تبذله وتقوم به القوى المعارضـــة له ، والقائمة أيضا في داخله .

ولما كان عالما تلقائى الوجود ، مستقلا بقوانينه كانه ظاهـرة مختلفة ، فانه يشعرنا دائما بأنه ((قائم هناك)) . تبعـده عنا اللغـة المستخدمة للتعبير عنه في تراكيبها وايقاعاتها الخاصة . وهي نفسـها ـ اللغة ـ التي تفتح الطريق الى ادراك قوانينه حتى ((ندخله)) . نشعر ان علينا ان نتحرك اليه ، ان نبذل جهدا خاصا للخروج من مألوفنا ـ عالمنـا الحقيقي المألوف ، بما فيه ادبنا التقليدي الذي تبدو اعماله كامتدادات ناشئة من اضطرابات عالم الحقيقة نفسه ، المهوش ، غير المنطقي ، حتى نتمكن من دخول هذا العالم الجديد .. نتحرك في المستقبل ، ويزداد العالم المألوف ، الماضي ، بعـدا ، فنحصل على النموذج الذي يمكن أن نقيس عليه وان نقارن به عالمنـا المألوف الآخذ في التوازي . وهو النموذج الذي يمكن ايضا أن نستمد بعض المنطق من قانونه النابع من ارادة الابداع الخلاقـة والقـدرة على الفهم .

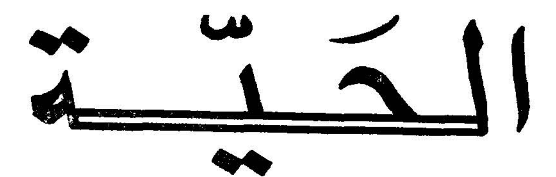
* *

ولا نعتقد ان الاكتشاف الكامل للامح (قوانين !؟) هــذا النموذج ، هذه الحساسية الجديدة ، التى تعبر عنها ما نطمح ان تكون حركة ((روائيـة)) كبيرة ومتصلة ، لا نعتقـد هـذا الاكتشاف ممكنا ، ما لم تتكون ((طبقة)) اخرى على الاقل من الاعمال الروائيـة الجديدة ، وهو ما نتوقعه في الاعوام القادمة (وهناك بالفعل ـ على ما اعلم ـ روايات منتهية او على ـ وشك الانتهاء ـ عند ادوارد الخراط ومحمد البساطي وابراهيم اصلان وجمال الغيطاني وغالب هلسـا وغيرهم) . ان ((الطبقة)) التي تكونها الروايات الست ـ ليست هي الطبقة الاولى ، او على الاقل ان لها جذورا قوية وقديمة ولا بد من اعادة اكتشافها في الادب المصري : هناك روايات : خيوط العنكبوت وابراهيم الكاتب وابراهيم الثاني للمازني ، ويوميات نائب في الارياف لتوفيق الحكيم ، وصح النوم ودماء وطين ليحيى حقي والجبـل والقبي لفتحي غانم ، والسمان والخريف والشحاذ والمرايا لنجيب محفوظ ، واحزان نوح ودم ابن يعقوب لشوقي عبدالحكيم ، وفساد الامكنة لصبري موسى ، وايام الانسان السبعة لعبدالحكيم قاسم، والخوف لعبدالفتاح الجمل ، والاسوار لمحمد جبريل وغيـرها ... ويستطيع الادب العربي المعاصر أن يمدنا بأسانيد كثيرة قوية ، ربما كان بعضها أكثر أثرا وفعالية ..

ورغم هذا ، فان ((طبقة)) اخرى ، جديدة ، سـتكون هي الحاسمة في استقرار هذه التربة ، وخصوبتها الدائمة ، لحقبـة قادمة كاملة .

القاهرة

موسى كريدي



اعتاد ان يدير ظهره لرائحة المكان وضيقه كلمـا فكر بنزهة وقت العصر ، موليا عينيه شطر مفازة واسعة سعة السماء ، تتصل بفراغ ازرق يمتد امتداد اقواس الرمل التي كانت تذوب عند حافة الافق البعيد .. وحين يعود في طريقه الى المكان الذي خرج منه قبل ساعات يرى على يمينه مقبرة قديمة ذات رؤوس وابراج ما زالت تنمو وتنخفض كالسهب ، ويرى في الطرف الاخر تلا افقيا تكون بفعل الريح وانحدر ببطء نحو غور طيني انحسرت عنـه المياه التي كانت تغمره منذ سنوات فأضحى مجرد قاع بلون الحجر الكامد يملأه الدغل والحصى وبضع شجيرات نبتت هنا ، وهناك .. هكذا كانت المدينة منذ الف عام ارضا تغطيها مياه المطر ، وبرك من العوسج والثلج ايام البرد ، وتضم تحت رملها الابيض كأصداف البحر ضريحا ملفتا للنظر ، واضرحة أخرى غير بعيدة تضم ارواح الانبيـاء والاوليـاء والصالحين من البشر .

« لم تعد مدفنا للموتى ولا متكأ للرحيل .. » هجس هـذا في خباله بعدما رأى الناس قد نصبوا فوق تراب المدينة الاثري بيـوتا واكواخـا للسكن ، ومساجـد للصلاة وطلب المغفرة .. وحين طوت خطاه ارض الوادي المقدس ، عثرت بامكنة ومبان لمدارس جديدة .. مدارس للبنين ، وأخرى للبنات .. كانت الاسواق تضج بالزحمـة والضوضاء .. وكان الزائرون يفدون من كل طرف حاملين معهم خرافا منذورة ، وزاد المسافر . ولمح اشرطة خضرا يشدون بها ايدي صغارهم عند عتبة الضريح .. لقد اتخذوا منها مزارا يقصدونـه من مسافات بعيدة ، ولم يبالوا بقطع المسافات مهما بعدت .. انهم يؤمونها حتى لو كلفهم ذلك جرحا او موتا .. وكانوا لهذا يرونها قصية .. وعلى مر الايام صارت المدينة محجة وكعبة .

امتلأ حسه منـذ صباه بطوفان من البكاء ، وشعر ان هـذا الطوفان لم يكن بفـرق ساحـات مدينة (ن) واسواقهـا المجللـة بالسـواد فقط ، بل كان يراه يفيض بهزهزة ورقصـات يصحبها عادة دق متواصل ، ورنين صنجي يجري في الامكنة وفراغاتها .. وفي الردهات ، هنالك ، دم يسيل ، وضباب يرتفع ، وحرائق تشتعل ، وعربة تلو عربة تحمل شمعات كهربية صغيرة .. الخيل وهي تشق الزحام بهودج مرفوع ، وأردية خضر وحمر وسود تلمع تحت لهب الشمع الذي يرقصه صوت نادبة تصرخ او نادم يستغيث عبر اصوات حداء ، وصور تأتي اكثر صخبا لم تكن لترسخ في الحلم فقط ، ولم يكـن

يستعيدها كشيء مر .. انما كان لطقسها لون الدم وثقـل الصيف فوق مسامات جلده الرقيق وشفتيه .. انه يلمحها تتراءى له كلما ابتعد عنها بجسده ، فبقدر ما كان يحاول ان يفصل نفسه عن خطها المتصل بذهنه يشتد تعلقها به حتى لتبدو في عينيه شريطا يزحف ببطء مثـل رمال تتحرك .. وما ان بلغ السابعـة والعشـرين حتى بدت كل حفلات الحداد تلك ، صورا مألوفة مثل تعاقب الليـل والنهـار في قلب مدينته .

لكن ما رآه هذا اليوم كان اكبر .. كان الناس في المدن القريبة يشتلون في كل منعطف شجـرة ، اما في مدينته فان كل قبر يعلـو قامته يراه ينمو كالاثر فلا تكاد تخلو من هذا الاثر البارز للعـين حديقة او باحة أو جامع ، حتى البيوت فانها تضم في احشائهـا اكثر من لحد لميت مات ، او ميت يجيء .. لقد تكاثر الموتى في المدينة .. قال ذلك لنفسه وتساءل مثل الطفل : الا يمكن لهـذا التكاثر ان يشكل خطرا ؟ سيقال ان مدينة (ن) كانت مدفنا .. وستبقى هكذا .. ان هذا يعني ان الموتى يحق لهم ان ينتشروا ويتكاثروا ، وان يغطـوا ارض المدينة بمسحوقهم الاصفر الدقيق ، ويستبيحوا ما تبقى مـن المساحة المتاحة لسكنى الاحياء من الناس ، وما على الاحيـاء الا ان يذعنوا للامر ، ويفسحوا المجـال واسعا لهم وطمعـا بالثواب ..

كان هذا ما يدهم ذهن عامـر سعيـد ويرعبه في الوقت ذاتـه ، ويسبب لـه ارقا دائما .. وكان هذا ما قاده لان يبحث في بطـون الكتب العلميـة والطبية يستقرئها ويجمع منها المعلومات الوافيـة التي تخص انحلال الجسد ، وتفسخ الجثث الرميمة . كان يـرى ان مزاحمة الموتى للاحياء ستكون كارثـة العصر وستكون سببـا في اصابة وقتل عدد كبير من الطرف الثاني . كان عامر يدون كل هـذه المعلومات في دفتر ملحوظاته الصغير .. وكان يرى المدينـة تفتـح فمها لالتقاط مزيد من التوابيت .

حين التقى بزملائه في الصباح حاول ان يذيع بعضا من اسراره ، غير انه لم يفعل اي شيء ، فما زال بعضهم يتوجس كلما سمع منـه شيئا يمس عالم الاموات ، فانصرف الى تحضير ما يحتاجـه وفكر في تلاميذه الصغار .. وقبل ان يقرع الجرس في الساحة ويدخل الطلاب الى صفوفهم سلمـه مدير مدرسته طلبا سرعان ما التقطـه بيدين مرتعشتين وارتسم القلق على وجهه بعدما فرغ من قراءته .. وقبـل ان يلفه الفصل وبظلل اهدابه غبار الطباشير ، فهم انه مكلف باعداد

محاضرة يلقيها بنفسه في محفل كبير .. وخالط فهمـه شعور غامض ولم يستقر على رأي ، فقد كان ذهنه مشوشا . وبعد ان دخـل الصف حيا كعادته تلاميذه بابتسامة صغيرة ثم شرع في البرهة التالية بنقل بصره بين الكتاب المفتـوح والسبورة ولم يستطع ان يستمر في هذا ، فقد انحصر تفكيره في ضرورة ان يجد عذرا مقبولا لعدم تمكنـه من تلبية ما طلب منه لا سيما وان لديه شيئا لو جاهر به لجلب لـه سوء العاقبة .

كانت الشمس تتسلل عبر زجاج النوافذ ، وكان يقف بطوله في حاجز الظل ، غير انه القى كتلة من الضوء الساطع تلتصق بجـدار انتصب خلال وجهه تماما ، وما لبث قليلا حتى احاطت تجويف عينيه هالة من سائل اسود غمرت الزجاج والنافذة التي استند اليها بمرفقه وغمرت ابتسامات الصغار وتحولت حجرة الدرس في رأسه الى قاعـة واسعة .. رأى القاعة تزدحم بعيون تنفتح باتجاهه فقط . تدنـو منه على وسعها ، تزحف كالسرطان فتجس جفاف شفتيه وحبـات العرق التي التمت على جانبي صدغيه خلال شعره المتطامن بعـدما عبرت غور التجاعيد المحفور في وجهـه ورآها تثقب جمجمته بنفير الغضب وكان الغضب يوقد بداخل ردهة من الفـراغ وفوق الرؤوس المتجمعة مثـل شموع سيارة حملت وسط عربات من الدم .. واذ تضطرب الحنجرة ، وتموج اصوات الاستنكار بدرجة اعلى من الحمى ، ينفرط ورق المحاضرة المكتوب ، ويتكسر تحت السنابك ، ويضيع خلال الحمحمة والصهيل ، وليس بمقدور اكبر قوة في العالم ان توقف هذا المد . فالاصابع تستطيل وتكتظ ولن تفري سوى لحم الوجه والاسنان تصل وتتحفز ، ويختض الجسد خضة او خضتين وتموت الضجة ، وبهذا الدم بعدما ينفصل الرأس عـن الجسد ، وحينذاك فقط ، تعود القاعة كما كانت ، هادئة كالهواء المحبوس جدرانها .

على صوت قرع الجرس في فناء المدرسة الواسع انفلقت الغشاوة في عينيه كالغيمة ، وسمع عامر سعيد أصوات تلاميذه المبتلة بالفـرح تملأ السـاحة وترحل نحـو الضوء البعيد . وقبل ان يصل عتبـة الغرفة المعبأة برائحة التبغ والانفاس الرطبة مد راحتيه فلمس فروة رأسه وحكها باصابعه وتأكد ان رأسه مازال في مكانه .

انهى حصته الاخيرة . وخرج . خطا ببطء ، ورفع رأسه فرأى من بعيد قبة مهيبة تلمع عليها انعكاسات الشمس وظهرت قبالتهـا سـاعة المدينـة بلونها الداكن وشكلهـا الكنسي ، كمـا ظهرت منارتان شاهقتان نحو السماء ، مكسوتان بالذهب ، وتذكر عش اللقالق فوق احدى المنارتين ، وكانت الاخرى قريبة من سطح داره يكاد يراها كل يوم ويسمع عبرها في هدأة المساء الآذان والترتيل ومناجاة ما بعـد منتصف الليل ، وتذكر الشيخ المؤذن : عمة بيضاء ، ووجها صغيرا مكسوا بالشعر الابيض كالزغب وتـذكر صـوته الاجش وسمع دقات السـاعة تعلن وقت العصر وكان لرنينها في نفسه ذكرى بعيدة .. كان يطأ بقدميه سـطحا من الرمل . وكانت الريح تمر هادئة ومـا ان اجتاز منفسح الرمل الممتد نحـو طرف الصحراء وشاهد جمالا في قافلة تسير من بعيد حتى انعطف نحو شارة المحطة الاخيرة لسيارات الركاب العائدة نحو المدينة . انتظر تحت الشارة الموهـة الارقام خمس دقائق فلم يلمح أي اثر لسيارة قادمة . وما ان دار الارقام خمس دقائق فلم يلمح اي اثر لسيارة قادمة . ومـا ان ادار للمحطة ظهره حتى درجت خطاه في حي سكني جديد ، كان الحي ذا شريطين لبيوت حديثة الطرز تحوطها الاشجار واعمدة النـور ويتوسطها شارعان مبلطان بينهما طريق موطوء بالعشب والحصى . فكر في مبنى البهو وماذا يمكن ان يحدث من لغط وضجيج ساعة يلقي كلاما لـم يألفه الناس هنا .. ولا يمكن ان يألفـوه مـا دام الموتى يقاسمونهم الملح والماء ، وما دام الزمن يبطيء سيره في دائرة الحجر الذي يمتـد امتداد الصحراء . واعتصرته الرهبة حين تراءت له زحمة الحشد ، وهتاف الحناجر . ورأى بعيون الاخرين نظـرات بحجم سنابك الخيل . رآها تفص غضبا تسوط اذنيـه وتقطف لحـم الوجه .. واذ ترتفع الحمى وتنطفىء انوار القاعة ، يتداعى الجسد مثل تداعي اوراق المحاضرة وينزل ، بعدها ، ضيفا على الاموات ثقيل الظل . كان هذا ما ازحم عقله مرة أخـرى ولم يتريث ليرى انـه قـد اخطأ الظـن . فمـا ان عبر شـارعا اخر في الحارة ذاتها حتى لمعت في ذهنـه صورة اخرى : القاعـة مفتوحة مثل عيون الناس وهي ترسل نحـو صدر المسرح المفتوح نظرات رقيقة .. الناس مجتمعون ، وآذانهم تصغي باهتمام .. الجمهور يصغي ويفكـر ويناقش مؤملا ان يسمع ما لـم يسمعه ، مخفيا ضجته في سـره ، متلمسا في ظـلام نفسه رؤوسـا بلون الحجر . اذن فهؤلاء هم الموتى ، يزحفون ببطء نحوه يغطونه بعريهم وقاماتهم ويصبغونه بالرائحـة فلابد أن يرفض اذ كيف ينام الطفل في سريره مطمئنا ؟ الجمهور يقترب من وجهة ، ويقبله في الوجنتين .

اقتنع عامر سعيد بفكرته فهدأت روحه ، واطمان الى ان كل شيء سيجري مثل ما يريد . ومـا ان حل اليوم الثاني حتى وجـد نفسه في غرفته المكتظة بالصمت والرطوبة والكتب . كان وحده . وكان الهـدوء يلفها . لقد تم كل شـيء : أعد مسودتـه ووضعها امام عينيه .. قلب الصفحات كلها ثم اعاد ترتيبها واعاد النظر في ترقيمها وتأكـد من ثبت المراجـع وصحح ما كـان من اشارات ، ثم قرأ ما سود بصوت عال وركز في مقطع دون آخر ، وتوقف عند فاصل الموت فالفاه ذا وقع مثير . وفرح لانجازه هذا فرحـا انساه عادات المدينة فاخذ يدندن ، بينما راحت خطواته تذرع الغرفة المضاءة بنور بدأ شديد السطوع . جلس وراء منضدته الخشب مطلا برأسه عبر النافذة نحـو الزقاق المجاور فلم ير احدا من المارة . وفكر انـه لم يضع عنوانا . وظل حائرا برهة من الزمن ووجد الاختيار صعبا ، غير انه اهتدى في اللحظة الاخيرة فخط في صدر الصفحة الاولى « اقتلوا بكتيريا الموت قبل ان تقتلكم » وتوقف وهو يردد نظره عند كلمة «اقتلوا» ووجد ان بينه وبينها عداء قديما نشأ معه منذ طفولتـه . كانت كلمـة « اقتلوا » مرعبة حقا ، لكنه لـم يجد مفرا من اثباتها . لقـد تم كل شيء .. حسنا .. قال لنفسه ذلك ونهض وارتدى ملابسه وحدق في المرآة فرأى السمـرة ذاتها وقـد نز عنها ذلك الشحـوب المائل للصفـرة وظهرت غضـون في وجهه ، وهالتان زرقاوان فيمـا حـول عينيه الصغيرتين اللتين اختفتا خلف زجاج نظارتيه المعتم .. ورغم ما يبدو من وهن ظاهر خلال هيكله النحيف ، فانه شعر تلك اللحظة بحركـة تسري في عروقه وتمنحه قوة لـم يشـعر بهـا من قبل . هبط السلم نحـو الخارج ، هبط خفيفا ، ودار في الازقة وخشي الا يجد رئيس المنتدى في داره ولم تمض الا دقائق حتى قابله في الطريـق وابلغه بموافقته على القاء المحاضرة في يومها المحدد . وعاد مغتبطا ، وظل ينتظر اليوم الموعـود .

كان الوقت ضحى ، وكان اليوم يوم جمعة . اعتاد عامر سعيد ان يتأخر في نومـه ايام العطلة . مد رأسه من شباك غرفته فـرأى الشمس تتسلل من خصائص الباب الى الغرفتين الصغيرتين الواقعتين اسفل غرفة نومه التي بدت حجرة من الخشب العـائم معلقـة على طرف شرفة مائلة تسندها من تحت بضعة اعواد تقوست بفعل الضغط ، وتشقق بعضهـا وتدلى البعض الاخر ورأى السماء زرقاء ، وخرج الصحو وهو ينتشر عبر الحدائق الصغيرة والقباب الزرق وسـطوح المنازل في الجهة الاخرى . وسمع دقات السـاعة وكان لدقاتها رنين احسه يختلف عمـا كان عليه في الايام الماضية وتمنى لو يقتـرب موعـد الافتتاح .. عما قريب تفتتح القاعة ويتم اللقاء بالناس جميعا . فكـر بهم وتمنى لو كان الناس كلهم بهم . طلب من اهله ان يسخنوا له الماء ، ويعدوا طعامـا وراقب اهله همته ، وتوتر يديه فلم يسألوه شيئا ولم يأملوا منه أن يقول شيئا . فقد اعتاد عامر الا يخبر ايا من افراد عائلتـه بمـا يفعل أو يعد من مشاريع ، حتىسفراته القليلة كان لا يعلن عنها لهم الا في اللحظة الاخيرة .. بعـد ان استحم

واكل حتى شبع هم الى ملابسه واعتنى بارتدائها والفى نفسه انيقا يلوح عليه مظهر من يعد نفسه لان يكون محاضرا او خطيبا . نظف زجاج نظارتيه بورق السجائر والتقط اوراق محاضرته ووضعها في محفظته السوداء بعد ان دس فيها كتابا او كتابين وبضع اوراق بيض وقلما . اغلق محفظته وتابطها ومضى .

كان الوقت عصرا والشمس دافئة ، داهمه لاول مرة وهو يخترق الطريق احساس من يطأ دروبا ملتوية تستدير به وتقوده الى منعطفات قليلة النور لبقايا مبان اثرية . احتمى بضوء الشمس ، وشم من كومة حجار عثر بها رائحة مسحوق العظام . كان مسرعا ، وفجاة ابطأ السير . انتبه الى الصمت الذي يكاد يلفه بريحه الباردة، وعجب لفراغ المحلة من حركة المارة وزعيق الاطفال ، وعراك الامهات في مثل هذا الوقت ، ولم يفهم شيئا حيث كان ذهنه تلك اللحظة منحصرا في بهو القاعة ، مشدودا الى الناس وهم يحيطون كل جزء منه بنظراتهم . ورأى من بعيد عجوزا ترمي على الارض ماء قذرا واراد ان يسالها عن سبب غياب الناس في هذا الوقت بالذات فلم يستطع اذ سرعان ما اختفت المرأة المسنة عبر هوة صغيرة انحرفت نحو الارض التي خرجت منها ولا يكاد باب بيتها يرى لانحداره الشديد وانكسار عتبته عن مستوى السطح المبلط بنثير من الحصى الاسود .

اوشك ان يصل . ها هو مدخل القاعة . الاضواء مطفأة من الخارج ، والشبابيك موصدة ، الباب نصف مغلق ، وتكور لصق الباب ، على كرسي متهالك ، رجل نحيف . كان يطوف بعينيه الصغيرتين ارجاء الفراغ المحيط بالقاعة . كان البواب يدير ظهره للشارع والساعة قد تجاوزت الخامسة قليلا وهو موعد الافتتاح .

حين اقترب ناحية الباب اكثر ، فتحه ، وتطلع نحو الداخل . وهاله الصمت ، وانعكاس الضوء المنبعث من مصباح كان معلقا . بدا الضوء مطلا على ستارة المسرح المسدلة منعكسا فوق الكراسي التي صفت في الفراغ واتجه الى البواب فرأى عينيه شبه مطبقتين على اهداب بيض ويديه مشغولتين بطقطقة كانت تصدر من حبات مسبحة طويلة .

ـ قل لي من فضلك متى يبدأ الافتتاح ؟

لم يقل البواب شيئا . ظل وجهه مغلقا على سر وظلت اصابعه منشغلة بحبات المسبحة ، واحس عامر بالاهانة وخجل وقال لنفسه : لا بد ان الناس قد ذهبوا لتشييع جنازة .. وتساءل بغيظ لمن تكون هذه الجنازة ؟ لا بد ان علما من اعلام المدينة قد مات اليوم .. لم يستقر . بدأ اول الامر متوترا ، لكنه ما لبث ان هدأ وغير من لهجتهحتى بدت هادئة :

ـ ايها العم قل لي ما الذي حدث بالضبط ؟

انفرجت عن شفتي البواب النحيف ابتسامة صغيرة واختفت صرامته من وجهه وقال :

ـ ألم تسمع ؟ ألم تر ؟ اين كنت تنام ؟

ـ لا .. لم اسمع .. ما الامر ؟

ـ الحية ..!

ـ اية حية ؟

ـ لقد ظهرت الحية .. الم تسمع بظهورها ؟

انتاب عامر سعيد في اللحظة ، فزع ممزوج بشعور غامض ... ضغط بيديه على جلد محفظته السوداء ، وتابطها ثانية .. ومضى .

* * *

تلال من البشر تسد المنافذ برؤوسها واكتافها وقد تداخل بينها نور رمادي انتشر في سماء المكان عبر ابتهالات تطوحت في الهواء ، ورن لها صدى جماعي كان يصعق نحو السماء كالنشيد ويتكسر قبل ان يدخل جوف الغرف التي لا يدخلها الضوء . وكان بين البرهة والاخرى يهمد فتحل في الاذان غمغمات كتيمة . وكان عامر يرهز بمرفقيه الزحمة ليترك مجالا لرأسه ، فقد ضاعت يداه خلال الدفع والجذب كما ضاعت محفظته . وكادت رقبته تلتوي على نفسها ، غير انه الفى رأسه يستقيم مشرئبا خلال الاعناق والضوء المختلط واستطاع ان يتلمس براحتيه مقدم جبهته بعد ان رفعهما ولكن بلا محفظة ، ومسح بضع قطرات من عرقه ودهش لاحتفاظ عينيه بنظارته . واذ رفع وجهه الخالي من الدم نحو السماء لمح الحية تتلوى لاول وهلة فاعترته هزة غامضة وصوب نظراته ثانية باتجاه الحية فرآها حمراء بلون الدم .. كانت الشمس تختفي ببطء .. كانت تزحف تاركة لطخة من الضوء الاحمر في الاعالي . كان نصف جسد القبة المخروطي في الضوء الذي بدا بعد لحظات بنفسجيا . ولحظ جسد الحية لينا ، يتموج ويتحرك حركة تتوافق مع الاصوات ، وحركة الدفع خلال الشد والارتخاء . حين خفض بصره داهمته رغبة في البكاء . اراد ان يكلم شخصا او اكثر فوجد انه افتقد حاسة النطق ثم رأى العيون كلها تشخص وتكتحل بالضراعة . رفع رأسه ثالثة باتجاه مركز الحية. وركز كل نظراته محاولا ان يعثر على جمجمة الحية فلم يلمح اي رأس لها . وحدس ان ما يراه الناس المحتشدون ، هنا ، انما هو شبح لرأس ..

احتفظ عامر بخياله وخشي ان يتسرب نحو الجموع ، وزايله دوار خفيف . طافت عيناه خارج اطار الزحمة فتذكر القاعة المهجورة والبواب الراكز عند اسفلها وسمع صوت حبات مسبحته السوداء وتذكر اوراق محاضرته وشم رائحة تفسخ الجثة ورائحة مسحوق اصفر . وانفتحت عيناه على وسعهما خلال الصخب واستطاع ان يحمي جسده ويصمد ازاء لطمات المد التي ارجحته وكادت تضرب به الارض . لم كل شجاعته وتحرك وهو يدفع بمنكبيه مئات الاذرع والرؤوس وانسل من الزحمة نحو الشارع .. اراد ان يستعيد انفاسه فدخل اقرب مقهى ولم يجد سوى بضعة اشخاص .. جلس وحيدا يداري اضطرابه وكان على مقربة منه شخصان احدهما رجل مسن والاخر اصفر سنا . ولحظ هدوءا غير متوقع ولم يلحظ اي اهتمام داخل المقهى لما يجري في الخارج سوى ما كان من همس يجترحالصمت بين لحظة واخرى ، وخمن ان هذين الرجلين القريبين من طاولته كانا يتحدثان بصوت خفيض عن الحية . كان عامر يحتسي الشاي متمهلا ، هادئا .. تذكر محفظة اضاعها ، وحية بلا رأس .. احتفظ بخياله لنفسه ثانية وخشي ان يتسرب . كان يسترق السمع وكان صوت الرجلين يقترب من اذنيه واضحا .

قال الرجل المسن : لقد ظهر مثل هذا قبل عشرين عاما ..

فسأله الثاني : أكانت هذه الحية نفسها ؟

ضحك الرجل المسن وهز رأسه وقال :

ـ اية حية ؟

فدهش الثاني وعقد ما بين حاجبيه وقال :

ـ اتعني انها ليست حية ، فماذا تكون اذن ؟

فقال الرجل بصوت مطمئن :

« هذا الذي تراه ، ويراه الناس .. ما هو بحية ، انما هو ذيل مقطوع وليس شيئا آخر .. ولكي تفهم الحقيقة ، اقول لك ان هذا الذيل ليس لحصان ولا لقط .. انه ذيل لطيارة من ورق ليس اكثر . لقد رأيت هذا بنفسي .. رأيته حين صعدنا ، بعد الضجة ، وازحنا ما علق وما يمكن ان تتركه الريح عادة .. والآن افهمت ماذا تكون ؟

قال صاحب الرجل المسن « عجيب »

فقال الرجل : لا تعجب .

نهض عامر سعيد متأملا عيني الرجل المسن وتورد وجنتيه عائدا الى بيته .. وفي الطريق تذكر يوما لن ينساه ومحفظة اضاعها في الزحام .

بغداد

مؤتمر قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي

بدعوة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت ، عقد في الكويت ، من ٢٨ الى ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٥ ، مؤتمر « قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي » الذي شارك فيه اتحاد خريجي الجامعات الامريكيين العرب واعضاء من الجامعات العربية والشخصيات العربية .

وفي بدء المؤتمر اشار الاستاذ احمد العدواني الامين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الى ان غاية المؤتمر « اثارة انتباه الامة العربية الى ان لنا في مختلف دول العالم المتقدمة علماء اكفاء من الاساتذة الافذاذ في شتى ميادين العلم والمعرفة ومناشط الثقافة المعاصرة . ولكن مجهودانهم وخبراتهم في هذه المجالات قلما تستفيد منها امتنا العربية التي تتطلع بشوق الى المشاركة الايجابية في اثراء حضارة العصر الحديث . وما عقد هذا المؤتمر الذي جاء ثمرة تعاون بين اتحاد خريجي الجامعات الامريكيين العرب والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الا بداية لهذه المشاركة الايجابية من جانب جميع العلماء العرب اينما كانوا في تطوير وطنهم العربي » .

وبعد ان اعلن ان ولي العهد رئيس مجلس الوزراء قد وضع هذا المؤتمر تحت رعايته ، قدم الاستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ورئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ليفتتح المؤتمر .

ومما قاله الاستاذ عبدالعزيز حسين في كلمة الافتتاح :

« لعله قدر الامة العربية ان يدخل الربع الاخير من القرن العشرين ، وهي تخوض معركة متعددة الجوانب والابعاد ، مع الصهيونية والامبريالية العالمية ، ومع التخلف الحضاري ، ويبدو ان مرور الايام يزيد من ضراوة هذه المعركة ، فتحديات العصر تزداد حجما ونوعا وكما والحاحا ، واذا كان من متطلبات البقاء ، كما يقو ل فلاسفة التاريخ ، ان تأتي الاستجابة معادلة للتحدي ، فان مسئولية الانسان العربي اليوم اكبر منها في اي وقت مضى ، وهي مسئوليته اينما كان . وكما ان تحقيق النصر في المعركة يتطلب حشد جميع الطاقات واستخدام افضل الاسلحة فان معركتنا مع التخلف الحضاري تتطلب تنمية جميع مواردنا البشرية واستثمارها على افضل وجه .

لقد عرف احد كبار الاقتصاديين العالميين المجتمع النامي بانه البلد الذي تنقصه المهارات الفنية التي لا تلزم لخدمة هذا البلد في مستواه الحالي من التنمية فحسب ، وانما للاسراع ايضا في تنميته . ومن ثم كان من المتطلبات العاجلة بالنسبة للبلدان النامية تنمية كوادرها من الفنيين المهرة ، ومنذ الستينات كثر الحديث عن تنمية الموارد البشرية وعن الاستثمار في التعليم على اعتبار انه لا يمكن تحقيق مشاريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية الا بتهيئة واعداد الكوادر الفنية اللازمة لها ، وعلى اعتبار ان رأس المال الحقيقي هو الكفاءات العلمية والتقنية ، وجرت في الوطن العربي محاولات كثيرة ومكثفة لاعداد هذه الكفاءات ، فكان تنويع التعليم وزيادة عدد المعاهد العليا والجامعات ، وتحقيق انجاز كبير في هذا المجال ولكن ما زال دون المستوى المطلوب لتحقيق التنمية الكاملة .

ويمكن ان نجد سببين رئيسيين لهذا التقصير عن الوصول الى ما ينبغي ان نصل اليه : السبب الاول هو ان هذه المعاهد والجامعات رغم تعددها وكثرتها ما زالت اقل من ان تفي بحاجات التنمية الشاملة لهذا المجتمع .

والسبب الثاني وهو الذي حدا بنا الى التفكير في عقد هذا المؤتمر ، هو تسرب او نزيف او هجرة العقول العربية الى البلدان المتطورة ولا سيما الولايات المتحدة وكندا ، ولعل مراجعة سريعة لما ينشر من ارقام عن هجرة العقول العربية الى خارج الوطن العربي تكشف لنا عن خطورة المشكلة وضخامتها ، واذا كانت بعض البلدان المتقدمة تشكو من هجرة بعض علمائها الى بلدان متقدمة اكثر بحبوحة في العيش منها ، كما هو الحال في هجرة بعض العلماء من بريطانيا الى الولايات المتحدة وتعتبر ان هجرة الكفاءات كما جاء على لسان احد الوزراء البريطانيين لم يكن فقط اهم بنود ميزان مدفوعات البلد وانما قد تؤدي هذه الهجرة ايضا الى بقاء الحقول في الهند وافريقيا غير مزروعة لكي تتمكن امريكا من انزال انسان على سطح القمر ـ نقول اذا كانت هذه هي حالة بعض البلدان المتقدمة من هجرة بعض الكفاءات منها ، رغم كثرة هذه الكفاءات فيها ، فكيف تكون حالنا ونحن احوج ما نكون الى كفاءات ابنائنا ؟ كما ان هذه الكفاءات والعقول مطالبة بان تدرك ادراكا افضل جذورها الاجتماعية والوطنية والتزامها نحو وطنها وامتها .

ان الاساليب التي تتبع في تهجير هذه الكفاءات او في استبقائها في الغرب تشير الى ان هناك سياسة مدروسة وراء ذلك للابقاء على وطننا ضعيفا أمام اعدائه ، الصهيونية والامبريالية والتخلف ، والا فما معنى هذه التسهيلات في منح تأشيرات الهجرة لهذه الكفاءات حتى ان نسبة الطلاب العرب الذين يحملون مثل هذه التأشيرات تفوق نسبة مجموع الطلاب الاجانب الاخرين بقليل كما جاء في تقرير نشرة معهد التربية الدولية في نيويورك ؟

وانتهى الاستاذ عبدالعزيز حسين الى القول :

« اننا نلمس اليوم الوعي المتزايد في الوطن العربي لاهمية استعادة الكفاءات العربية من المهجر بما يؤلف من كتب وما يكتب من مقالات وابحاث وما يعقد من ندوات ومؤتمرات وما يتخذ من اجراءات وقرارات سياسية حول هذا الموضوع » .

وقد استأذنت « الآداب » المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب لنشر بعض ابحاث هذا المؤتمر الهام ، وهي التي يجدها القارىء في ملف خاص في الصفحات التالية من هذا العدد .

د. سعدالدين ابراهيم

تأثير العوامل الهيكلية والمؤسسية على التكيف المهني لعناصر الطاقة البشرية

مقدمـــة

تتناول هذه الدراسة تأثير العوامل الهيكلية البنائية على تكيف الطاقـة البشريـة عاليـة المستوى في مجال العمل . ويلزم بدايـــة تحديـد المقصود بكل مصطلح في عنوان الدراسة ــ علمـا بان هـــذا التحديد يتم بواسطة الكاتب لاغراض هذه الورقـة فقط ، وتمليـــه اعتبارات برجماطية عملية في المقام الاول .

ــ العوامل الهيكلية : حينما يستخدم مصطلح الهيكل (او البنية او البناء) في العلوم الاجتماعية فيقصد به عادة نمط العلاقات الثابتة نســبيا في أي جانب من جوانب الحياة الاجتماعيـــة ، سواء كان ثبات العلاقات في هذا النمط مقننا بشكل رسمي او متعارفـا عليـه بشكل غير رسمي . ومن هذا التعريف العام يمكـن الحديث مثلا عن الهيكل الاقتصادي او الهيكل السياسي او الهيكل الاسري او الهيكل التعليمي على أي مستوى من مستويات مجتمع معين . كمـا يمكـن الحديث عن الهيكل الاجتماعي العام لهذا المجتمع كنتاج كلي لهذه الهياكل الجزئية مجتمعة . وفي كل الحالات يكـون المقصود هو نفس الشــيء ــ أي نمط العلاقات الثابتة نســبيا بـين مجموعة متداخلة من المراكـــز والادوار الاجتماعية بقصد اداء وظيفة او وظائف معينة .

ــ التكيف : يقصد بهذا المصطلح درجـة الكفاءة والانســجام والرضى التي يتمتع بهـا الفرد الذي يشغل مركزا معينا في احـــد الهياكل او المؤسسات الاجتماعية القائمة ، او في المجتمع ككل (اي الهيكـل العـــام) .

ــ الطاقة البشريـــة العالية : نقتصـــر في استخدامنا لهـــذا المصطلح هنـا على اولئك الاشخاص الذين حصلوا على درجات جامعية (أي البكالوريوس والماجستير والدكتوراه) وبالتالـي يصـدق عليهم وصف « المهنيين » وهو ما كلفني المؤتمر بتناوله في هذه الورقة .

ولما كان موضوع العوامل الهيكلية على تكيف هؤلاء المهنيـين في مجال عملهم واســعا شاسعـا ، ويحتاج في تحليله الـى ورقـات ومجلدات ، فلا بد ان اقدم تبريرا لتناوله هنا في صفحات محدودات . ويدخل في هذا التبرير ان الموضوعات العديدة التي ناقشها الاوراق المختلفـة في هذا المؤتمر تفطي الكثير مما يعتبر عادة عوامل هيكلية ذات تأثير مباشر او غير مباشر على اعداد وتدريب وانتاج وتدفق وتوزيـع الطاقـة البشريـة في العالم العربي . كذلك فـأن هذا الموضوع قـد طرق في السنوات الاخيرة بأشكال وتحت اسماء مختلفة . والجـديد في هذه الورقة ــ ان كان فيها جديد ــ هـو النظـرة السوسيولوجية التي توخيناها في تحليل بعض جوانب الموضوع .

تحديد مشكلـة البحـث

ان ضخامة ما كتب ويكتب عـن الطاقة البشريـة عمـــوما ، والعاليـة منها بوجه خاص ، قد تزايـد بشكل فلكي منـذ منتصف الستينات . ولعل احد الاسباب الرئيسية لذلك هو الاحباطاتالعميقة، والتي واجهتهـا دول العالم الثالث على وجه الخصوص ، في عمليات التنمية الاقتصادية الاجتماعية . فبعـد ان استبشر خبراء التنميـــة وقادة هذه الدول بان الخمسينات من هذا القرن كانت تمثـل عقـد « الاستقلال الوطني » وتصفيـة الاستعمار ، فقد ذهبـوا الى ان عقد الستينات. ولعل احد الاسباب الرئيسية لذلك هو الاحباطات العميقة، وتحولها من الهياكل التقليدية « المتخلفة » الى هياكل اجتماعيـــة « حديثة » ومتطورة . وانصرف مجهود القادة والخبراء والمخططـــين الى تهيئة الظروف المادية والتكنولوجية والمالية لتحقيق هذا الانطلاق. وتسابق المنظرون في نهايـة الخمسينات وبداية السنينات لصياغـة النماذج والمراحل والخطط ، لتحقيق هـذه الاهـداف التنمويـــة الطموحة(1) .

---

(1) انظر على سبيل المثال :

S. Kurznets, W. Moore, and J. Spengler (eds) Economic Growth: Brazil, India, and Japan, Durham:

Duke University Press, 1955 — W.W. Rostow:

Stage of Economic Growth, A Non Communist Manifesto, Cambridge: Cambridge University Press, 1959.

Bert Hoselitz: Sociological Factors in Economic Developmen. Calencoe: The Free Press, 1960.

ولكن مع السنوات الاخيرة من عقد التنمية المذكور (أي اواخر الستينات) واوائل السبعينات كان يتضح بتدريج متصاعد ان معظم النماذج ناقصة او خاطئة ، ومعظم المراحل تصطدم بطرق مسدودة ، ومعظم الخطط لا تحقق من اهدافها المعلنة غير القليل - وان حققت حتى معظم اهدافها فأن التنمية الفعلية لا تتحقق .

وكان من الطبيعي - مع اتضاح حقائق الفشل والاحباط - ان يتجه المهتمون بقضية التنمية بالعديد من الاسئلة لانفسهم ولاصحاب النماذج والمراحل والخطط . وفي خضم المراجعات التي حدثت وتحدث ، برزت عدة اجتهادات لتوصيف اسباب الفشل . ومن هذه التوصيفات ان العامل البشري لم يعط حق قدره في معظم النماذج والمراحل والخطط ، وان « الانسان » هو محور عملية التنمية - هو بدايتها ووسيلتها وغايتها . وأن الاعتبارات الاخرى ، مثل تراكم الرأسمال والاستثمار والتكنولوجيا ومعدلات التصنيع والتحديث ، على ما لها من اهمية ، ليست هي الاساس الاول في عملية التنمية .

ومن الاجتهادات الاخرى ، التي نعتقد بصوابها تماما ، ان معظم النماذج والمراحل التي تمت صياغتها في الخمسينات واوائل الستينات نظرت لعملية التنمية في اطارات قومية مقفلة ، رغم انها في الحقيقة جزء جدلي لا ينفصل عن بقية معاملات النظام الدولي ، فتخلف مجتمعات العالم الثالث في الماضي وفي الحاضر لا يمكن فصلها عضويا عن تقدم مجتمعات العالمين الاول والثاني - أي ان هناك تفاضلا وتكاملا في عملية التنمية(٢) .

وفي رأينا ان الاجتهادين المذكورين مرتبطان . ولا ادل على احد مظاهر ارتباطهما من مشكلة تسرب الكفاءات من الدول النامية الى الدول المتقدمة(٣) ، واستمرار الغزو الحضاري من الدول المتقدمة والتبعية الثقافية بين معظم متعلمي الدول النامية .

وموضوع هذه الورقة يركز على العامل البشري ودوره في انجاح او تعويق او افشال عملية التنمية ، وكيف ان اداء هذا الدور نفسه يتوقف على متغيرات بنيوية هيكلية في اقطار المجتمع العربي .

فاذا كان العامل الانساني يعد القوة الانتاجية الاساسية ، فأن اعداد الافراد للقيام بهذا العمل وزيادة كفاءتهم الانتاجية ، عن طريق عمليات التعليم والتدريب ، تعني زيادة في طاقات المجتمع ، وبالتالي ينتظر منها عائد - شأنها في ذلك شأن أي استثمار اخر .
وفعلا ، دلت البحوث التي اجريت في هذا المجال ، على ان عائد الاستثمارات المخصصة للتعليم ، يفوق عائد الانواع الاخرى من الاستثمارات . ولهذا اصبح المفهوم السائد للتربية في العصر الحديث، انها مسئولية اجتماعية ، واداء للانتاج وعنصر جوهري من عناصر التربية . وقد ضاعف من صدق هذه المقولة ظهور التكنولوجيا الحديثة وانتشار الالية التي ادت الى ظهور الحاجة الشديدة ، لا الى العمل اليدوي في صورته البدائية او الصناعية الميكانيكية ، بل الى البحث العلمي والطاقة البشرية المدربة تدريبا عاليا(٤) .

ولكن صدق هذه المقولة عن قوة عائد الاستثمار التربوي التعليمي هي مجرد « امكانية » لا تتحقق بالضرورة الى « واقع » في كل الحالات . وتحولها الى واقع مرهون بعدم اهدارها او تسربها او بكلمات اخرى فأن عائد الاستثمار في تدريب وتعليم الطاقة البشرية عموما ، والعالية منها على وجه الخصوص يتوقف على مدى الاستفادة منها استفادة قصوى .

ان اهدار او تسرب الطاقة البشرية هما وجهان لنفس الظاهرة . فاذا كان التسرب الذي يتخذ صورة هجرة الادمغة والكفاءات الى الخارج يعتبر خسارة فادحة ومحسوسة يمكن قياسها حجما وتكلفة ، فأن الاهدار يتخذ صورة عدم او قلة انتاجية هذه الكفاءات رغم تواجدها داخل المجتمع . والاهدار بهذا المعنى لا يقل عن التسرب من حيث فداحة الخسارة المجتمعية ، وان كان يصعب قياسها كما في كل الاحوال .(٥) ولان العوامل البنائية التي تسبب هجرة الكفاءات هي نفسها تقريبا التي تسبب الاهدار ، فأننا نقول انها ظاهرة واحدة او وجهان مختلفان لنفس الظاهرة . وهذه بدورها هي انعكاس لواقع اجتماعي اقتصادي - دولي معين في حقبة تاريخية معينة من حياة مجتمعنا العربي (والعالم الثالث عموما) .

الواقع الاجتماعي الذي نعنيه هو مجموعة المؤسسات والتركيبات والعلاقات الاجتماعية السائدة في اقطار المجتمع العربي في هذه الحقبة من القرن العشرين . وهو مجتمع تشترك كل اقطاره في وجود تراث استعماري غربي ، لم تتحرر منه سياسيا الا ابتداء من منتصف هذا القرن ، ولم تتحرر منه اقتصاديا وثقافيا بعد . وهو مجتمع تتفاوت اقطاره في قدم وطريقة نشأة مؤسساته النظامية المركبة في مجالات الادارة والانتاج والخدمات والدفاع ، كما تتفاوت اقطاره في حجم نوعية طاقتها البشرية ، وفي ثرواتها القطرية الخام او المصنعة .

ويلمس معظم عناصر الطاقة البشرية كافراد هذا الواقع بكل انعكاساته والتواءاته ، بطريق مباشرة او غير مباشر ، من خلال المؤسسات التي تقوم بتنشئتهم وتعليمهم وتدريبهم وامتصاصهم وتشغيلهم . هؤلاء الافراد ليسوا بالطبع ادوات صماء او مخلوقات سلبية فهم بدورهم يتفاعلون ويعتركون ويقاومون ويتعاونون مع هذه المؤسسات بطريقة جدلية مستمرة . وفي خضم ذلك يتحرك المجتمع بافراده ومؤسساته، ويتغير معهم وبهم .

---

(٢) من الذين عبروا عن وجهة النظر هذه اندرجوندر فرانك ، انظر كتابه

A.G. Frank: Latin America, Development or Revolution: N.Y: Monthly Review, 1969.

(٣) انظر تقريرا اصدرته احدى اللجان الخاصة في الكونجرس الامريكي عن مشكلة تسرب الكفاءات من العالم الثالث الى الولايات المتحدة

Brain Drain. Prepared for the Sub-Committee on National Security Policy, U.S. House of Representatives, U.S. Government Printing Office. Washington, 1974.

(٤) رشدي لبيب « هجرة العقول .. قضية تربوية » في الطليعة (القاهرية) ابريل ١٩٧٣ ص ٢٣ .

(٥) حاول الدكتور انطوان زحلان قياس الاهدار المترتب على عدم او قلة انتاجية الكفاءات العربية ، انظر :

A.B. Zahlan: "The Science and Technology Gap in the Arab-Israel Conflict" in Journal of Palestine Studies No. (3) (Spring 1972) PP. 36.

ويمثل المهنيون من الطاقة البشرية العالية جزءاً متكاملا من هذه الحركة ، وما يصحبها من تغيير . وقد دأب كثير من المحللين على تضخيم دور هذا الجزء في تفجير وضبط وتوجيه وترشيد حركة المجتمع في القرن العشرين . فهؤلاء المهنيون يملكون العلم والمعرفة والتكنولوجيا التي هي مفاتيح العصر ، وبالتالي المتحكمة في الجهاز العصبي للمجتمع الحديث . ولكن قدرة هؤلاء على اداء دورهم ، مهما كان حجمه الحقيقي ، تتوقف على امكانية وصولهم الى حيث يستطيعون استخدام هذه المفاتيح ، وقدرتهم على تطويع هذه المفاتيح حتى تؤدي فعلا ما ينبغي ان تؤديه من ضبط وتوجيه وترشيد حركة المجتمع .

ان الشرط الاول ـ امكانية وصول عناصر الطاقة البشرية العالية الى حيث يستطيعون استخدام ما يملكون من علم ومعرفة ـ هو مشكلة المؤسسات التي ينبغي ان تمتصهم وتشغلهم . والشرط الثاني ـ قدرة هذه العناصر على تطويع علمهم ومعرفتهم لخدمة المجتمع وتنميته ـ هو مشكلة المؤسسات التي تدربهم وتعدهم لهذا الدور ، وهو مشكلة هذه العناصر نفسها كافراد . والذي يحدث عادة هو تفاوت كلا النوعين من المؤسسات في الوفاء بهذين الشرطين ، وكذلك تفاوت عناصر الطاقة البشرية العالية في درجة ونوعية تكيفهم مع هذه المؤثرات المؤسسية .

وسنحاول القاء بعض الضوء على الواقع العربي في هذه المسائل تحت رؤوس الموضوعات التالية :

أ ـ العوامل الهيكلية العامة .

ب ـ العوامل المؤسسية النوعية .

ج ـ الانماط التكيفية التي تلجأ اليها عناصر الطاقة البشرية العالية .

١ ـ العوامل الهيكلية والمؤسسية المؤثرة على تكيف الطاقة البشرية العالية

رغم ان الاقطار العربية تتفاوت ، كما ذكرنا ، في حجم سكانها ونوعية طاقاتها البشرية ومواردها الطبيعية والمالية ، وقدم او حداثة مؤسساتها النظامية الرسمية ، الا انها تدخل في عداد مجتمعات العالم النامي الذي ابتلى بتراث الاستعمار الغربي لعشرات السنين ، والذي لم يتحرر جزئيا الا في النصف الثاني من القرن العشرين . لذلك فهناك الكثير من اوجه الشبه بين الاقطار العربية من حيث تأثير الهياكل الاجتماعية والمؤسسية على تكيف الطاقة البشرية العالية بكل منها . الفقرات التالية تحتوي على تعميمات نعتقد انها تصدق على معظم اقطار الامة ، ولكن حينما يكون هناك استثناء واضح في بعض هذه الاقطار بالنسبة لتعميم معين فاننا سنشير اليه .

هناك عوامل هيكلية عامة ذات تأثير مباشر او غير مباشر على كفاءة تكيف عناصر الطاقة البشرية العالية مع مجتمعهم ، وهناك عوامل مؤسسية خاصة تؤثر على هذا التكيف مباشرة وبشكل نوعي . وكلا الفئتين من العوامل تأخذ درجة بالغة الحدة ، شكلا وموضوعا ، بالنسبة لمن تلقى تعليما او تدريبا في الخارج من بين عناصر هذه الطاقة العالية .

العوامل الهيكلية المجتمعية العامة

هناك عشرات الدراسات والكتب والمقالات(٦) التي صدرت في الاونة الاخيرة تصف وتناقش وتحلل العوامل الهيكلية العامة التي تعيق تكيف عناصر الطاقة البشرية العالية ، وتقلل بالتالي من انتاجيتهم في العالم العربي . ويمكن تلخيص ما اجتمعت عليه هذه الدراسات من عوامل مجتمعية سلبية تؤثر على تكيف عناصر الطاقة البشرية العالية في كلمة واحدة : التخلف بكل جوانبه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والحضارية . فالتخلف هو ظاهرة ذات الف وجه ووجه ، ومن هذه الوجوه التي يكثر عدها يمكن ان نذكر ما يلي :

١ ـ سوء وعدم تناسب اعداد الطاقة البشرية العالية

من المفارقات الصارخة في معظم الاقطار العربية ابقاؤها ـ رغم تحررها السياسي نسبيا ـ على ميراث عهود الاستعمار في مؤسساتها التعليمية . فهذه المؤسسات نشأت في تلك العهود او بنيت بعد الاستقلال وانما على نفس النسق والقيم والبرامج . وكل ما حدث في فترة ما بعد الاستقلال هو التوسع الكمي الهائل ولكن على نفس الاسس القديمة . والنتيجة الحتمية لمثل هذا الوضع هو تخريج الآلاف من الجامعات الوطنية كل عام على مستوى البكالوريوس ، وهم مزودون « بتعليم » اعرج ممسوخ ، لا يؤهلهم حقيقة للاسهام الفعلي في حل مشكلات بلادهم الحاضرة ، ناهيك عن المساعدة على دفعها بسرعة الى الامام . وعلى المستويات الاعلى « الماجستير والدكتوراه » فان المشكلة تأخذ شكلا اخر : وهو عدم تناسب التدريب الذي يتلقاه معظمهم في الخارج (وخاصة في الغرب) مع هموم واحتياجات التنمية في الاقطار العربية . فبرامج التعليم العالي هناك صممت ـ كما ينبغي ـ لخدمة وظائف واهداف تلك البلاد . فمن حيث القيم والمناهج والاولويات والمضمون يتلقى طالب الدكتوراه العربي في الخارج تعليما يؤهله اساسا للانتاج الامثل في البيئة التي تلقى فيها هذا التعليم . وفقط بشكل ثانوي هامشي للانتاج في البلاد العربية . والطريقة الوحيدة التي يستطيع بها مثل هذا الخريج ان ينتج في العالم العربي هي خلق مؤسسات شبيهة بما تعود عليه في الخارج(٧) ـ وهو الامر الذي يصعب تحقيقه من ناحية والذي نشك في حكمته او جدواه من ناحية اخرى . ومن المظاهر الهيكلية الاخرى لرداءة تدريب واعداد الطاقة البشرية

---

(٦) انظر على سبيل المثال كتابات الدكتور انطوان زحلان ومنها «هجرة الادمغة» في صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية (بيروت، ايلول ـ كانون اول ١٩٦٨ ص ١٩ ـ ٣٠)

"The Arab Brain Drain" in Middle East Studies Association Bulletin (Vol. 6, No. 3, 1972) "The Lebanese Brain Drain" in Conference on Lebanese Brain Drain (Beirut, May 30_31, 1972), C. Nader & A.B. Zahalan (eds) Science and Technology in Developing Countries (London: Cambridge University Press, 1969).

الياس زين : هجرة الادمغة العربية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٢ ، الهجرة الدائمة للمصريين خارج ج.م.ع . الجهاز المركزي للتعبئة والاحصاء ، القاهرة ١٩٧٢ .

(٧) مثل الجامعة الامريكية في بيروت او الجامعة الامريكية في القاهرة او الشركات والبنوك الاجنبية في لبنان والكويت والسعودية ومصر .

العالية في البلاد العربية مظهر عدم المرونة في البرامج الدراسية . فالتخصص في الجامعات والمعاهد العالية ، في معظمها ، يبدأ في وقت مبكر جدا (غالبا منذ السنة الاولى او الصف الاول) وقد يكون لذلك بعض الفوائد (وخاصة في الكليات العلمية التطبيقية مثل الطب والهندسة والصيدلة) . ولكن الغالب الاعم هو ان يتخرج الطالب الجامعي ليلتحق بوظائف واعمال لا يتطلب اداؤها ذلك التخصص المكثف الذي يتعرض له اثناء السنوات الاربع او الخمس في الجامعة. وبالعكس يتطلب العمل الذي يسند لمعظم حملة البكالوريوس في الوزارات والمؤسسات قدرات عامة في المقام الاول ، ومهارات تخصصية فقط في المقام الثاني . ورغم هذه الحقيقة ، فأن هناك نوعا من القبلية او العشائرية المهنية التي تنشأ مبكرا في عقلية الخريج ، وتصبغ اتجاهاته نتيجة هذا التخصص المكثف في مرحلة البكالوريوس . ويجعله ذلك يستنكف عن القيام باعمال قد لا تكون مطابقة تماما لحقل تخصصه ، كما تولد عنده ازدراء لفكرة التعاون مع غيره من خريجي الاختصاصات الاخرى وخاصة من خارج كليته .

وينتج من هذا العطب الهيكلي في مؤسسات التعليم العربية عدم توافر البرامج الاكاديمية والمهنية لاعادة التدريب فهناك ندوة في البرامج التي يستطيع من خلالها خريج الجامعة في اختصاص معين ان يتخصص في فروع اخرى قريبة للحصول على شهادة اخرى او على الخبرة اللازمة في تخصص آخر قد يوجد عليه طلب كثيف . فمن خلال دراستنا لمصر والعراق وجدنا خريجين في الكيمياء وعلوم الحياة والفيزياء ظلوا بلا عمل لمدة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات . وكان يمكنهم في خلال جزء من هذه المدة مثلا العودة للجامعة لتلقي تدريب في الصيدلة او الطب او الهندسة وهي فروع يشتد عليها الطلب في معظم البلاد العربية . وبنفس المنطق يمكن لخريجي اللغات والانسانيات ، وقد استمرت بطالة بعضهم عشر سنوات ، ان يلحقوا ببرامج للحصول على تدريب في الاختصاصات الادارية والمخزنية والاحصائية وهي ايضا فروع مطلوبة في معظم البلاد العربية .

٢ ـ سوء التخطيط والتوزيع والاستخدام .

على فرض ان الكوادر عالية التعليم ، رغم سوء تدريبها على مستوى البكالوريوس وعدم تناسب تدريبها على مستوى الماجستير والدكتوراه ، تستطيع ان تقدم شيئا لاقطارها فأن هناك عاملا هيكليا اخر يعرقل ذلك ـ وهو سوء التخطيط والتوزيع والاستخدام . ففي جمهورية مصر العربية ولبنان والسودان وتونس والعراق مثلا ، يتخرج من الجامعات الوطنية اعداد غفيرة لا يتم امتصاصها بسرعة او كفاءة .

ومنذ سنوات تظاهر خريجو الجامعات السودانية من اجل الحصول على الوظائف ، (٨) واضطرت مصر والعراق الى الاخذ بسياسة « توظيف » كل الخريجين الذين لا يجدون اعمالا في خلال سنة او سنتين من تخرجهم ـ ويقدر هؤلاء عادة بالالاف(٩) . والمفارقة الصارخة في حالة بلد مثل العراق هو انها تشكو بصفة شبه دائمة من قلة الطاقة البشرية العالية ، وفي نفس الوقت يتراكم لديها دوريا آلاف العاطلين من حملة الشهادات العليا الى ان يصدر قرار من مجلس قيادة الثورة « بتعيينهم » في وظائف بالدولة . وينتج ذلك طبعا من جراء سوء التخطيط : فهناك تفاوت كبير في تدفق عناصر الطاقة البشرية العالية في نفس المجتمع ـ كما هو حادث بالفعل في البلاد العربية المذكورة ـ هو اشبه بوجود « تضخم » وانكماش في نفس الاقتصاد . لذلك نخلص الى ان هذا الوضع لا بد وان يكون نتيجة اختناقات هيكلية ومؤسسية .

اما بالنسبة للكوادر الاعلى (الماجستير والدكتوراه) فان المشكلة هي ايجاد الاعمال المتناسبة مع مؤهلاتهم . وفي عدد من الدراسات الميدانية الحديثة ثبت ان ما يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ في المائة من هذه الكوادر لا يقومون باعمال تتناسب وتتوافق مع نوعية تدريبهم واختصاصاتهم . وقد ذكر معظم من شملتهم هذه الدراسات ان سوء التخطيط والتوزيع والاستخدام هو المسئول الاكبر عن عدم رضائهم بالعمل ، وقلة انتاجهم فيه ورغبة معظمهم ، لذلك ، في ترك العمل او الهجرة (١٠) . واذا كان ذلك اهدارا لواحد من اهم موارد المجتمع بصفة عامة فانه يعد مأساة شخصية بالنسبة للكوادر العالية التي بذلت سنوات عديدة في تحصيل العلم لبجدوا انفسهم في النهاية املا بلا عمل (وان كان لديهم وظائف) او في اعمال لا تتناسب مع ما تلقوه من تدريب وتأهيل .

ولا يمكن هنا النظر الى سوء تخطيط وامتصاص واستخدام الطاقة البشرية العالية كظاهرة منفصلة عن سوء التخطيط في المجتمع ككل . فالظاهرة الاولى ما هي الا حالة خاصة او وجه واحد من سوء التخطيط بصفة عامة . ونعني بهذا اما عدم وجود خطة مرسومة بواسطة الدولة ، اساسا ، للتنمية الشاملة ، أو وجود خطة مرسومة ولكن بطريقة غير علمية متكاملة ، او وجود مثل هذه الخطة على الورق مع عدم او سوء تنفيذها عند التطبيق .

لقد اخذت معظم الدول العربية ـ على اختلاف انظمتها السياسية والاجتماعية بمبدأ التخطيط منذ سنوات ، وانشأت له وزارات ومجالس واجهزة متخصصة . ولكن الحقيقة الملموسة هي ان نتائج عمل مثل هذه المؤسسات ما زالت دون المستوى المطلوب بشكل ظاهر . فكل من مصر والعراق والسودان ، وهي من اول البلاد العربية التي اخذت بمبدأ التخطيط ، قصرت خططها المرحلية في الستينات والسبعينات عن تحقيق معظم اهدافها بصفة عامة ، وتجلت رداءة هذا التخطيط في مجال اعداد واستخدام الطاقة البشرية العالية بصفة

(٨)

Brain Drain: A Study of the Persistent Issue of International Scientific Mobility. A Congressional Report, U.S. Government Printing Office, Washington, 1974, P. 90.

(٩) اخذت مصر بهذه الممارسة منذ عام ١٩٦٢ . واصدر مجلس قيادة الثورة العراقي القرار ١٠٣ لعام ١٩٧٤ الذي يقضي بتعيين خريجي الجامعات العاطلين والذي استفاد به حوالي عشرة آلاف خريج مضى على بعضهم بلا عمل اكثر من ست سنوات .

(١٠) من الدراسات الميدانية في هذا الخصوص :

ـ غانم حمدون وسليم الخميسي : مشكلة تخلف المبعوثين للدراسة عن العودة الى العراق بعد تخرجهم (مركز البحوث التربوية والنفسية ، جامعة بغداد ، العراق ، ١٩٧٣)

Saneya. W. Saleh: Attitudinal and Social Structural Aspects of the Brain, The Egyptian Case (An M.A. Thesis, unpublished, American University in Cairo, 1975).

ـ مقابلات لعينات مختارة قام بها هذا الباحث لعدد من حملة الدكتوراة في مصر والسودان والعراق كجزء من دراسة لم تنشر بعد عن سوسيولوجية التنمية في العالم العربي .

خاصة . فمن خلال دراسات ميدانية قام بها هذا الكاتب (١١) وغيره في البلاد الثلاثة اتضح ان اجهزة تقدير الاحتياجات القومية من الطاقة البشرية (وهي جزء من المؤسسات التخطيطية) لا تفعل ذلك عادة بطريقة سليمة . فهي من ناحية لا تربط هذه التقديرات بالاهداف الانتاجية للخطة الشاملة نظرا لعدم وضوح هذه الاهداف في المقام الاول . ومن ناحية ثانية تستخدم هذه الاجهزة في تقدير الاحتياجات اساليب منهجية عقيمة اهمها الرجوع الى الوزارات والدوائر والمؤسسات العامة لسؤالهم عن احتياجاتهم من الطاقة البشرية . ولما كانت هذه الاخيرة لا تملك اجهزتها الخاصة لتقدير الاحتياجات ولا تملك بدورها تصورا واضحا لاهدافها في السنوات الخمس او العشر التالية ، فهي تقوم بتقدير احتياجاتها بشكل جزئي وعشوائي ولكن حتى في الحالات الاستثنائية التي يتم فيها تقدير الاحتياجات بشكل معقول فان اجهزة التدريب والاعداد (وزارتا التربية والتعليم العالي) اما انها لا تتلقى المعلومات الواجبة عن هذه التقديرات بالمرة ، او تتلقاها بعد فوات الاوان (حيث من المعروف ان اعداد الكوادر البشرية العالية يحتاج الى ما بين عشر وخمس عشرة سنة) ، أو انها تتلقاها في الوقت المناسب ولكنها لا تعمل بها ولا تخطط سياساتها في القبول على اساسها لسبب أو لآخر . (١٢)

ولا يوازي عدم وجود علاقة عضوية بين اجهزة تقدير الاحتياجات واجهزة التدريب والاعداد في ضرورة العام الا انعدام مثل هذه العلاقة بين اجهزة التدريب والاعداد من ناحية واجهزة التوزيع والامتصاص والاستخدام من ناحية اخرى . فهذه الاخيرة – في البلاد التي درسناها – قلما تعرف مسبقا عدد المتخرجين من مختلف الاختصاصات، ونادرا ما تتصل بهم او بكلياتهم قبل التخرج . ويحدث اول اتصال بين جهات التوزيع والاستخدام وبين المتخرجين عادة بعد التخريج بعدة اسابيع او لمدة شهور (وذلك باستثناءات قليلة جدا بالنسبة لخريجي كليات الهندسة والطب) .

٣ – العوامل السياسية

اشارت كثير من الدراسات والكتابات عن موضوع تسرب واهدار الطاقة البشرية العالية الى الاعتبارات السياسية في العالم العربي (والعالم الثالث عموما) كاحد العوامل التي تلعب دورا سلبيا . وتكون الاشارة في العادة الى عدم الاستقرار السياسي نتيجة الانقلابات والثورات وما يصاحب ذلك من احتمالات استخدام العنف والاضطهاد والتنكيل ، التي يتعرض لها المتعلمون خاصة ، بوصفهم اكثر ميلا عن غيرهم من عناصر السكان الى الاشتغال بالسياسة والاهتمام بالمسائل العامة . ونؤيد معظم الشواهد التجريبية صحة هذا التعميم(١٣).

ولكن الى جانب ما يخلقه عدم الاستقرار من المظاهر المشار اليها ، هناك اعتبارات اخرى جديرة بالذكر والتأكيد . فمن ناحية تميل معظم التعميمات في هذا الصدد الى الايحاء بان مثل هذه الفورات السياسية والاجتماعية « ضارة » بدليل انها تؤدي الى تسرب واهدار الكفاءات . وقلما يحاول صانعو هذه الايحاءات وضع الظاهرة في اطارها التاريخي والاجتماعي المتكامل والنظر الى الفوائد الاخرى التي تترتب عليها بالنسبة للمجتمع ككل . كذلك قد يوحي مثل هذا التعميم بأن الانظمة « المستقرة » سياسيا تحقق استفادة « امثل » من طاقاتها البشرية . فالحصول على المركز المناسب في هذه الانظمة لا يتم دائما على اساس الكفاءة والمؤهلات العلمية فقط ، وانما تدخل فيه اعتبارات اخرى مثل الانتماء السياسي والخلفية العائلية والطبقية والطائفية . وقد اورد الدكتور الياس زين بيانات وامثلة عديدة تؤيد هذه الملاحظة .(١٤)

كذلك يدخل ضمن الاعتبارات السياسية ذات التأثير على تكيف واداء الطاقة البشرية العالية غياب الحريات الليبرالية في معظم البلاد العربية – سواء المستقر او غير المستقر منها سياسيا . ولا يخفى ما لاهمية هذا الاعتبار من اثر سلبي على المتعلمين عموما ، والمتعلمين منهم في دول الغرب خصوصا . فبصرف النظر عن الاهمية المطلقة لهذه الحريات على حركة ونظام المجتمع ، فان معظم المثقفين باتوا يعتبرونها حقا اساسيا ، يؤدي الحرمان منها الى ضيق نفسي وروحي .

ان عدم الاستقرار السياسي لا ينبغي فهمه على انه مجرد تغير الانظمة السياسية نتيجة الانقلابات او الثورات . فقد يحدث انه رغم استمرار نظام او عهد معين في الحكم والسلطة تتم عمليات نقل او تغيير لاصحاب المناصب القيادية في الوزارات والمؤسسات خلال فترات متقاربة . ويؤدي هذا في معظم الاحيان الى عدم الاستمرارية في الخطط والبرامج . وغالبا ما يأتي كل وزير جديد بتصور او خطة عمل معينة يحاول ترجمتها الى برامج يعهد برسمها وتنفيذها الى عناصر الطاقة البشرية العالية في المستويات التالية له في السلطة . ولكن نتيجة التغير المستمر والمفاجيء في المناصب القيادية العليا(١٥) تتوقف او تتعطل هذه البرامج . ويؤدي ذلك بدوره الى اهدار كثير من الوقت والمال ، واهم من ذلك ، الى تدهور الروح المعنوية لعناصر الطاقة البشرية العالية الذين لا يكادون يرون معظم ثمار جهودهم المتواصلة تخرج الى حيز النور .

---

(١١) الاشارة هنا هي الى دراسات عن «مؤسسات رسم السياسات والتخطيط في السودان» (١٩٧٤) « البطالة بين خريجي الجامعات في العراق » (١٩٧٥) « الدراسة في الخارج وتسرب الكفاءات العراقية » (١٩٧٥) والتي تمت لحساب حكومتي البلدين ولم يتم نشرها بعد . ولذلك لا نستطيع هنا – بغير سماح الحكومتين – نشر بياناتها الاحصائية ونكتفي ببعض الخلاصات العامة .

(١٢) من ذلك مثلا عدم توفر القدرة الاستيعابية لقبول الاعداد المطلوبة في بعض المعاهد والكليات ، وقبول اعداد اكبر من المطلوب في كليات اخرى (عادة الانسانية والنظرية) نتيجة ضغوط جماهيرية وسياسية ، وعدم اقبال الطلاب على بعض فروع الاختصاص المطلوبة لخطط التنمية والتي يمكن استيعابهم فيها لاعتبارات تقليدية ومظهرية .

(١٣) ذكر اقرار العينات المصرية والعراقية والسودانية هذا العامل ضمن الاسباب الرئيسية للتسرب والاهدار . انظر دراستي سنية صالح (عن مصر) وغانم حمدون وسليم الخميسي (عن العراق) المشار اليهما في هامش (١٠) اعلاه ودراستنا المشار اليها في هامش (١١) .

(١٤) دكتور الياس زين ، هجرة الادمغة العربية ، دراسة مشار اليها اعلاه ، صفحة ٩٨ – ٩٩ .

(١٥) في المدة من سبتمبر ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ تعاقب على وزارتي التربية والتعليم العالي خمس وزراء مختلفين في جمهورية مصر العربية . أي ان المتوسط الزمني لكل وزير لم يتجاوز عاما واحدا . وفي السودان تعاقب على وزارة النقل احد عشر وزيرا (١٩٦٤ – ١٩٧٤) منهم خمسة وزراء في عهد الرئيس النميري (١٩٦٩ – ١٩٧٤) أي بمتوسط زمني اقل من سنة للوزير الواحد وهذه امثلة عامة تنطبق على معظم البلاد العربية .

٤ ــ العوامل الاقتصادية :

باستثناء الدول العربية النفطية ، تعتبر الرواتب التي يحصل عليها اصحاب الكفاءات وعناصر الطاقة البشرية العالية منخفضة للغاية ، اذا ما قورنت بمثيلاتها في الدول النفطية وفي بلدان العالم الاول . وانخفاض الرواتب في البلاد العربية المذكورة هو ظاهرة عامة تشمل كل فئات الشعب وليس فقط اصحاب المؤهلات العالية . ولكن المشكلة بالنسبة لهذه الفئة الاخيرة هو ان اطارها المرجعي ليس اطارا محليا وانما هو اطار دولي في المقام الاول . فرغم تميزهم الواضح في الدخول بالنسبة لفئات الشعب الكادحة من الفلاحين والعمال وصغار الموظفين ، الا انهم لا يقارنون انفسهم بهذه الفئات في مجتمعهم ، وانما يقارنون انفسهم بغيرهم من حاملي نفس المؤهلات في الدول النفطية وفي الغرب . وليس هناك مجال للشك في ان نتيجة مثل هذه المقارنة تترك في نفوسهم شعورا عميقا بعدم الرضى . لقد جاء هذا الاعتبار من حيث الاهمية في المقام الثالث من حيث الاهمية بين ١٤ عاملا من عوامل الرغبة في ترك العمل والهجرة بالنسبة لعينة من ذوي الكفاءات المصريين ، وجاء ترتيبه الرابع من بين احد عشر عاملا بالنسبة لعينة عراقية مماثلة(١٦) .

ان بروز هذا الاعتبار كأحد العوامل الهيكلية ذات التأثير في تكيف عناصر الطاقة البشرية العالية ، مثله مثل الاعتبارات السياسية ، لهو على درجة كبيرة من التعقيد . وليس من السهل معالجته في البلاد العربية (غير النفطية) في فراغ مجتمعي . فلا بد لصانع القرار ان يأخذ في الحسبان التوزيع النسبي للدخول لكل فئات الشعب . ولما كانت هذه كلها تحتاج الى رفع دخولها ، يصبح من العسير ــ لا فقط ماليا وانما ايضا اخلاقيا ــ اتخاذ أي خطوات حاسمة في هذا السبيل ما لم تحدث تنمية اقتصادية واجتماعية شاملة وسريعة في هذه البلاد . ولكن حدوث مثل هذه التنمية هو بدوره وقف على استعداد واسهام وحماس عناصر الطاقة البشرية العالية ، وهكذا نجد انفسنا حيال احدى الدوائر المفرغة البشعة التي تشكو من كثير منها معظم دول العالمين الثالث والرابع .

احد المظاهر الاخرى لتعقيد هذا الاعتبار هو ان عناصر الطاقة البشرية العالية ، وخاصة من تلقي منهم تعليما او تدريبا في الخارج ، قد تعودت على او تطمح في اسلوب معيشي مماثل لما يتمتع به نظراؤهم في الغرب . ولا يتحقق مثل هذا الطموح ، أو أي شيء قريب منه ، في ظل مستويات الرواتب الحالية . فما يحصل عليه حامل الدكتوراة في الغرب يصل في المتوسط الى اربعة امثال ما يحصل عليه زميله في سورية والعراق والسودان ، والى اكثر من ستة امثال ما يحصل عليه زميله في مصر . بل ان ما كان يحصل عليه المبعوثون العرب من هذه البلاد اثناء دراستهم في الخارج كان يسمح لهم بمستوى معيشي أعلى من ذلك الذي يبدأون به حين عودتهم الى بلادهم بعد الانتهاء من الدراسة .

هناك شيء جدير بالملاحظة مع كل ذلك وهو ان العامل الاقتصادي المالي ، رغم اهميته ، ليس اهم العوامل من وجهة نظر عناصر الطاقة البشرية العالية . فقد جاء ترتيب هذا العامل في المركز الثالث بالنسبة للمصريين وفي المركز الرابع بالنسبة للعراقيين ، كما ذكرنا اعلاه . وهذا يؤكد ، من ناحية ، حجم المبالغة التي ينسبها كثير من الكتاب لاهمية هذا العامل حين يتناولون موضوع تسرب واهدار الكفاءات . ومن ناحية ثانية ، فكون هذا العامل لم يات في المرتبة الاولى يؤكد ان هذه العناصر ليست عديمة الاحساس بمسئولياتها القومية والاخلاقية بالمرة . وربما توحي هذه الملاحظة بان الكفاءات العربية يمكن ان تتغاضى ولو مؤقتا عن ظاهرة الانخفاض النسبي للرواتب لو توفرت ظروف اخرى مشجعة على العمل والانجاز (مثل المناخ العلمي ، والحريات الليبرالية ، والاشتراك الفعلي في صنع القرارات) .

٥ ــ عدم توفر الخدمات :

ذكرنا في صدر هذا القسم من الدراسة ان للتخلف الف وجه ووجه . ولعل من ابرز هذه الوجوه تزايد الضغط على المرافق والمنافع والخدمات العامة والنوعية نتيجة تزايد السكان من ناحية ، واستمرار الهجرة من الريف الى الحضر من ناحية اخرى . فقد شهدت عواصم هذه البلاد العربية في السنوات العشر الاخيرة تزايدا رأسيا وافقيا في الطلب يفوق بمراحل معدلات الزيادة في العرض لكل الخدمات من تعليم الى صحة الى اسكان الى مواصلات ولعل ابشع صور هذا الضغط على الخدمات يتجلى في مشكلتي الاسكان والمواصلات في معظم البلاد العربية ــ ولكن بصفة خاصة في مصر ولبنان والسودان والعراق وسورية . وبازدياد الطلب وقلة العرض ينتج ــ كما نعلم جميعا ــ تضخم حلزوني يؤدي الى ارتفاع اسعار هذه الخدمات بمعدل اسرع من ارتفاع الدخول . ولما كانت الاخيرة منخفضة من البداية في معظم البلاد العربية ، كما اشرنا في الفقرة السابقة ، فان هذا التضخم يصيب اول من يصيب اصحاب الرواتب الثابتة ، بمن فيهم عناصر الطاقة البشرية العالية التي تعمل في اجهزة الدولة . ولما كانت هذه العناصر هي اكثر فئات السكان اعتدادا بنفسها واكثرهم جرأة في التعبير عن همومها ، فان الوضع في بلد مثل مصر يكاد يصل حد الثورة(١٧) .

---

(١٦) انظر :

Saneya A.W. Saleh: Attitudinal and Structural Aspects of he Brain Drain, Op. Cit., P. 185.

ــغانم حمدون وسليم الخميسي ــ مشكلة تخلف المبعوثين للدراسة ، مرجع مشار اليه سابقا ، ص ٢٧ .

(١٧) في خلال اسبوع واحد نشر الاهرام خطابات في بريد القراء ومقالات في صفحة الرأي كلها واردة من حملة الدكتوراة تهاجم فيها المسئولين وتصرخ باصوات قلما كان ارتفاعها بمثل ما هو عليه اليوم من جراء ازمة الاسكان والخدمات الاخرى . وهذه عينة : «تابعت بكل الاهتمام رسالة الدكتور مهندس ماهر عبدالوهاب الى رئيس الوزراء حول صعوبة حصوله على سكن يأوي اليه مع عائلته في المنيا بعد عودته من البعثة . انني ايضا منذ عودتي من البعثة حائر على السكن المناسب ما بين الخلوات او المقدمات او الايجارات الخيالية التي لا يمكن ان تتحملها امكانياتي بأية صورة علما بانني من موظفي المستوى الاول . لقد قرأنا العديد من تصريحات المسئولين عن اولوية المبعوثين العائدين في الحصول على السكن المناسب الاجر فضلا عن التسهيلات الاخرى في الجمارك والمدارس .. الخ . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . انني لم اسكن بعد ، وقد اخذت مني الجمارك ما بقي من نقودي . كما حفيت قدماي الى ان ادخلت ابني مدرسة خاصة . وبذلك تبين لي من هذه التجربة العملية ان ما قرأناه من تصريحات لم يرق الى مستوى المسئولية . لقد طرقت جميع ابواب المسئولين عن الاسكان في القاهرة دون جدوى . بل لقد سخر البعض من سذاجتي احيانا على تصديق كلام الجرائد . ان الحل الوحيد الذي يبقى هو الاستقالة ثم العودة الى حيث كنت مستريح الضمير بعد ان حاولت ان اخدم بلدي لكني فشلت في الاستقرار والعيش نتيجة ظروف خارجة عن ارادتي . اخيرا : هل نأمل من رئيس الوزراء ان يحدد الجهة الحكومية التي تعمل على تنفيذ القرارات التي اصدرها في شأن معاملة المبعوثين العائدين ، قبل ان اصبح مع امثالي مهاجرين رغم انفنا مرة اخرى . « الاهرام » ١٤-١١-١٩٧٥

دكتور يوسف عبدالوهاب
مدير عام التخطيط ، الجهاز المركزي للتنظيم والادارة

٦ ـ الاختناقات البيروقراطية :

ان اول مـا يصطدم به المبعوث العائد من دراسته في الخارج لدى وصوله الى بلده العربي هـو البطء والتعقيدات البيروقراطية القاتلة. حقيقة غادر معظم هؤلاء بلادهم وفي اذهانهم صـورة قائمـة للروتين والبيروقراطية العربية ، ولكـن حال وصولهم الى بلاد غربيـة فانهم وجدوا النقيض : السرعـة والكفاءة والنظام واحترام المواطن . وتعودوا خلال سنوات الغربة على هذه الامور ، واصبحت بالنسبة لهم اشياء مألوفة وضرورية . ولكن منذ الدقائق الاولى لوصول العائد الى مطار او ميناء بلده العربي فانه يجابه احدى حقائق التخلف القاتلـة وجها لوجه مرة اخرى . لقد شبع هذا الموضوع كلاما وتحليـلا ودراسة ولكنه لم يحل بعـد . ويكفي هنـا ان نورد شهادة واقعيـة لاحد العائديـن من الدراسـة في الخارج بعـد حصوله على الدكتوراه في طب الاطفال لدى وصوله الى ميناء الاسكندرية :

« كان يمتلكني شعور غريب .. مزيج من الشغف والشوق يختلط بالخوف ممـا يحمله لي المستقبل في بلدي . وزاد من حـدة هـذا الشعور وجود زوجة اجنبية معي .. ومن اللحظات الاولى وما تلاها من اسابيع وشهور مررت بظروف عصيبة في ايجاد وظيفـة ومسكن وفي مساعدة زوجة غريبة على التأقلم في بلدي والتكيف مع عائلتي . لقـد احسست فجأة بالفارق الشاسع بـين حياتي في الخارج وما بدا انـه ستكون حياتي عليه في الوطن ، لقد كانت الصدمة الاولى في الجمارك. طبعـا لـم استطع انهاء المعاملات الجمركيـة في نفس يوم وصولي ، وكان علي ان اقوم بعدة رحلات من القاهرة الى الاسكندرية ، وان ادفع مبلغـا طائـلا من المال لاستخلاص سيارتي المستعملة وبعض الادوات المنزليـة . وبعـد ذلك جاءت المشكلة الاكبر وهي ايجاد شـقة لاسكن فيها واخرى كعيادة لامارس فيهـا مهنتي كطبيب . وكان هـذا الامـر كتلة متصلة من العذاب والشقاء . ولم استطع تدبير الامـر في النهاية الا باتباع طرق ملتويـة وغير قانونية . ثم جاءت مشكلة الحصول على تليفون فمن غير المعقــول ان يستطيع طبيب ممارسة عمله بـدون تليفون ــ ولكني لم استطع . وكنت اضطر لاعطاء رقم تلفون والدتي الى المرضى . ولما كانت هي تسكن في مبنى اخـر بعيـد عن محـل سكني فقد كـان الامر لا يطاق . في حالات الطوارىء كان يوقظها المرضى في أي سـاعة من ساعات الليـل ، وكانت بدورها توقظ حارس المبنى لكي يركب دراجته ويأتي لايقاظي واصطحابي معـه كي اعاين المريض . واستمر الحال على هـذا المنوال لعدة شهور .. لقد تقدمت في نفس الوقت لشغل وظيفـة في الدولة . وقد استغرق ذلك عـدة شهور قبل ان اتسلم العمل »(١٨) .

ب ـ العوامل المؤسسية النوعية

ان العوامل الهيكلية التي ناقشناها في القسم السابق هـي ذات طبيعـة عامة تعكس الوجوه العديدة لتخلف المجتمع العربي . ولا يقتصر تأثيرهـا على تكيف واداء عناصر الطاقـة البشرية العاليـة وانما تشمل الفئات الاخرى في البلاد العربية . ولكـن حساسيتها بالنسبة للعناصر عاليـة المستوى ترجع الى انهم ، او معظمهم قد خبروا والفوا بدائـل اخرى متقدمة ، اثناء دراستهم واقامتهم في الخارج وبالنسبة لمن لـم يعش منهم في الخارج فانهم يعـون هـذه البدائـل ويعرفون عنهـا بانفتاحهم على الحضارة الغربيـة من خلال وسائل الاعلام المختلفة ، ومن خلال احتكاكهم بزملائهم الذين عاشوا في الخارج .

وفي الفقرات التالية نتناول مجموعة اخرى من العوامل المؤسسية النوعيـة . وقـد افتعلنا هذا التقسيم المفهومي لارتباط هذه المجموعة من العوامل بجو او محيط العمل المباشر والذي هو اساسا ــ في حالـة الطاقـة البشريـة العليـا ــ الجامعات ومعاهد ومراكز البحـوث المتخصصة ، او وحدات البحوث في اجهزة الـدولة الاخرى وطبعا لا نحتاج الى التأكيـد على ان العوامل الهيكلية العامة والعوامـل المؤسسية الخاصة تتشابك وتتفاعل كلهـا في واقع الحيـاة اليومية ، وترمي بثقلهـا على نفس الفرد او الافراد موضوع هذه الدراسة .

١ ــ المناخ العلمـي : هنـاك شبه اجماع بـين كل من تعـرض بالدراسـة لتسرب واهدار الكفاءات في العالم العربي بأن احـــد الاسباب الرئيسية الافتقار الى المناخ العلمي المناسب . ويعتبر هـذا العامل محصلة عوامل اخرى كثيرة . ولكن المقصود به عمومـا هو قلة التفاعل الخلاق بـين المتخصصين في نفس الميدان ، وعدم وجود تقاليد راسـخة او ممارسـات مشجعـة للبحث العلمي ــ حتى في حالة توافر المعدات الماديـة (مثل المختبرات والكتب) وقـد تعـود المهتمون بهذا الموضوع ان يعزوا نقص الانتاجيـة العلمية للكفاءات العربيـة الى قلة التسهيلات الماديـة اللازمة للبحث . ومـع مـا قـد يبدو من وجاهـة هذا التعليل ، الا ان هناك دلائل تؤكـد المبالغـة في اهميته . من هذه الدلائل ان القلة الميسورة من الجامعات العربية (في الدول النفطيـة مثلا) ، والتي زودت منذ البدايـة بكل معدات البحث العلمي الحديثة ، لم تظهـر تميزا مذكورا او يعتد به في مجال الانتاجية العلميـة . كذلك لا يبـدو ان تلـك الميادين التي يحتاج فيهـا البحث الى معـدات وتسهيلات ماديـة كبيرة هي بالضرورة احسن حظا من حيث انجـاز الكفاءات العربية فيها .

هذه الملاحظة قد توحي بأن الكفاءات العربية قاصرة عـن القيام ببحوث اصيلـة . ولكننا لا نقصـد ذلك على الاطلاق . فمعظم هـــذه الكفاءات حيثمـا تتواجـد في مناخ علمي مناسب ، لـه تقاليـــده ونظامه بالخارج ، فانها تنتج انتاجا رفيعا . كذلك لا نود هنـــا ان نترك الانطباع ان العالم العربي خال تمامـا من البحـوث الجيــدة ، والتي يجد بعضها طريقه الى الدوريات العلمية الدولية المحترمة . كـل ما نقصده هو ان كميـة ونوعية هذا النوع من الانتاج يتم رغـم ــ وليس بسبب ــ المناخ الذي يعمل به العلمـاء العرب من ناحية ، وهو ضئيل جدا بالقياس الى عددهم الكلي من ناحيـة اخرى . وقد برهن على هذه الحقيقة الدكتور انطـوان زحلان الذي وجـد انه في عـام ١٩٧١ كان هناك ٧٥٠ عالمـا منتجـا فقط في كل البلاد العربية ، بينما كان الرقم المقابل في اسرائيل هو ١٧٣٩ عالمـا (١٩) . ان هـذا العـدد من العلمـاء المنتجين في العالم العربي هم نسبة ضئيلة جدا مـن العدد الكلي لحاملي الدكتوراة او ما يعادلهـا ، والذيـن قدر عددهم فـي ذلك الوقت باكثر من ٥٠٠٠ شخص .

ما هي علاقة عدم توفر المناخ العلمي بصعوبات تكيف عناصر الطاقة البشرية العليا . ان الروح المهنية التي تتشربها هذه العناصر اثنـاء تدريبهـا في الخارج تجعل حكمهـا الذاتي والنهائي على نفسـها يعتمد على انتاجيتهـا العلميـة ، ويصبح « الانجاز » في ميادين اختصاصهم

---

(١٨)
Saneya Saleh: Attitudinal and Strucural Aspects of the Brain Drain. Op. Ci., PP. 80—81.

(١٩) اتبع الدكتور زحلان في قياس عدد المنتجين اولئك الذيـن نشروا كتبا أو مقالات في دوريـات علميـة اقليمية ودولية انظر :

A.B. Zahlan: "The Science and Technology: Gab in the Arab-Iraeli Conflict" Journal of Palestine Studies, Vol. 1, No. 3 (Spring 1972), PP. 22—36.

جزءا لا يتجزأ من مفهومهم الذاتي ، وأحد مبررات وجودهم كعلماء لذلك فحينما يتبين لهم عدم القدرة على الانتاج فأن ذلك لا بد وان يترك في نفوسهم شعورا عميقا « بالاحباط » ويشتد هذا الشعور الاحباطي خاصة بالنسبة لاولئك الذين يعلمون يقينا ، ومن واقع خبرتهم التجريبية ، انهم يستطيعون فعلا ان ينتجوا في ظل مناخ ونظام مختلفين عما هو موجود في عالمهم العربي .

ولكن ما هي عناصر ومظاهر انعدام المناخ العلمي المناسب ؟ هنا يمكن ان نذكر على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ ما يلي :

أ ـ مشكلات الصراع اليومي من اجل الحياة ، والتي تعتبر العوامل الهيكلية العامة ـ التي ناقشناها في القسم السابق ـ مسؤولة عنها .

ب ـ عدم تقدير البحث العلمي من جانب الدولة والمجتمع ـ رغم كل التمجيدات اللفظية التي تتردد ، منذ سنوات ، على لسان المسئولين ، وفي وسائل الاعلام . لقد اجرى هذا الباحث مسحا اوليا للعاملين من حملة الدكتوراة في مركزي البحوث العلمية والاجتماعية في جمهورية مصر العربية عن رغبتهم في الاستمرار باعمالهم الحالية وقد تبين ان اكثر من ٧٠ بالمئة من مجموع من تمت مقابلتهم (٥٨ باحثا) يريدون ترك العمل والهجرة الى الخارج . ولكن ما هو اهم من ذلك أنهم ذكروا جميعا ـ باستثناء ثلاثة منهم ـ انهم يفضلون ترك مركزي البحوث المذكورين والعمل في الجامعات . وهذه الاخيرة ، على الاقل في مصر ، تقوم اساسا بوظائف تعليمية تدريسية ويكاد يكون فيها البحث العلمي منعدما . هذا مع العلم ان سلم الرواتب والترقيات في مراكز البحوث معادل لمثيله في الجامعات المصرية وكانت اجابة معظم من عبروا عن سبب هذه الرغبة هي « لا احد يقدر البحث العلمي في هذا البلد » او ان « الجامعة مركز محترم » ، « وان فرص الدخل الاضافي في الجامعة كبيرة » .

ج ـ انعدام او سوء التخطيط العلمي ، الذي هو انعكاس لانعدام او سوء التخطيط العام في معظم البلاد العربية وقد ناقشنا ذلك في القسم السابق . فسياسة البحث العلمي ـ ان وجدت اصلا ـ فهي غير مرتبطة علميا وتنظيميا بالسياسات التنموية العامة للدولة . وكثيرا ما ترسل الحكومات دارسين للحصول على شهادات عليا في تخصصات دقيقة ومتقدمة (مثل علوم الذرة والفضاء) دون ان يكون هناك استعداد بنيوي لامتصاص او الاستفادة من العائدين حملة هذه التخصصات . ولكن حتى على افتراض وجود برامج علمية طموحة من انتاج شيء ملموس . فالبحث العلمي المعاصر في أي فرع يحتاج الى تنظيم من ناحية ، والى حد ادنى من العاملين من ناحية اخرى .

٢ ـ نظام التعليم العالي : لقد نوهنا في الفقرة السابقة الى ان الجامعات في مصر وبقية البلاد العربية تكاد تكون خالية من انشطة البحث العلمي . واهم وظيفة لها في الوقت الحاضر هي التدريس التلقيني ـ الذي يجعلها في الحقيقة مجرد امتداد زمني وكيفي للتعليم الثانوي في البلاد العربية . واهم سمات هذا التعليم الجامعي(٢٠) هي :

أ ـ الاعداد الكبيرة

ب ـ التركيز في المدن الكبرى وخاصة في العواصم .

ج ـ انخفاض معدل الاساتذة الى عدد الطلاب .

د ـ انخفاض مستويات ومعدلات التسهيلات المادية الى عدد الطلاب والاساتذة .

هـ ـ انخفاض معدل الخدمات والتسهيلات المكتبية الى عدد الطلاب والاساتذة .

و ـ عدم وضوح فلسفة عامة للتعليم الجامعي .

ز ـ عدم ارتباط برامج التعليم الجامعي ببرامج التنمية القومية او بمشكلات البيئة والمجتمع المحيط بها .

ح ـ عدم وجود نظام عقلاني لقبول وتوزيع الطلاب على الاختصاصات المختلفة .

ونكتفي هنا بتسجيل هذه السمات كرؤوس موضوعات دون الدخول في تفصيل كل منها . فهذه الموضوعات يحتاج كل منها الى دراسة مفصلة من ناحيته ، وهي معلومة لمعظم المهتمين بشئون التعليم العالي من ناحية اخرى . وقد اوردناها هنا فقط لانها تكون في مجموعها احد العوامل الحاسمة التي تؤثر على تكيف عناصر الطاقة البشرية العليا الذين يقومون بالعمل في التعليم الجامعي . ولا يخفى ان معظم السمات المذكورة تؤثر سلبيا على درجة اشباع واداء العاملين ـ وخاصة على من تلقى منهم تعلبما في الخارج ـ فجامعات العالمين الاول والثاني ـ كما نعلم جميعا ـ تقوم اساسا على مفهوم التفاعل الخلاق بين الاستاذ والطالب والمكتبة ، ويتوفر لكل من هذه العناصر في هذا التفاعل الخلاق داخل الجامعة ، وبين الجامعة والمجتمع المحيط بها . وحينما يذهب الدارسون العرب الى هذه الجامعات للحصول على درجات علمية فانهم يتعودون على هذه التركيبة الرائعة ، ويصبحون انفسهم في خلال سنوات دراستهم جزءا من هذا الهيكل . ولكنهم يعودون ليجدوا انفسهم مطالبين بالعمل في تركيبة مختلفة تماما . لذلك لا يستغرب ان معظمهم يواجه مشكلات تكيفية هائلة ، وخاصة في السنوات الاولى بعد عودتهم . بل المستغرب حقا ان معظمهم يبقى ، وان بعضهم في الواقع ينتج ، رغم هذه التركيبة .

٣ ـ نظام الحوافز : لا يقوم نظام العمل في الاجهزة الرسمية للدول العربية ، ومن بينها الجامعات ومراكز البحث العلمي ، على نظام رشيد او عقلاني للحوافز التي تشجع على ارتفاع الانتاجية ومستويات الانجاز . فتوزيع الكفاءات على المراكز المتاحة في المؤسسات الرسمية ينطوي على ثلاثة جوانب : التعيين او الاختيار وتحديد الرواتب ، والترقيات . بالنسبة للتعيين في الجامعات ومراكز البحث العلمي ـ التي تمتص القدر الاكبر من حاملي الدكتوراة والماجستير ـ يتم الامر على اساس الكفاءة الاسمية او الدرجة العلمية . ومع ما قد يكون لذلك من عيوب (حيث لا يتساوى بالضرورة كل من يحمل نفس الدرجة العلمية من ناحية القدرة) ، فأن هذا المعيار يبدو معقولا ويسمح بنوع من تكافؤ الفرص . ويتم تحديد الرواتب بطريقة تبدو في شكلها الخارجي وكأنها موضوعية ـ حيث يتساوى الكل في المعاملة المالية الاسمية . ولكن هذا ايضا يفترض ان الجميع متساوون في الكفاءة لمجرد انهم يحملون نفس المؤهل ، ويفترض انهم متساوون في المبادرة والابتكار والانتاجية ، لمجرد انهم يلقون نفس المعاملة ولكن هذين الفرضين ، ان صدقا في دواوين

---

(٢٠) لا تنطبق بعض هذه السمات ، وخاصة أ ، ج على الجامعات في الكويت والخرطوم والاردن وعلى الجامعتين الامريكيتين ببيروت والقاهرة .

الحكومة الرسمية وفي اعمال الخدمة المدنية ذات الطابع الروتيني ، فانهما قطعا لا يصدقان في العمل الجامعي والبحث العلمي . قد يقال ان نظام الترقية في الجامعات ومراكز البحث العلمي ، والذي يشبه الى حد كبير نظيره في الدول المتقدمة ، كفيل باعطاء المتفوقين فرصا اكبر . ولكن الحقيقة ـ كما اكتشفها هذا الكاتب من عدة مقابلات في جامعات مصر والعراق ـ هي انه حتى الترقيات تتم اساسا على اساس الاقدمية . وان الانتاج العلمي يأخذ دورا ثانويا او ثالثيا . واذا كانت بعض الاقسام والكليات تصر على مراعاة الانتاجية العلمية شكلا ، فان الامر من جانب الاستاذ طالب الترقية لا يتطلب الا مقالة او مقالتين ، او ترجمة احد الكتب الى العربية في السنة التي تسبق او تصادف موعد هذه الترقية .

ويعني كل ما سبق انه لا يوجد في الواقع نظام فعال للحوافز في معظم الجامعات العربية ، وانما توجد مساواة حسابية تعمل ضد المبتكرين وغير المنتجين ـ وهم اغلبية في الوقت الحاضر ، ولا عجب ان المنتجين اقلية وغير المنتجين اغلبية . ولا عجب ان من مصلحة الاغلبية الابقاء على النظام الموجود بلا تغيير حقيقي . في كلمات اخرى لا توجد في الوقت الحاضر معايير مضمونية واضحة للاداء في معظم مجالات العمل التي تشتغل بها عناصر الطاقة البشرية العالية . وليس هناك ادنى شك في تأثير ذلك على تكيف هذه العناصر ـ وخاصة الجيد منها .

٤ ـ علاقات العمل : في غياب معايير عقلانية حقيقية للحكم على اداء العاملين في جهة او مؤسسة معينة ، تصبح علاقات العمل نهبا للاعتبارات الذاتية او الشخصانية او السلطوية . ورغم اننا لم ندرس علاقات العمل السائدة في كل المؤسسات التي تستخدم الطاقة البشرية العالية في البلاد العربية ، الا اننا نستطيع ان نورد بعض الملاحظات العامة المستخلصة من الحالات الجزئية التي درسناها (في مصر والعراق) .

أ ـ غياب البعد المهني المضموني من معظم علاقات العمل السائدة في الجامعات ومراكز البحوث . ونقصد بذلك ان التفاعل الذي يحدث بين العاملين في نفس الميدان في المؤسسة التعليمية او العلمية قلما يكون موضوعه او مضمونه هو مادة العمل نفسها . وقد يرجع هذا الى قلة اهتمام كل منهم بما يقوم به الاخرون من بحوث ودراسات وتجارب . وقد يرجع ايضا الى ضآلة او انعدام ما يقوم به كل منهم ـ وبالتالي عدم وجود مادة حقيقية للتفاعل بشأنها . والتفاعل في مجال العمل يمكن ان يأخذ صور التعاون او المنافسة او الصراع . ومع وجود هذه الصور المختلفة في المؤسسات العلمية العربية ، الا انه نادرا ما يكون موضوعها هو العمل المهني في حقل الاختصاص . واذا حدث تفاعل ـ سواء على صورة تعاون او تنافس او صراع ، فهو يدور حول مسائل شخصية فردية او نقابية في احسن الظروف (مثل التكتل او التعاون للدفاع عن مصالح معينة) .

ب ـ الانشغال الشديد وعدم الاكتراث بما يستحدث في ميدان الاختصاص . لاحظنا ان معظم اساتذة الجامعات منشغلون للغاية بالتدريس فوق نصابهم القانوني (ساعات اضافية) ، او بانشطة خارجية (مثل عضوية لجان حكومية او اعمال خاصة وحرة مثل العيادات والمكاتب الهندسية والمحاسبات والاستشارات) . ففي جامعتي بغداد والقاهرة مثلا وجد هذا الكاتب ان بعض اعضاء هيئة التدريس يقومون بتدريس اربعين ساعة اسبوعيا ، اي حوالي اربعة امثال نصابهم القانوني ، وان بعض هذه الساعات الاضافية قد تكون في البصرة (على بعد ٤٠٠ كيلومترا من بغداد) او في الاسكندرية (على بعد ٢٥٠ كيلومترا من القاهرة) . كما وجدنا معظم اعضاء هيئة التدريس بكليات الطب والهندسة والصيدلة والتجارة والحقوق يقومون باعمال خاصة الى جانب التدريس كل الوقت والتدريس الاضافي . ولا شك ان الانشغال بهذه الصورة يترك علامة استفهام كبيرة حول نوعية اداء هذه العناصر . ولكن بالنسبة لعلاقات العمل فهو يؤدي الى عدم توفر اي وقت يذكر للتفاعل المهني مع زملاء الاختصاص من ناحية ، ولا يترك لهذه العناصر اي وقت يذكر لمتابعة ما يستجد من تطورات في حقول اختصاصهم اقليميا او عالميا من ناحية اخرى . لذلك فان ظاهرة عدم الاكتراث في هذين الامرين هي الطابع الشائع بين الاساتذة .

ج ـ التنافس غير الصحي يصبح نتيجة منطقية وعملية حين تغيب معايير الحوافز والاداء الموضوعية (التي ناقشناها في فقرة سابقة) ، وهذا هو الحال في جزء كبير من علاقات العمل في مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي في معظم البلاد العربية . ويتجلى هذا التنافس غير الصحي في ثلاثة مظاهر على الاقل . اولها التهافت على ساعات العمل الاضافية ، وثانيها التكالب على المناصب القيادية ، وثالثها التسابق في تأليف كتب جامعية هزيلة تباع للطلاب باسعار باهظة . وحيث انه لا توجد ضوابط في هذه المسائل ، وان وجدت فهي مطاطة وسطحية ولا تراعي ، فان النتيجة الحتمية هي تحول هذا الجزء من علاقات العمل الى منافسة مخربة علميا واخلاقيا .

د ـ السلطوية تصبغ جزءا كبيرا من علاقات العمل في المؤسسات موضوع الدراسة . فرئيس الجامعة او مركز الابحاث يملك سلطات واسعة . وهو في العادة حريص على التمسك بها حرفيا ، وتوسيعها كلما امكن ، وعدم تفويض اي جزء منها لمساعديه . وعميد الكلية ورئيس القسم يفعلان نفس الشيء حيال ما لهما من صلاحيات . ولما كان الوصول الى هذه المناصب لا يتم في معظم الحالات طبق اسس موضوعية ، فان هذه الظاهرة تعني ما يلي :

(١) النفاق والمالاة والانتهازية للوصول الى هذه المناصب .

(٢) النفاق والمالاة والانتهازية ممن هم في درجات ادنى من سلم السلطة لخطب ود من هم في اعلى درجات هذا السلم .

(٣) الحجر على نشاط ومبادىء العناصر الشابة والمثالية الراغبة في الانتاج ، او في الاصلاح ، او في تغيير النظام .

وحتى نكون محقين ينبغي ان نقر ان « السلطوية » السائدة في مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي لا يمكن ان ننظر اليها في عزلة عما يجري في المجتمع ككل . فالتسلط في الاولى ما هو الا امتداد وانعكاس لما يجري في مؤسسات المجتمع الاخرى ابتداء من الاسرة وانتهاء بالدولة .



تلك هي العوامل المؤسسية ذات التأثير المباشر على تكيف عناصر الطاقة البشرية العليا . وفي القسم الاخير من هذه الدراسة سنحاول الكشف عن الاساليب والانماط التكيفية التي تأخذ بها هذه العناصر في مواجهة كل من العوامل الهيكلية والمؤسسية في معظم بلدان الوطن العربي .

ج ـ الانماط التكيفية لعناصر الطاقة البشرية العالية

العوامل الهيكلية العامة والعوامل المؤسسية الخاصة هي ـ كما قلنا مرارا ـ سبب ونتاج لحالة التخلف في العالم العربي . وعناصر الطاقة البشرية العالية ، كغيرهم من فئات المجتمع الاخرى ، هم جزء لا يتجزأ من هذه الحالة . فهم ، بضعف انتاجيتهم وتصورهم عن الابتكار الخلاق في تطبيق ما تعلموه لمعالجة هموم مجتمعهم ، يعتبرون جزءا مسئولا عن حالة التخلف العربي . ولكن ضآلة الانتاجية والعجز عن الابتكار الخلاق هما ايضا نتاج لحالة التخلف العامة في المجتمع العربي . وينطبق عليهم في هذه الحالة القول الشائع في الغرب « اذا لم تكن جزءا من حل المشكلة فانت ايضا جزء من سبب هذه المشكلة » . والشاهد هو ان معظم الطاقة البشرية العالية ـ سواء المدربين منهم في الداخل او الذين تلقوا تدريبا في الخارج ـ يبدأون حياتهم العملية المهنية وهم ممتلئون بالمثالية والرغبة في الانتاج والخدمة القومية العامة . وهم بآمالهم ورغباتهم هذه يعبرون عن الالتزام والايمان بالقيم العريضة المعلنة لمجتمعهم وبالمعايير المثالية المشروعة في الاداء لترجمة هذه القيم الى واقع ملموس. والمقصود « بالقيم » هنا تلك الاهداف الكبرى التي يرنو اليها المجتمع ويسجلها في مواثيقه وشعاراته ، ويحاول غرسها وتنميتها في نفوس افراده من خلال التربية والتعليم ووسائل الاعلام وعلى لسان القادة والزعماء . ومن امثلة هذه القيم المرغوبة في مجتمعنا العربي « التقدم » و « الرفاهية » و « العدالة » و « الحرية » و « الشجاعة » اما « المعايير » فالمقصود بها هنا ضوابط السلوك والوسائل المشروعة لبلوغ الاهداف العامة للمجتمع والخاصة للفرد . ومن امثلة هذه المعايير « الامانة » و « العمل الجاد » و « احترام المواعيد » و « الالتزام بالقواعد والقوانين » و « تحمل المسئولية » و « والاعتماد على النفس » .. الخ . والمواطن النموذجي الذي يهدف المجتمع الى خلقه هو انسان يؤمن بالقيم والمعايير في نفس الوقت . وقد حاول بعض علماء الاجتماع (٢١) ان يفهموا الانماط التكيفية التي يلجأ اليها افراد المجتمع من خلال هذين البعدين او المتغيرين ـ القيم والمعايير . وسننحو نحوهم في تحليلنا لانماط التكيف التي يتبعها عناصر الطاقة البشرية العالية في البلاد العربية في مواجهة العوامل الهيكلية والمؤسسية التي عرضناها في الصفحات السابقة .

ويمكن توضيح الانماط التكيفية على اساس تفاعل متغيري «القيم» و « المعايير » من خلال البدائل الممكنة منطقيا والتي نعرضها في النموذج الاتي :

نمط التكيف الذي يأخذ به الفرد	موقفه من القيم (اهداف المجتمع العريضة)	موقف الفرد من المعايير (الضوابط والوسائل المشروعة)
١ ـ الالتزام او المطابقة	+	+
٢ ـ الابتكار	+	−
٣ ـ الطقوسية	−	+
٤ ـ الانسحاب او السلبية	−	−
٥ ـ التمرد او الثورية	±	±

+ = قبول   − = رفض   ± = رفض ما هو شائع مع احلال بدائل له

(٢١) الاشارة هنا هي الى روبرت ميرتون : انظر معالجته لهذا الموضوع في :
Robert Merton: Social Theory and Social Structure. Glencoe: Free Press, (1949, Revised 1957 and 1968), PP 130—133.

١ ـ المطابقة . نمط التكيف الاول هو قبول الفرد لقيم ومعايير المجتمع ، او الاهداف والوسائل المشروعة التي يقرها المجتمع . وكلما التزم عدد اكبر بهذه القيم والمعايير كلما كان ذلك علامة لنجاح المجتمع في تنشئة افراده من ناحية ، وكان مقياسا لاحتمالات نجاح هذا المجتمع في بلوغ اهدافه المعلنة بلا تفسخ مكنوناته من ناحيةاخرى. وكلما نجح الفرد في الاخذ بهذا النمط التكيفي كلما كان اندماجه واسهامه في مجتمعه فعالا وبلا مؤثرات وضغوط نفسية واجتماعية. والمطابقة لنمط تكيفي تصبح ممكنة لعدد كبير من الافراد كلما كانت القيم نفسها : واضحة ومنسقة (غير متناقضة) وواقعية ، وكلما كانت المعايير نفسها : واضحة ومنسقة من القيم من ناحية ومع بعضها البعض من ناحية اخرى ، وواقعية .

بالنسبة للطاقة البشرية العليا ، يأخذ هذا النمط التكيفي صورة الالتزام بقيم التقدم العلمي ، ورفاهية المجتمع ورخائه ، والعدالة ، والحرية (بمفاهيمها السياسية على الاقل) ، وكذلك الالتزام بمعايير العمل الجاد المنتج في حدود القوانين وضوابط السلوك المشروعة . ويمكن القول ان غالبيتهم العظمى تبدأ بهذا النمط التكيفي في المرحلة الاولى من ممارسة حياتها المهنية . فاعضاء هيئات التدريس والباحثون المتخرجون حديثا ، او الذين عادوا لتوهم من الدراسة في الخارج يظهرون ـ عادة ـ طاقة واستعدادا هائلا لتكريس جهودهم وتعبئتها في اعمالهم الجديدة . ولكن الذي يحدث هو اصطدامهم بالعقبات والمشكلات التي تحدثنا عنها كعوامل هيكلية وعوامل مؤسسية . ويكتشف عدد متزايد منهم ان نظام القيم او المعايير المعلن يخفي وراءه نظاما اخر غير معلن . وهنا يلجأ بعضهم الى احد الانماط التكيفية الاخرى .

٢ ـ الابتكار . هذا النمط التكيفي ينطوي على استمرار الايمان او القبول بالاهداف العامة للمجتمع ، ولكن مع عدم الاخذ بالوسائل او المعايير المعلنة . هنا يستحدث الافراد وسائل جديدة او قديمة ولكنها تختلف ، ان كثيرا او قليلا ، عن النظائر المعلنة . ويمكن ان يندرج تحت هذا الاستحداث نمطان فرعيان :

(أ) ابتكار وسائل مختلفة ولكنها صحية . ويتجلى ذلك في ايجاد طرق للتغلب على جمود القواعد والقوانين ، والتحايل على البيروقراطية والروتين ، ولكن دون الاخلال بروح القيم التي ما زالوا يعترفون بها . فالاستاذ او الباحث الذي يحاول الحصول على كتب او مراجع جديدة او اجهزة وكيماويات لازمة لتجارب ولو من خلال التهريب وعدم مراعاة القواعد المنظمة لتداول العملات الصعبة ،يدخل في عداد هذا النمط الفرعي . ونفس الشيء ينطبق على من يدفع ما يسمونه في مصر « بخلو رجل » للحصول على شقة لافتتاح عيادة ، او لتاسيس مسكن ، ليستقر مهنيا وعائليا ولكي يستطيع الاسهام في خدمة الاهداف العامة ـ علما بان دفع مثل هذا « الخلو » يعتبر مخالفا للقانون . والشيء المهم ـ هنا ـ انه حينما تفشل الدولة او المجتمع في توفير التسهيلات او الوسائل المشروعة فان بعض الافراد يلجأون الى وسائلهم الخاصة ولو كانت « غير قانونية » او طبقا للقواعد المكتوبة . ولكن عدم المشروعية القانونية لا يجعل مثل هذه الوسائل الخاصة غير صحية بالضرورة لانها لا تؤدي الى ضرر عام .

(ب) ابتكار وسائل مختلفة ولكنها غير صحية . وهذا ما يسمى عادة « بالانحراف » وهو ينطوي ـ عن قصد او غير قصد ـ على الحاق الضرر بالمصلحة العامة . من امثلة ذلك الاتجار بالكتب واعطاء الدروس الخصوصية والارتشاء وعدم الامانة العلمية . وقد تحدث كل هذا من جانب الفرد رغم قبوله للقيم والاهداف العامة لمجتمعه . وهنا تدخل

ميكانيزمات التبرير مثل الاستاذ الذي يحتاج الى مسكن او سيارة خاصة لكي يستطيع اداء ((واجباته)) المهنية ولكن دخله المشروع ـ بسبب ضآلة الرواتب ـ لا يمكنه من تحقيق هذه الرغبة ، فيلجأ الى اعطاء دروس خصوصية او يقبل رشوة ، على امل ان يكف عن هذا السلوك المنحرف بمجرد تحقيق رغبته المشروعة(٢٢) . ولكن المشكلة هنا هي ان السلوك المنحرف ـ مثل اي سلوك اخر ـ يميل مع الممارسة الى الصمود ويصبح في كثير من الاحيان عادة دائمة .

ان الخط الفاصل بين الابتكار الصحي والابتكار المنحرف لوسائل جديدة مغايرة او مخالفة للوسائل المعيارية المشروعة (اي التي يقرها المجتمع) هو خط رفيع . وفي الواقع العملي قد يختلط هذان النوعان من الابتكار التكيفي . ((فالوساطة)) غير مشروعة وبالتالي مخالفة للقانون . ولكن اللجوء الى وسيط للحصول على ((حق)) للفرد يعتبر ابتكارا صحيا ، بينما الوساطة للحصول على غير حق الفرد ، وخاصة اذا كان يؤدي الى حرمان اخرين ، فتعتبر ابتكارا منحرفا . ويحدث التعقيد في هذا النوع الابتكاري من السلوك لان الفرد قد يبدأ فيه للحصول على حق ، ومع التعود تصبح هذه الوسيلة نمطا للحصول على كل شيء سواء كان حقا او غير حق .. وقد استخدمنا مثل ((الوساطة)) بالذات لان هذه الوسيلة تلعب دورا هائلا في معظم بلادنا العربية التي تشكو من ندرة شبه دائمة في السلع والخدمات . ففي بلاد مثل مصر والسودان وسورية والعراق توجد قيود عديدة على السفر الى الخارج ـ وهو شيء تعتبره معظم عناصر الطاقة البشرية العليا حقا وضرورة ـ لا فقط للانفتاح على العالم الخارجي ومواكبة للتطورات العلمية والفكرية ، وانما ايضا للراحة والاستجمام والاستبضاع (شراء السلع غير المتوفرة محليا) . لذلك يصبح التسابق والتلهف على حضور المؤتمرات وعضوية الوفود الرسمية ميدانا فسيحا لممارسة الوساطة . ونفس الشيء يصدق على الانتدابات والتنسيب للتدريس والعمل في البلاد العربية والاجنبية والمنظمات الدولية . فهذه ، الى جانب الاغراض المذكورة اعلاه اصبحت وسيلة مبتكرة لتدعيم الدخول ومجابهة المشكلات المعيشية التي تترتب على ضآلة الدخول . وقد لاحظنا في هذا الصدد ظاهرة يمكن ان نطلق عليها ((تداول الطاقة البشرية العليا)) بين الدول العربية . فمن المعروف ان الاستاذ المصري او السوداني حين ينتدب للتدريس في العراق فانه يحصل ، لا فقط على راتب اعلى مما يحصل عليه في بلده ، وانما ايضا اعلى مما يحصل عليه زميله العراقي المتساوي معه في المؤهلات والخبرة . ونفس الشيء يصدق على الاستاذ العراقي الذي ينتدب للتدريس في بلد عربي اخر . لذلك نجد ان الاساتذة العراقيين يذهبون الى الكويت والسعودية وليبيا والجزائر ، ويترك هذا بالطبع فراغا في العراق الذي يشكو اصلا من نقص الكوادر العالية ، وبالتالي يستورد العراق اساتذة مصريين وفلسطينيين . ويذهب بعض اساتذة جامعة الخرطوم الى البلاد العربية والافريقية المجاورة ، وتستورد جامعة الخرطوم اساتذة من مصر والعراق وسورية وفلسطين .. وهكذا . ومع ما لظاهرة دوران وتداول الكفاءات هذه من فوائد غير مباشرة في تقوية اواصر الوحدة ، الا انها لم تبدأ ، ولا هي مستمرة ، بهذا القصد . وانما هي وسيلة تكيفية مبتكرة لمجابهة مشكلة ضآلة الرواتب ومشكلة ندرة بعض السلع الاستهلاكية في البلد الاصلي .

٣ ـ الطقوسية . ينطوي هذا النمط التكيفي على عدم الالتزام او الايمان بقيم المجتمع واهدافه لسبب او لاخر ، مع قبول او مسايرة ضوابط السلوك والمعايير المشروعة . فالشخص هنا لا يخالف ولا ينحرف ولا يبتكر ولكنه في نفس الوقت لا يؤمن بينه وبين نفسه بالقيم والاهداف المعلنة لمجتمعه . وهو من هذه الناحية يجنب نفسه مغبة مخالفة القواعد والقوانين من خلال التمسك بشكليات نظام المعايير . لذلك حقت عليه هذه التسمية ـ الطقوسية او الشعائرية . وقد لاحظ كثير من المهتمين بهذه الظاهرة ان هذا النمط التكيفي يغلب على الموظفين في دواوين الحكومة واجهزة الدولة الذين نطلق عليهم بلغتنا الشائعة وصف ((البيروقراطية)) (٢٣) ولكن الجامعات ومراكز البحث العلمي العربية لا تخلو منها ايضا .

وبالنسبة للطاقة البشرية العليا يظهر هذا النمط التكيفي عادة كاحد بدائل الالتزام والمطابقة . فحينما يتعثر الفرد في الاخذ بالنمط الاول ، او لا يستطيع الاخذ بالنمط الابتكاري ، فهو قد يلجأ الى الطقوسية او الانسحاب او التمرد الثوري . وفي بلادنا العربية ، حيث كثرت الانقلابات وتبدل الانظمة في السنوات العشرين الاخيرة ، تعاظم عدد الاخذين بالطقوسية كنمط تكيفي وجودي . فقد يكون الفرد غير راض عن النظام القائم وغير مؤمن باهدافه المعلنة ، ولكنه راغب في التعايش مع النظام لسبب او لاخر ، وبالتالي فهو يتجنب مناوأة النظام وذلك بالاخذ بالاساليب والوسائل والمعايير المعلنة ، او حتى من خلال التأييد اللفظي والتملق والمسايرة .

من حيث الانتاجية الحقيقية او الاسهام الفعلي في تحقيق اهداف المجتمع (كما يتبناها النظام القائم) فان الطقوسيين لا يقدمون الكثير ـ هذا ان قدموا شيئا على الاطلاق . ورغم هذا فهم حريصون على الظهور بمظهر الجدية ، ويتفننون في الدعاية والعلاقات العامة لانفسهم . وهم عادة اول المعبرين عن سخطهم على النظام السابق واول المهنئين والهاتفين للنظام الجديد . وقد عرفت معظم البلاد العربية التي شهدت انقلابات هذا النوع من عناصر الطاقة البشرية العالية ، وتمتلىء بهم مصر في الاونة الحاضرة .

هنا ينبغي ان نميز بعض الانواع الفرعية للطقوسيين . احد هذه الانواع قد يمتلك اصحابها فعلا مقدرات ومهارات علمية وتنظيمية ويكونون مستعدين لتوظيفها لدى أي عهد او نظام جديد في بلدهم ـ بصرف النظر عن اهداف هذا النظام . ويكون شأن هذا النوع شأن ((الخبراء الاجانب)) او فئة التكنوقراط . وقد يكون هناك ما يوجب عدم النظر لهذه الفئة نظرة سلبية خالصة . وما يميزهم في هذه الحالة فهو عدم الانفعال او المشاركة الوجدانية والروحية بما يدور حولهم . وهناك نوع اخر يفرق بين اهداف العهد القائم ـ كنظام سياسي قابل للتغيير والتبديل ـ وبين اهداف المجتمع الكبرى

---

(٢٢) نشرت صحيفة الاهرام القاهرية بتاريخ ٢٢-١١-١٩٧٥ خبرا عن طبيبين مصريين قاما بالتزوير للحصول على مواد مخدرة من مخازن وزارة الصحة لتصنيعها وبيعها لحسابهما الخاص . وقد ذكر احدهما ـ في معرض تبرير هذا السلوك ـ انه في حاجة الى سيارة يستطيع الانتقال بها بسهولة الى عمله وزيارة مرضاه . والرغبة في الحصول على مثل هذه السيارة بالنسبة لطبيب يعيش في القاهرة ـ وما نعرفه عنها جميعا من مشكلات المواصلات الهائلة ـ تجعل من الصعب عدم التعاطف مع هذه الرغبة ، والتي ترتبط اساسا باحد الاهداف الكبرى للمجتمع (الرعاية الصحية) ولكن الوسيلة التي انبعت في هذه الحالة لا تترك مجالا للشك في انحرافهما .

(٢٣) مصطلح البيروقراطية كما استخدمه ماكس فيبر اصلا يعني نظاما لقواعد عقلانية رشيدة لتسيير اجهزة العمل الكبيرة ـ ولكن اللفظ في السنوات الاخيرة اكتسب معاني اضافية سلبية اهمها الروتين البطيء والتحجر وعبادة نصوص القواعد والقوانين بدون الالتفات الى روحها ومغزاها .

والتي هي اكثر دواما . وبالتالي فهو يقنن مشاركته وتعايشه مع النظام بقدر ما يرى ان اسهامه يخدم ، او على الاقل لا يتعارض ، مع القيم المجتمعية الكبرى .

ان الصفة المميزة للطقوسية كنمط تكيفي في حالة كوادر الطاقة البشرية العليا هي احلال اهداف خاصة فردية وانتهازية وتكسبية فوق اي اهداف او قيم مجتمعية . ويتخذ هذا النمط التكيفي مظاهر كثيرة اشرنا الى بعضها كأمثلة في الفقرات السالفة . ويمكن ان نضيف الى ذلك امثلة اخرى كالتملق والمزايدة ، وعرقلة عمل وانتاجية الاخرين (وخاصة الملتزمين) تحت ستار القواعد واللوائح والقوانين . ويقاسي عدد كبير من شباب العلماء والباحثين – في اوائل حياتهم العملية من هذا النوع الطقوسي الذي لا يهتم حقيقة بالاهداف العامة للمجتمع ، ولا يكف الطقوسيون عادة عن عرقلة غيرهم من المنتجين المثاليين الى ان ييأس هؤلاء الاخيرون ويلحقوا نفس الركب الطقوسي، او « ينسحبوا » او « يتمردوا » او « يبتكروا » وسائل بديلة (تحدثنا عنها في الفقرة ٢ اعلاه) للتحايل على هذه العراقيل .

٤ – الانسحاب او السلبية . النمط الرابع من انماط التكيف ينطوي على رفض او عدم قبول كل من القيم (الاهداف المجتمعية المعلنة) والمعايير . ويعني ذلك عدم المشاركة شكلا وجوهرا . فاذا كان النمط الابتكاري ينطوي على رفض الوسائل مع الايمان بالاهداف ، واذا كان النمط الطقوسي ينطوي على مراعاة الوسائل مع عدم الايمان بالاهداف ، فان النمط الانسحابي يعني رفض الاهداف والوسائل معا . والانسحاب الذي نعنيه هنا قد يكون حقيقيا ماديا ، وقد يكون مجازيا .

وبالنسبة للطاقة البشرية العليا يتجلى الانسحاب الحقيقي المادي في هجر البلد العربي اما الى قطر عربي اخر او الى بلد اجنبي. وهذا النوع الاخير من الهجرة هو ما تعارف الكتاب على تسميته هجرة الكفاءات او نزيف الادمغة » .

اما الانسحاب المجازي فيتجلى في التقوقع والسلبية وعدم المشاركة او التظاهر بالمشاركة فيما يدور من انشطة مؤسسية. وتسمح كثير من القوانين واللوائح في عدد من البلاد العربية باستمرار هذا النوع في « وظائفهم » لمدد طويلة دون فصل او محاكمة او تأديب. وحتى حين تتخذ اجراءات من هذا القبيل فقد تستغرق سنوات . والذي يتعرض لها هو ، اصلا ، غير مهتم وغير مكترث بنتيجة مثل هذه الاجراءات على اي حال ، حيث يكون قد طفح به الكيل . (٢٤)

وقد يكون مثل هذا الانسحاب المجازي فترة انتقالية تتلوها الهجرة الى الخارج ، او التصوف ، او العودة مرة اخرى الى تيار الحياة المؤسسية . والانسحاب المجازي ، هو كظاهرة التغيب فيعمليات التصويت في الديموقراطيات الغربية ، قد يكون علامة لليأس من فعالية النظام القائم او احتجاجا رمزيا على هذا النظام بما يمثله من قيم ومعايير .

واخيرا ، قد يأخذ الانسحاب مظهرا دراميا متطرفا كما في حالات الانتحار او الامراض النفسية والعقلية – وهذه كلها تكاد تكون وقفا على عناصر الطاقة البشرية العالية في العالم العربي .

٥ – التمرد والثورة : النمط الاخير الذي قد يلجأ اليه الافراد كرد فعل للهيكل الاجتماعي والمؤسسي القائم هو التمرد والثورة ومحاولة التغيير الجذري لما هو قائم . يشترك هذا النمط التكيفي مع النمط الانسحابي في رفضهما للقيم والمعايير التي يعتبرانها بالية . ولكن النمط التمردي ينطوي على البقاء في معمعة المجتمع والعراك الواعي – بشكل او باخر – في تغيير الاوضاع البالية واستبدالها بقيم او معايير جديدة . – وفي حالات كثيرة تكون القيم والمعايير الشرعية المعلنة محل رضاء وتأييد من هذه العناصر ولكنها من واقع الممارسة اليومية العملية لا يلتفت اليها من قبل الرؤساء والزملاء . في هذه الحالات يكون التمرد هو لمجرد تأكيد تلك القيم والمعايير والاصرار على الاخذ بها عملا وعدم الاكتفاء بها قولا .

بالنسبة للعناصر الشابة من الطاقة البشرية العليا يغلب ان يكون هذا النمط التكيفي هو ما يأخذون به لمجابهة العوامل الهيكلية والمؤسسية السلبية ، ويمكن هنا ان نميز بين نوعين داخل هذا النمط التكيفي .

أ – التمرد على القيم والمعايير المعلنة بواسطة النظام الاجتماعي السياسي القائم . ويحدث هذا عادة في البلاد العربية التي ما زالت تسيطر على قمة السلطة فيها انظمة محافظة وتقليدية (او كما كان يطلق عليها في الستينيات انظمة رجعية) . ويأخذ التمرد في هذه الحالة صورا عديدة : منها العمل السياسي السري او العلني ، او محاولة رفع الوعي عن طريق الكتابة والتدريس والمحاضرات العامة ، وصنوف الثقافة المختلفة من شعر وقصة وادب دون الانتماء الى تنظيمات سياسية .

ب – التمرد على الهيكل والمؤسسات التي ما زالت روحها تجسم قيما ومعايير بائدة رغم تبني قمة السلطة لقيم ومعايير جديدة . ويحدث هذا عادة في البلاد العربية التي شهدت تحولات ثورية ، ورفعت شعارات ومبادىء جديدة تؤيدها العناصر الشابة من الطاقة البشرية العالية . فهنا نجد انه رغم استحداث قيم ومعايير تقدمية الا ان هذه لم تترسب بعد في عقول وقلوب عدد كبير من قدامى النافذين الذين يظلون في المستويات تحت العليا والوسطى في اجهزة الدولة . وهؤلاء ، وخاصة الطقوسيون منهم ، ليس منالسهل تغييرهم او ازاحتهم في السنوات الاولى التي تعقب تبدل قمة السلطة من الصيغة التقليدية المحافظة الى الصيغة الثورية . وقد ظلت هذه مشكلة عويصة في البلاد العربية التي حدث فيها تغيير ثوري في القمة بدون مشاركة الجماهير ، او عن غير طريق حزب ايديولوجي منظم . وتكون النتيجة في هذه الحالات اما تعويق او تخريب محاولات التغيير الثوري لمؤسسات المجتمع حتى لا تتواءم مع القيم والمعايير الثورية المعلنة .

تلك الانماط التكيفية الخمس التي يلجأ اليها الافراد ، والتي عرضت هنا كما لو كانت نماذج خالصة ، هي اساسا ادوات مفهومية لتخليص وتبسيط عمليات تكيفية معقدة ، في مجتمع عربي كثيف بالتواءاته وظلاله التاريخية والمعاصرة ويهمنا – لذلك – ان نؤكد عدة نقاط قد تكون قد غمضت او ضاعت في ثنايا هذا العرض الطويل .

النقطة الاولى ، هي ان افراد الطاقة البشرية العليا هم نتاج لواقعين حضاريين مختلفين . احدهما وهو الواقع العربي متخلف ، وان يكن بدرجات متفاوتة من بلد عربي الى بلد عربي اخر . وثانيهما وهو الواقع الحضاري الغربي « متقدم » وان تكن محتويات ومضامين هذا التقدم محل خلاف وجدل مشروع . ولكن الاساس هنا هو ان هذه

(٢٤) من الامثلة البارزة لهذا النوع احد اساتذة الجغرافيا الذائعي الصيت مصريا وعالميا ، ورئيس احد اقسام كلية الهندسة بجامعة اسيوط .

الشراكة تجعل المثقف العربي (وخاصة الذي تلقى تعليمه في الخارج) انسانا « هامشيا » بالمعنى السوسيولوجي البحت ، وهذا يجعله نهبا لضروب قاسية من الصراعات الداخلية : التزاماته الاخلاقية والقومية تشده الى وطنه ، ولكن توقعاته المعيشية تشده ـ حقيقة او مجازا ـ الى خارج وطنه ، تدريبه وتعليمه وقدراته توحي وتوجب بان يكون عنصرا فعالا في صياغة احلام كبرى لوطنه ، وترجمة هذه الاحلام الى خطط وبرامج قابلة للتنفيذ ، ولكن نوعية هذا التعليم تجعله في كثير من الاحيان مستحيلا او صعب التطبيق ، اذا هاجر وعاش بعيدا عن وطنه فهو تعيس ، وان عاد وعاش في وطنه فهو تعيس ـ وكأنما كتب عليه الشقاء اينما حل .

والنقطة الثانية ، هي ان انماط التكيف الاربعة الاخيرة (الابتكار، الطقوسية ، الانسحاب ، والتمرد) تعتبر ردود فعل « طبيعية » من جانب الافراد لظروف مجتمعية « غير طبيعية » . فكثير من انماط التكيف المذكورة يأخذ بها الافراد ، بما فيهم الطاقة البشرية العالية ، في كل المجتمعات ، بما فيها المجتمعات الغربية (التي توصف عادة بانها متقدمة) ، حينما تتعرض هذه المجتمعات لنفس الضغوط والتفسخات الهيكلية التي تحدثنا عنها في القسمين الاول والثاني من هذه الدراسة (١٥) وفي كلمات اخرى ، فان السلوك التكيفي لاي فرد او جماعة هو مجرد رد فعل لعوامل هيكلية ومؤسسية مباشرة او غير مباشرة . وهذا يعني ان نمط التكيف « الامثل » لخدمة قضية التنمية في العالم العربي هو رهن بتغيير تلك العوامل . ولكل تغيير «ثمن» لا بد من دفعه . لذلك يصبح السؤال الحاسم هو : هل هذا البلد العربي او ذلك مستعد لدفع هذا الثمن ، او هل البلاد العربية مجتمعة مستعدة للاشتراك في دفع الثمن المطلوب ؟

النقطة الثالثة خاصة بشكل ومضمون « الثمن » المطلوب . في اعتقادنا ان الاسهام الحقيقي الفعال للطاقة البشرية العالية في تنمية المجتمع واثراء حصيلته العملية والتكنولوجية والتنظيمية لم يتم بنجاح (خلال القرن الماضي والقرن العشرين) الا في ظل نظامين واضحين في معالمهما وقيمهما الاجتماعية : وهما النظام الرأسمالي الغربي(٢٦) والنظام الاشتراكي الماركسي . وكلاهما صاغ برامجه التعليمية وانشطة البحث العلمي بطريقة واضحة لخدمة اهدافه العامة ، وفي ضوء ذلك انتج الطاقة البشرية المطلوبة على كل مستوى. وكلاهما ـ وهذا هو المهم ـ دفع الثمن المطلوب . والمسألة هنا لا ترتبط بحجم الثروة القومية المطلقة بقدر ما ترتبط باولويات وطريقة تخصيص هذه الثروة في برامج الاستثمار المادي والبشري . والبلاد العربية سواء منفردة او مجتمعة ما زالت تتخبط في البحث عن الصيغة المناسبة للتنمية الشاملة والسريعة . وهي في ذلك شأنها شان « الرجل الهامشي » : تريد شيئا من هنا وشيئا من هناك ، بعضها يرسل آلاف المبعوثين للدراسة والتدريب في الغرب الرأسمالي ثم يطالبونهم بالممارسة والتكيف مع نظام اشتراكي او شبه اشتراكي ، وبعضها يفضل الرأسمالية في الاقتصاد ولكنه لا يسمح بالليبرالية في السياسة مع ان الاثنين يرتبطان منطقيا وتجريبيا .. الى اخر المعزوفة غير المنسجمة .

وهذا يسوقنا الى خلاصة اعتقد بصحتها تماما في العالم العربي وهي : ان اي مشكلة موجودة في مجتمعنا في الوقت الحاضر بلا حل هي كذلك لان المجتمع أو المسيطرين على السلطة فيه لا يريدون لها حلا . او بتعبير ادق تستمر اي مشكلة في التواجد لعدم الرغبة والاستعداد لدفع الثمن المطلوب لحلها . وينطبق ذلك ، لا فقط على مشكلة الاستفادة من الطاقة البشرية العالية ، وانما على كل مشكلاتنا : ابتداء من محو الامية والتكدس الحضري واهمال الريف الى تحرير الجولان وسيناء وفلسطين .

د . سعدالدين ابراهيم

استاذ علم الاجتماع بالجامعة الاميركية بالقاهرة

---

(٢٥) مثلا ، حينما واجهت الولايات المتحدة نقصا شديدا في مواد الوقود والمشتقات النفطية نتيجة الحظر العربي عام ١٩٧٣ ، كان سلوك عدد كبير من الافراد مشابها لسلوك اي مواطن عربي في الاقطار العربية التي تشكو من ندرة بعض الخدمات والمواد الاستهلاكية (الوساطة ، التحايل ، الرشوة ، العنف .. الخ) . كذلك نجد ان الجامعات الامريكية التي تشكو حاليا من حالة كساد مالي وبشري بدأت تفرز انماطا سلوكية بين اعضاء هيئاتها التدريسية مشابهة لبعض الامثلة التي ذكرناها عن نظائرهم في الوطن العربي .

(٢٦) بما فيه اليابان .

د . مهدي محمد علي

معضلة القوى العاملة في العالم العربي : تجربة الماضي وتطلعات المستقبل

لقد نتج(*) عن ارتفاع اسعار النفط في بداية عام ١٩٧٤ ارتفاع كبير في موارد الدول العربية المنتجة للنفط ، ومن المتوقع بانه سيكون لهذا الارتفاع تأثير جوهري على اقتصاديات تلك الدول وكذلك على بقية انحاء العالم العربي . ولقد بدأ هذا التأثير يأخذ مجراه في الزيادات المتدفقة في المصروفات الحكومية في الدول المنتجة للنفط وكذلك في الاستثمارات الضخمة التي تقوم تلك الدول بالاستعداد لتنفيذها في العقد القادم من الزمن . وزادت كذلك المساعدات المالية من الدول النفطية الى الدول العربية غير النفطية ، وهناك دلائل تشير الى احتمال ازدياد هذه المساعدات في المستقبل . ان استثمارات الدول العربية خلال العشر سنين القادمة قدرت ما بين ٣٠٠ الى ٤٠٠ مليار من الدولارات الامريكية . وبما ان نقص الموارد المالية ليس هو العقبة التي ستحول دون استثمار هذه الاستثمارات فان نقص الايادي العاملة سيكون العقبة الاساسية . لماذا سيحدث هذا النقص في القوى العاملة ؟ وما هي الوسائل التي من الممكن اتباعها لتخفيف حدة هذا النقص ؟ سيكون هذا هدف هذه المقالة : القاء ضوء على هذه المشاكل ودورها في مستقبل التنمية في العالم العربي ، لمعرفة نمو المصادر البشرية في الماضي والوضع الحالي للقوى العاملة وتطلعات المستقبل .

بما ان ارتفاع اسعار النفط بدأ في بداية عام ١٩٧٤ فان هذا التاريخ يمثل بداية عصر جديد . ولذلك فان هذا التاريخ سيكون الحد الفاصل بين الماضي والحاضر . وبالرغم من التشابه الحضاري فان اقتصاديات العالم العربي اليوم تتميز بالتفاوت الكبير في وفرة مواردها الطبيعية والبشرية ، وكذلك في درجة نموها الاقتصادي والاجتماعي وان هذا الاخير يعود الى حد ما الى الاختلاف في طبيعة قوى السيطرة الاستعمارية في الماضي ولاختلاف الفلسفات السياسية والاقتصادية التي سادت منذ عهد الاستقلال . والامثلة على اختلاف هذه الاقتصاديات عديدة . فهناك دول ذات كثافة سكانية خفيفة كالمملكة العربية السعودية (٥ ، ٢ فرد لكل كيلو متر مربع) و ٥ دول اخرى ذات كثافة سكانية عالية كالبحرين (٣٤٥ فردا لكل كيلومتر مربع) وهناك دول نفطية واخرى غير نفطية فقيرة يتراوح دخل الفرد السنوي فيها حوالي ١٠٠ دولار امريكي كما في اليمن . واخرى غنية يصل دخل الفرد السنوي فيها حوالي ٢٢،٠٠٠ دولار امريكي كما في دول الامارات العربية المتحدة . وهناك بعض الدول التي لديها نسبة ضئيلة من الامية كما في لبنان حيث تبلغ نسبة الامية حوالي ٣٠ بالمئة بينما هناك بعض الدول كاليمنين تتراوح نسبة الامية فيها بين ٨٠ و٩٠ بالمئة . اما الاختلاف بين الدول العربية في الفلسفات الاقتصادية والسياسية فهو من الوضوح بحيث لا يستدعي اية امثلة .

ان العالم العربي مهد الحضارات العظيمة بزغ في مطلع هذا القرن وهو بقعة ترزح تحت اشكال متعددة من النفوذ الاجنبي ويعيش اغلبية سكانه في اقتصاد زراعي بدائي وسود الفقر والامية . مع ذلك فقد وجدت انذاك درجة محدودة من التصنيع الحديث في بعض اجزاء الوطن العربي كما في صناعات نسج الاقطان وطحن السكر وتصفيته كما هي الحال في مصر ، ونسج الاقطان والمشروبات وانتاج وتصفية النفط في العراق ، وصناعات انتاج النفط في السعودية واستخراج المعادن في دول المغرب . منذ ذلك الوقت تركزت جهود التنمية على الوصول الى هدف التحويل النهائي لاقتصاديات الدول العربية الى اقتصاديات صناعية معتمدة على نظام السوق ، وذلك عن طريق ادخال الصناعات الحديثة والثقافة العصرية والادارة الحكومية العصرية .

ولقد تميز النمو الصناعي والاداري والثقافي في الوطن العربي بالبطء حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية . وانتهاء الحرب العالمية الثانية يمثل نقطة تحول بالنسبة لاقتصاديات العالم العربي . فقد بدأ انتاج النفط بالازدياد السريع وتوسعت عمليات التنقيب عنه . ففي عام ١٩٥٢ مثلا كان انتاج النفط يعادل ٤٦ مرة مستوى الانتاج لعام ١٩٤٦ في الكويت و٤ مرات في العراق و١٤ مرة مستوى ١٩٤٥ في السعودية و ٣٥ مرة مستوى ١٩٤٩ في قطر . وقد ادخلت صناعات حديثة في مناطق مختلفة من الوطن العربي وتوسعت الصناعات القائمة بصورة سريعة . ففي عام ١٩٥١ مثلا كان الانتاج الصناعي في مصر يعادل ١٤٠ بالمئة من مستوى الانتاج وقد زاد بصورة مطردة بمعدل ٧ بالمئة سنويا خلال عام ١٩٧٠ . وفي عام ١٩٥٢ بدأ توسع مطرد في الصناعات غير النفطية في العراق كصناعة السمنت والمشروبات . وفي دول المغرب حيث الصناعات الكبيرة

(*) ان الاراء التي طرحت في هذه المقالة تمثل وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر البنك الدولي للانشاء والتعمير .

كانت غير معروفة تقريبا قبل عام ١٩٤٥ ، ازداد الانتاج حوالي ثلاثة اضعاف خلال ٩٤٤ — ١٩٤٩ في تونس ، وازداد بمعدل ٧ بالمئة سنويا خلال ١٩٤٨ — ١٩٥٤ في الجزائر . وبدأ استثمار صناعي كبير خاصة في صناعة الاغذية في المملكة المغربية خلال السنوات ١٩٤٨ — ١٩٥٧ . وقد صاحب هذه التطورات الاقتصادية تطورات اجتماعية وخاصة في حقل التربية والتعليم والخدمات الصحية . وحدث توسع مطرد في مؤسسات التربية والتعليم بصورة خاصة استجابة للتوسع الكبير في الطلب عليها . وهذا يعود لنظرة السكان الى التربية والتعليم كأحدى وسائل تحسين مستوى المعيشة وكذلك كونها الوسيلة المساعدة على الاسراع في الحصول على الاستقلال السياسي من خلال تثقيف ابناء البلد المحليين واحلالهم محل الاجانب في ادارة شؤون الدولة .

والاهم من ذلك ان سنوات ما بعد الحرب مثلت بداية حلقة من التطورات السياسية ذات الاثر الكبير على اقتصاديات العالم العربي وبالتالي على اوضاع القوى العاملة . ان النكبة العربية بخسارة فلسطين في عام ١٩٤٨ شددت عزم العرب للحصول على الاستقلال وبناء كيان اقتصادي واجتماعي واداري سليم في الدول العربية . والتغيرات السياسية الهامة في الخمسينات حدثت في جمهورية مصر العربية (١٩٥٢) وفي السودان (١٩٥٦) وفي تونس (١٩٥٦) وفي المملكة المغربية (١٩٥٦) وفي العراق (١٩٥٨) وقد حدثت كذلك تغيرات سياسية هامة في الستينات في الكويت (١٩٦٠) وفي الجمهورية اليمنية (١٩٦٢) وفي الجزائر (١٩٦٢) وفي المملكة العربية السعودية (١٩٦٤) وفي ابي ظبي (١٩٦٨) وفي جمهورية اليمن الديمقراطية (١٩٦٧) وفي ليبيا (١٩٦٩) . واقتصرت بعض هذه التغيرات على تحول القيادة السياسية الى اياد محلية والبعض الاخر اشتمل على انتقال السلطة من اياد محلية معينة الى اخرى . واتسم بعض هذه التغيرات بالعنف والبعض الاخر بالسلم ، وبعضها حقق الاهداف التي اعلنت عنها عند حدوثها والبعض الاخر فشل في تحقيق ذلك . وليس هدفنا هنا تقييم منجزات التغيرات السياسية هذه . فعلى الرغم من اختلاف طبيعتها فانها اتفقت على هدف واحد ، وهو الرغبة في تحسين الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للسكان المحليين واعطائهم دورا اكبر في ادارة اوضاعهم الاقتصادية والسياسية . وقد وضعت القيادات الجديدة هذه برامج معينة لتحقيق هذا الهدف . وكان لتنفيذ هذه البرامج اثار اقتصادية واجتماعية بالغة الخطورة . وهذه بدورها لعبت دورا اساسيا في تحديد حجم ونوعية القوى العاملة السائدة اليوم . كما ان هذه البرامج تعتبر المسؤولة الى حد معين عن انعدام التوازن بين طلب وعرض القوى العاملة وهو السائد اليوم .

التغير في تركيب اقتصاديات الدول العربية :

لقد عملت التنمية الاقتصادية والاجتماعية خلال العقدين الماضيين على الاسراع في عملية التحول في تركيب اقتصاديات الدول العربية من اقتصاديات زراعية بدائية الى اقتصادية تسودها الصناعة والخدمات . لهذا فان الدور الرئيسي الذي يلعبه قطاع الزراعة في هذه الاقتصاديات بدأ في الانخفاض ليحل محله قطاعا الصناعة والخدمات . وعلى الرغم من انخفاض دور القطاع الزراعي فان انتاجيته استمرت بالزيادة المطلقة وذلك لاستمرار الاستثمارات في هذا القطاع خاصة في الري واستصلاح الاراضي والمكننة وتحسين البذور وتوفير الخدمات والقروض الزراعية الخ .

اما نسبة الصناعة والتعدين فقد بدأت بالارتفاع في اغلبية الدول العربية وكذلك الحال بالنسبة لقطاع الخدمات عدا الدول النفطية الكبيرة حيث ان النمو الكبير في انتاج البترول ادى الى انخفاض نسبة مشاركة قطاع الخدمات في الدخل المحلي كما هو الحال في المملكة العربية السعودية والجزائر .

ولقد صحبت هذه التطورات الاقتصادية تطورات اجتماعية كبيرة خاصة في حقل التربية والتعليم والى حد اقل في حقل الخدمات الصحية والسكنية . واعطى لحقل التربية والتعليم اهتمام كبير كمصدر اساسي في توفير القوى العاملة اللازمة لاستحداث جهاز اداري عصري وكذلك لتنفيذ البرامج الاقتصادية والاجتماعية. وكنتيجة لذلك فقد شهد حقل التربية والتعليم نموا سريعا في كافة انحاء الوطن العربي .

جانب القوى العاملة في التنمية في العالم العربي :

سنحاول في هذا الجزء معرفة الدور الذي لعبته التنمية في تطوير الموارد البشرية العربية ومدى استفادة هذه الموارد من التقدم المحرز في حقل التنمية الاقتصادية والاجتماعية وكذلك مدى تهيئة هذه الموارد لكي تقوم بالمساهمة الفعالة في مستقبل التنمية . سنحاول بصورة خاصة مناقشة ما يلي :

١ — تطور وطبيعة الطلب على القوى العاملة .

٢ — تطور وطبيعة عرض القوى العاملة .

٣ — علاقة العرض والطلب على القوى العاملة .

٤ — ظروف الاستخدام في العالم العربي .

٢ — تطور وطبيعة عرض القوى العاملة :

ان هدف التنمية في العالم العربي هو التحول النهائي من اقتصاديات تعتمد على زراعة بدائية الى اقتصاديات تسودها الصناعة والخدمات ولديها زراعة متقدمة وشبكة مواصلات حديثة وكذلك مستوى تعليمي وصحي حديث وواسع الانتشار ومستوى سكني وخدمات اجتماعية اخرى . ولقد نتج عن هذه الجهود حاجة متزايدة الى القوى العاملة المدربة للقيام بهذه الاعباء . لذلك فان الحاجة الى القوى العاملة الماهرة بدأت في القرن التاسع عشر في بعض اجزاء العالم كمصر ودول المغرب . ولكن بدأت هذه الحاجة بالازدياد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية نتيجة للاسراع في تنفيذ برامج التنمية والتغير في طبيعتها من مشاريع بسيطة التكنولوجيا الى اخرى معقدة . وكنتيجة لذلك فقد بدأ التزايد في الحاجة الى اداريين ومهندسين ومدرسين واطباء وخبراء زراعيين وفنيين اخرين وكذلك الى الكثير من العمال الفنيين الماهرين . وبالرغم من ان التزايد في الحاجة الى القوى العاملة قد ينتج اما عن التزايد في النشاطات الانمائية او التغير في طبيعتها فان مغادرة العديد من الاجانب بعد الاستقلال السياسي لبعض الدول العربية قد ادى الى ازدياد الحاجة الى القوى العاملةالماهرة لتشغيل وسائل الانتاج التي تركها هؤلاء الاجانب .

وكون النشاطات الانمائية في العالم العربي في أي وقت من الاوقات قد تفاوتت من منطقة الى اخرى فان ذلك ادى الى تفاوت في الحاجة الى القوى العاملة بين هذه المناطق . ففي خلال الخمسينات مثلا اصبحت الحاجة الى القوى العاملة خاصة العمال الصناعيين والفنيين والمهندسين شديدة في العراق بسبب الاسراع في برامج التنمية في عام ١٩٥١ وخلال الاعوام ١٩٥٢ — ١٩٥٥ (اي سنوات البرنامج الانمائي الخماسي) . وبسبب انعدام الوسائل التعليمية في ليبيا ما قبل الاستقلال فان استقلالها في عام ١٩٥١ قد ادى الى حاجة ماسة وكبيرة الى مختلف انواع القوى العاملة

كالعمال المهرة ومختلف أنواع الفنيين ومدراء الاعمال . وحصلت نفس التجربة في الكويت حيث ظهرت الحاجة الى كافة انواع القوى العاملة الفنية وغير الفنية ، وكذلك في تونس والمملكة المغربية بعد الاستقلال في عام ١٩٥٦ وذلك بسبب مغادرة العديد من الخبراء الفرنسيين .

اما خلال عقد الستينات وبداية السبعينات فان العالم العربي من وجهة نظر القوى العاملة كان مقسما الى قسمين اساسيين : قسم يحتوي على الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة كالكويت والمملكة العربية السعودية وليبيا وابو ظبي وقطر وعمان ، وقد اتصفت هذه الدول بسرعة النمو الاقتصادي ومستوى الاستخدام وكذلك بالاسراع في برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية . اما القسم الثاني فهو يشتمل على بقية العالم العربي وقد اتصف ولاسباب سياسية بنمو اقتصادي ضئيل مقارنة بدول القسم الاول وكذلك بارتفاع نسبة البطالة . وان ابتداء انتاج النفط في ليبيا في عام ١٩٦١ وفي عام ١٩٦٢ في أبي ظبي وفي عام ١٩٦٩ في دبي قد تبعه ارتفاع شديد في برامج الاستثمار في تلك الدول ، والاهم من ذلك ان التغيرات التي حدثت في القيادة السياسية في المملكة العربية السعودية في عام ١٩٦٤ وفي أبي ظبي في عام ١٩٦٦ وفي ليبيا في عام ١٩٦٩ قد جلبت قيادات سياسية على العكس من سابقتها بفعل التطور الاقتصادي والاجتماعي السريع .

وكانت الحاجة الى القوى العاملة في عقد الستينات اشد الحاحا في الدول النفطية السريعة النمو وذلك لانعدام القاعدةالعمالية المتطورة لديها . وشملت حاجتها كافة أنواع القوى العاملة الفنية وغير الفنية . وكانت الحاجة الى القوى العاملة الفنية خلالالستينات ملحة ايضا في الجزائر وذلك بسبب مغادرة الخبراء والعمال الفرنسيين الماهرين بعد الاستقلال في عام ١٩٦٢ .

أما بقية الدول العربية فان نموها البطيء قد ادى الى أن حاجتها الى القوى العاملة قد اقتصرت على التزايد في بعض الاختصاصات الضيقة والنادرة وذلك بسبب التغير في طبيعةالاستثمار في هذه الدول والذي اشتمل على تبني انواع متقدمة من التكنولوجيا خاصة في الصناعة (كما هو الحال في مصر والعراق والاردن والمملكة المغربية) وكذلك لابتداء الاستثمار في حقول اقتصادية جديدة كحقل السياحة في المملكة المغربية وتونس .

٢ ـ تطور وطبيعة عرض القوى العاملة :

ان الحاجة الى القوى العاملة لتطوير قطاعات الصناعة والخدمات وكذلك لبناء جهاز اداري حديث قد تم توفيره من مصادر عدة من ضمنها ما يلي :

أ ـ الهجرة من الريف الى المدن

ان هذا من أهم مصادر القوى العاملة في الوطن العربي ، وان لهذه الهجرة أسبابا عديدة منها انتشار الفقر في الريف وظاهرة ارتفاع مستوى المعيشة في المدن . وبالرغم من أن ظاهرة الهجرة تعود الى القرن التاسع عشر فانها مستمرة حتى اليوم . والحقيقة هي أن الهجرة من الريف الى المدينة قد زادت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بسبب الاسراع في برامج التنمية في العالم العربي ، وبما ان جهود التنمية قد تركزت على مناطق المدن واعطت اهتماما ضئيلا بمناطق الريف فان ذلك ادى الى اتساع التفاوت في مستوى المعيشة بين الريف والمدينة . وبالاضافة الى ذلك فان التحسن في وسائل المواصلات قد ادى الى سهولة الهجرة من الريف الى المدينة . وكنتيجة لذلك فان عدد سكان المدن في العالم العربي هو في ازدياد مطرد مع ذلك فان هذا المصدر من القوى العاملة قد تميز بنسبة عالية من الامية وانعدام المهارة . لذلك فان استخدامه قد اقتصر على الاعمال غير المهنية كالبناء كما ان عرض القوى العاملة في هذا المصدر كان أكثر من الطلب ، مما ادى الى تفشي البطالة العلنية والمقنعة في المدن كما هو الحال في كافة الدول العربية تقريبا ، عدا الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة ، بالاضافة الى ذلك فان هذا المصدر تميز باجوره القليلة وانعدام ضمان توفير الاستخدام له . وكنتيجة لذلك فقد تميز بمستوى معيشي وسكني منخفضوبانعدام الخدمات الاجتماعية وقد عانى بصورة كبيرة من التضخم فيالاسعار الذي اجتاح المدن .

ب ـ مصادر العرض الاخرى :

والمصدر الاخر للقوى العاملة هو الزيادة الطبيعية في السكان العاملين . وقد تضخم هذا المصدر بارتفاع نسبة مساهمة الاناث في العمل وكذلك بالارتفاع العام بالمساهمة في العمل نتيجة لتحسن وجهة نظر السكان تجاه العمل اليدوي . وبما ان عرض القوى العاملة الماهرة من هذا المصدر قد جاء عن طريق نظام التنظيم وكذلك عن طريق التدريب خلال العمل فاننا سوف نناقش حجم وطبيعة عرض القوى العاملة الناتج عن هذه المصادر . وأخيرا سوف نناقش المصدر الاخر لعرض القوى العاملة وهو القوى العاملة غير العربية .

١ ـ نظام التعليم

يمكن تقسيم نظام التعليم الى قسمين : التعليم العام والتعليم المهني .

١ ـ التعليم العام

لقد تم الاعتماد على هذا المصدر اعتمادا كبيرا لتوفير المطلوب من القوى العاملة وخاصة من قبل حكومات بعد الاستقلال . وكنتيجة لذلك فان غرض القوى العاملة الناتج عن نظام التعليم بدا في النمو السريع وخاصة في السنوات الاخيرة . وكان النمو سريعا جدا بحيث ان عدد الخريجين والتاركين للدراسة قد فاق الطلب عليهم في كافة الدول العربية عدا النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة . ويعود السبب الى كون اغلبية الخريجين هم في الحقول الانسانية او من خريجي الدراسات الاعدادية العامة ومن التاركين دراستهم في المدارس العامة دون أي اختصاص او مهارة .

ان ارتفاع نسبة البطالة بين المثقفين دفع بعض الحكومات الى تبني سياسات ضمان العمل لكل خريج جامعي في القطاع الحكومي (بغض النظر عن مدى الحاجة الى خبرته) كما هو الحال في مصر والكويت والسودان والعراق مما ادى الى اضافة حلقات جديدة من الموظفين الى اجهزة الدولة في مصر . وادى ذلك أيضا الى ارتفاع حجم البطالة المقنعة وتدهور المعنويات بين العاملين وانخفاضانتاجياتهم وبالتالي سوء توزيع الموارد . فقد ورد بأن ٣٠ بالمائة من جهاز الدولة في مصر يمثل بطالة مقنعة . أما العاطلون من الخريجين فقد غادر بعضهم الى الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة واخرون الى بلدان خارج العالم العربي .

والمثال على السابق هو الهجرة من مصر ولبنان والاردن والسودان وسوريا الى ليبيا والمملكة العربية السعودية والكويت وبقية اقطار الخليج العربي بينما المثال على اللاحق هو الهجرة من دول المغرب ومصر والعراق ولبنان الى اوروبا الغربية وامريكا الشمالية .

وبالرغم من انخفاض مستوى انتاجية هذا المصدر وبالتالي حاجته الى المزيد من التدريب فان هذا المصدر يتمتع بنظرة انتاجية افضل من أي مصدر اخر . ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان هذا المصدر قد تمتع بمستوى عال من الدخل عدا حالته في الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة . لذلك فان ارتفاع مستوى الاجور في تلك الدول وخارج العالم العربي قد ادى الى اغراء هذا المصدر بالهجرة للحصول على عمل في الخارج .

٢ ـ التعليم المهني :

ان الحاجة الى الخبرة والمهارة الفنية والتي بدأت منذ دخول الصناعات الحديثة الى العالم العربي قد ادت الى تأسيس المعاهد المهنية لتوفير ما يلزم من الخبرة من السكان المحليين . لذلك فان المعاهد المهنية والفنية ليست جديدة في العالم العربي . ولكن تطور هذه المعاهد بقي منخفضا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب النمو الصناعي البطيء والاعتماد الكبير على الخبرات الاجنبية خاصة في دول الغرب . ولكن مغادرة الخبرات الاجنبية بعد الاستقلال السياسي لبعض الدول ، ولازدياد حركة التصنيع وادخال التكنولوجيا الحديثة في العالم العربي منذ انتهاء الحرب العالمية قد ادى الى ازدياد الحاجة الى القوى العاملة الفنية .

ومع ذلك فان دور المعاهد الفنية في توفير القوى العاملة الفنية في العالم العربي قد بقي عديم الاهمية . والاهم من ذلك هو انه حتى بداية السبعينات استمرت هذه المعاهد تعاني من ندرة الموارد المالية والكفاءات الفنية وانعدام العلاقة بين مناهجها وحاجات البلد الى الكفاءات الفنية كما هو الحال في المعاهد الفنية في السودان والعراق والبحرين وسوريا والاردن .

وبالاضافة الى ذلك ، فان النظرة الاجتماعية لخريجي هذه المعاهد والقائمة على عدم التقدير بسبب علاقة هؤلاء الخريجين بالعمل اليدوي قد استمرت حتى الان ، كذلك فان هؤلاء الخريجين لايتمتعون بمستوى عال من الاجور (عدا الحال في الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة) . لذلك فان خريجي هذه المعاهد قد عانوا كثيرا حيث ان استثمارهم في سنوات عديدة من الدراسة لم يؤمن لهم الحصول على نظرة اجتماعية لائقة أو دخل مرتفع . وهكذا فان خريجي هذه المعاهد قد فضلوا العمل المكتبي او التدريس وهناك من استمر في تكملة دراسته العالية اذا سنحت الفرصة . لذلك يجب عدم الاستغراب عند الاكتشاف بأن بعض هذه المعاهد في بعض الاوقات لم تستطع الحصول على العدد الكافي من الطلبة للتسجيل فيها كما هو الحال بالنسبة الى المملكة العربية السعودية ، والعراق ، كما ان بعضها عانى من عدم النمو في عدد الخريجين كما هو الحال في البحرين في السنين الاخيرة .

واذن فان التعليم المهني لم يكن احد المصادر الرئيسية لتزويد العمال المهرة وشبه المهرة . وبسبب استمرار النقص في القوى العاملة فان قطاع الدولة العام والقطاع الخاص بدأ باستعمال التدريب خلال العمل كوسيلة لانتاج الحاجة الاضافية من القوى العاملة . ولكن حتى الازمة الاخيرة فان الدعم الحكومي لهذه المعاهد قد تميز بالضعف .

٣ ـ العمال الاجانب

من أهم مصادر القوى العاملة في الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الاجزاء الاخرى من العالم العربي كمصر ولبنان واليمن والاردن والعراق وكذلك الدول غير العربية كالهند والباكستان وايران. فقد كان ارتفاع الاجور الحافز الاساسي لدخول العمال الاجانب لهذه الدول . أما العمال الاجانب في بقية انحاء العالم العربي فقد كانوا قلة ومقتصرين على انواع خاصة من الخبرات . وقد وصل عدد العمال الاجانب في المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي الى نسب عالية . ويخضع دخول العمال الاجانب الى تلك الدول الى قوانين هجرة معقدة وغامضة . وبالاضافة الى ذلك فانه بالرغم من كون بعض العمال الاجانب كانوا قد عملوا في تلك الدول لفترة طويلة فان مسألة الحصول على الاقامة الدائمة لا يزال صعبا . وكنتيجة لذلك فان حالة العمال الاجانب في تلك الدول يشوبها انعدام الضمان وغموض المستقبل . وهذا الموقف ادى الى نتائج عكسية ، منها رغبة هؤلاء العمال في مضاعفة دخولهم بالسرعة الممكنة كضمان ضد احتمال انهاء خدماتهم واحتمال ارجاعهم الى بلدانهم ، مما ادى الى ارتفاع نسبة التنقل بين مختلف الاعمال وتدهور المعنويات وانخفاض الانتاجية ونوعية العمل .

٣ ـ العلاقات بين العرض والطلب على القوى العاملة

بما ان العالم العربي ليس كيانا اقتصاديا واحدا يتنقل فيه العمل بحرية كاملة ، فليس بالامكان التحدث باسلوب منطقي عن العلاقة بين عرض وطلب الايدي العاملة ضمن حدوده . وبما اندرجة التطور الاقتصادي في أي وقت من الاوقات تتفاوت بين منطقةواخرى، فان ذلك يؤدي الى تفاوت الطلب على القوى العاملة . وقد كان من جراء انعدام التنقل بين الدول العربية ان اختلال التوازن بين العرض والطلب في مختلف مناطق الدول العربية كان من صفات العالم العربي . فمثلا في الوقت الذي كانت البطالة العلنية والمقنعة بين العمال غير الماهرين وخريجي معاهد التعليم العام سائدة خلال الستينات في مصر والسودان والعراق ودول المغرب واليمنين ، كان هناك نقص شديد في عرض هذه المجموعات من العاملين في السعودية ودول الخليج العربي وليبيا . وبالاضافة الى عدم التوازن الجغرافي هذا فقد كان ثمة عدم توازن داخل كل دولة عربية . ويرجع ذلك الى اهمال توجيه عرض القوى العاملة لمقابلة الطلب عليها .

ولكن اذا نظرنا الى العالم العربي ككيان واحد واذا اهملنا الفوارق في المهارة نجد بأن العقدين الماضيين من الزمن قد تميزا بزيادة عرض القوى العاملة على الطلب وبالتالي وجود البطالة .واذا اخذنا المهارة بنظر الاعتبار فسوف نجد نوعين من عدم التوازن بين العرض والطلب وهما :

(١) ان عرض القوى العاملة الماهرة كان أقل من الطلب عليها .

(٢) ان عرض القوى العاملة غير الماهرة وخريجي وتاركي الدراسة العامة زاد بكثير عن الطلب عليها مما ادى الى وجود البطالة العلنية.

ان معضلة القوى العاملة في مدن العالم العربي انه بالرغم من ان العاملين كانوا من الراغبين في العمل فلم تتوفر لديهم الكفاءات المطلوبة من قبل الطلب . ويرجع ذلك لكون اغلبيتهم من الاميين .واما الذين استثمروا العديد من السنين في دراستهم فانهم انهوا تعليمهم العام دون الحصول على اية خبرة ، ويعود هذا بصورة واضحة الى انعدام التخطيط السليم للقوى العاملة والذي ساد الدول العربية حتى مطلع العقد الحالي .

٤ ــ سياسات وأحوال الاستخدام

ان انعدام التوازن في العالم العربي بين العرض والطلب على القوى العاملة في العقدين الماضيين من الزمن قد زاد تعقيدا بسبب سياسات وظروف الاستخدام السائدة انذاك ، والنواقص التي سادت ظروف الاستخدام قد ادت الى هجرة العديد من السكان الماهرين الى خارج الدول العربية . واهم هذه النواقص انخفاض الاجور الحقيقية وفوائد الاستخدام وصعوبة ظروف العمل وانعدام او سوء برامج تطوير المستخدم وعدم تأثير قوانين العمل او عدم تطبيقها او انعدامها . والنقص الاخر هو عدم تأثير النقابات المهنية او انعدامها التام بسبب احتمال ارتباطها بحركة سياسية . ولذلك فان نظرة السلطات الى النقابات في العالم العربي يشوبها الشك وعدم الثقة .

اما سياسات الاستخدام ففي حالات كثيرة كانت تتصف بتناقضها مع وضع القوى العاملة في البلد . فمثلا بالرغم من تفشي البطالة فان الدول العربية قد اتبعت برامج استثمارية متركزة على احلال الالة محل العمال ، كما هو الحال في مصر منذ الستينات ، والجزائر منذ عام ١٩٦٧ وكذلك الاردن خلال الستينات . لقد ادت هذه البرامج الى زيادة صعوبة الحصول على الخبرة الفنية وذلك لتأكيد هذه البرامج على مستوى عال من التكنولوجيا .

نقد تنمية المصادر البشرية في العالم العربي

على الرغم من الاستثمارات الكبيرة التي حققتها اقتصاديات العالم العربي خلال العقدين الماضيين فان تنمية المصادر البشرية لا تزال تعاني الكثير من النقص . ولكن ارتفاع الدخل الفردي مثلا قد ذهب الى مجموعة قليلة من السكان . فمعظم جهود التنمية خلال العقدين الماضيين قد تركز على مناطق المدن وبالتالي اعطى جزءا قليلا الى مناطق الريف حيث يعيش الاغلبية من السكان . وبالتالي فان اقتصاديات الدول العربية لا تزال تعاني من الازدواجية في كيانها الاقتصادي متمثلة في مناطق عصرية متطورة في المدن وتخلف وفقر في الريف . بالاضافة الى ذلك فان النمو الاقتصادي في العالم العربي قد صاحبه ارتفاع الاسعار وانتشار البطالة العلنية والمقنعة وازدحام المدن ونقص في ظروف الاستخدام والعمل .

وعلى الرغم من النمو السريع في حقل التربية والتعليم فان نسبة الامية لا تزال عالية في اغلبية الدول العربية مقارنة بالدول الاخرى . وكذلك الحال في المجالات الصحية . اما بالنسبة الى نتاج حقل التربية والتعليم فقد اتصف بصورة عامة بفقر التوعية وانعدام العلاقة بينه وبين ظروف البلد المحلية . ويرجع ذلك الى استيراث انظمة التربية والتعليم من قوى السيطرة . وقد اتصف نتاج التربية والتعليم كذلك بانعدام المهارات التي يحتاجها البلد وذلك لسكون اغلبية الخريجين والتاركين هم من النظام التعليمي العام والحقول الانسانية . والاهم من ذلك ان النمو السريع في التعليم العام دون ربطه بحاجات الاقتصاد الوطني قد ادى الى اختلال التوازن بين العرض والطلب على نتاج التربية والتعليم .

ان برامج التنمية في العالم العربي قد اعطت اهتماما ضئيلا للتعليم المهني ، ولذلك فانها قد فشلت في توفير العدد اللازم من المهنيين وشبه المهنيين . ويرجع هذا الى فشلها في تغيير وجهة النظر الاجتماعية السائدة ضد العمل اليدوي . ان جهود التنمية كذلك قد تخلفت في رفع نسبة مشاركة الاناث في القوى العاملة بالرغم من التقدم الضئيل . ونسبة مشاركة الاناث لا تزال منخفضة مقارنة بالدول الاخرى .

واخيرا فان جهود التنمية في العالم العربي قد اعطت اهتماما قليلا لزيادة تنقل العمال بين الدول العربية وخاصة بين دول المغرب وبقية انحاء العالم العربي .

مستقبل وضع القوى العاملة في العالم العربي

قبل البدء بمناقشة مستقبل وضع القوى العاملة في العالم العربي لا بد من ذكر الصفات الرئيسية الحالية لعرض القوى العاملة وذلك لاثرها الكبير على مستقبل القوى العاملة . ان الصفات الحالية لعرض القوى العاملة هي ما يلي :

١ ــ انعدام التوازن حيث يوجد عرض منخفض للقوى العاملة في الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة ، وعرض كبير في بقية انحاء الوطن العربي .

٢ ــ تدني مستوى التنقل بين العالم العربي وخاصة بين دول المغرب وبقية انحاء العالم العربي .

٣ ــ تدني نسبة مشاركة الاناث في القوى العاملة .

٤ ــ ارتفاع نسبة الامية .

٥ ــ تدني نسبة المتعلمين والتي تقتصر على خريجي وتاركي الدراسة العامة والفروع الانسانية .

٦ ــ ضآلة نسبة الماهرين وشبه الماهرين .

٧ ــ بطء وصعوبة التكيف للتكنولوجيا الحديثة المتطورة .

وهناك صفة اخرى خاصة ببعض الدول وهي انعدام ضمان توفر العرض الى القطاع الخاص وذلك لانعدام الدعم الحكومي . فالمملكة العربية السعودية مثلا تفضل عدم القيام بتدريب العمال الذين يحتاجهم القطاع الخاص .

الحاجة الى القوى العاملة في المستقبل

ان ارتفاع عائدات النفط منذ بداية عام ١٩٧٤ قد وضع العالم العربي على أبواب نظام اقتصادي جديد . وهناك استثمارات ضخمة تقوم الدول العربية بالاستعداد لتنفيذها في العقد القادم . وسوف يتوقف تنفيذ هذه الاستثمارات على مدى وفرة الكمية الكافية من القوى العاملة . فمن نظرة فاحصة على طبيعة هذه الاستثمارات قد يستطيع المرء الحصول على صورة جيدة عن طبيعة القوى العاملة اللازمة لتنفيذ هذه الاستثمارات والى حد ما عن حجم هذه القوى العاملة .

ان اهم خواص هذه الاستثمارات :

(١) تركيزها الشديد على الصناعة وخاصة المعتمدة على الالة بدل الانسان وذات التكنولوجيا الحديثة (ومنها الصناعات البتروكيماوية ومصافي البترول والاسمدة وانتاج الغاز السائل وانتاج المعادن الاساسية كالحديد والصلب والالمنيوم وكذلك صناعات السمنت ومواد البناء وتصليح السفن وانتاج المواد الغذائية) .

(٢) الاهتمام الكبير بمشاريع البنيان الاقتصادي والمستعملة لاحدث انواع التكنولوجيا كالموانيء والمطارات والطرق ومحطات الكهرباء والمياه ومجاري المياه والري والبزل ، الخ .

(٣) التركيز كذلك على الخدمات الاجتماعية كالتربية والتعليم والصحة والسكن . وتعتمد هذه المشاريع كذلك على التكنولوجيا الحديثة خاصة في المجالات الصحية .

وبما ان هذه الاستثمارات لم تكتمل بعد فانه من الصعوبة معرفة نسبة كل مجموعة من القوى العاملة في الكمية الكلية من القوى العاملة المطلوبة . ان الشيء الواضح هو ان تنفيذ هذه الاستثمارات يحتاج الى كمية كبيرة جدا من القوى العاملة الفنية . لقد اختلفت تقديرات القوى العاملة التي سيحتاجها العالم العربي خلال العقد القادم . فمثلا تشير منظمة العمل الدولية الى ان الدول العربية المنتجة للنفط وحدها ستحتاج الى مليوني فني وعامل ماهر لتنفيذ برامجها الاستثمارية . وهناك تقديرات أخرى تتراوح بين ٢ مليون الى ٤ مليون . فمثلا تشير التقديرات بأن المملكة العربية السعودية وحدها ستحتاج الى حوالي نصف مليون عامل لتنفيذ خطتها الخمسية الحالية (١٩٧٥ – ١٩٧٦) ، (١٩٧٦ – ١٩٨٠) ومع ذلك فسوف تواجه نقصا في القوى العاملة خاصة مدراء الاعمال والفنيين والعمال . بالرغم من تفاوت هذه التقديرات فانها اتفقت على شيء واحد وهو ان الطلب على القوى العاملة في العالم العربي خلال العقد القادم سوف يكون اكبر بكثير من عرض القوى العاملة المحلية وبالتالي سوف يحصل نقص خطير وخاصة بين العمال شبه المهرة كعمال الصيانة والعمال الصناعيين والفنيين ..الخ، لذلك فان الحاجة الى القوى العاملة في المستقبل ستتصف بما يلي:

١ – ستكون عالية جدا مقارنة بالماضي .

٢ – ستكون متحيزة الى مهارات نادرة في الوقت الحاضر .

٣ – ستكون ملحة حيث ان كافة الدول العربية نفطية أم غير نفطية تتوقع تنفيذ برامج استثمارية كبيرة خلال العقد القادم . ان الدول النفطية مدفوعة بحقيقة احتمال نفاد مصادرها النفطية قد بدأت بالاسراع في تنويع مصادر انتاجها لتقليل اعتمادها على البترول وكذلك لبناء صرح اقتصادي فعال قائم على الموارد غير النفطية .العامل الاخر هو التخلف في مصادرها الانتاجية غير النفطية وخاصة المصادر البشرية . اما دوافع الدول غير النفطية فهي عديدة اهمها الضغط الشكلي وتفشي البطالة والفقر وتخلف وسائل الانتاج ، لذلك فانها تقوم بالاسراع في عملية التنمية لادخال الطرق العصرية في الانتاج وتوفير الاستخدام للعاملين ورفع مستوى معيشة السكان .

٤ – انها متركزة على الدول النفطية التي ستركز فيها البرامج الاستثمارية في العقد القادم . فالمملكة العربية السعودية وحدها خصصت ١٤٢ مليار دولار امريكي لخطتها الخمسية الثانية (١٩٧٥– ١٩٧٦ – ١٩٧٩ – ١٩٨٠) مقارنة بمخصصات قدرها ١٢ مليار دولار امريكي وضعت للخطة الخمسية الاولى (١٩٧٠ – ١٩٧٥) . لقد ورد بأن العراق وحده قد خصص استثمارا يقدر بحوالي ٧٥ مليار دولار امريكي خلال السنوات الخمس القادمة مقارنة بمخصصات قدرها ٧ ، ٥ مليار فقط وضعها خلال الخطة الخمسية الماضية (١٩٧٠ – ١٩٧٤) وبما ان الدول النفطية وخاصة ذات الكثافة السكانية الخفيفة تعاني من نقص شديد في القوى العاملة الماهرة في الوقت الحاضر فان هذه الاستثمارات الكبيرة ستجعلها مصدرا ضخما من مصادر الطلب على القوى العاملة .

ان مقارنة بسيطة بين صفات العرض والحاجة الى القوى العاملة تعطي فكرة واضحة عن مدى خطورة انعدام التوازن المتوقع والمتمثل بنقص كبير في القوى العاملة وخاصة الماهرة وشبه الماهرة . بالاضافة الى ذلك فان الحاجة الكبيرة للقوى العاملة والالحاح أو السرعة التي تتصف بها قد تؤدي الى منافسة خطيرة بين الدول النفطية وغير النفطية للحصول على القوى العاملة الماهرة . وبما ان الدول النفطية لديها الموارد المالية لشراء ما تحتاجه من القوى العاملة اللازمة فان ذلك قد يؤدي الى حرمان الدول غير النفطية من القوى العاملة المدربة التي تحتاجها لنموها وقد يؤدي ذلك حتى الى ضرب قواها العاملة المستخدمة حاليا في الانتاج . والحقيقة ان هذه الظاهرة بدأت بالفعل في حالة الاردن حيث أخذ يعاني من نقص خطير في القوى العاملة المدربة وذلك لاستمرار الهجرة الى الدول النفطية في الخليج العربي والمملكة العربية السعودية .

عرض القوى العاملة في المستقبل

بالرغم من الصورة الكئيبة التي يأخذها القارىء عند دراسة حاجة العالم العربي الى القوى العاملة في المستقبل فان مستقبل عرض الموارد البشرية يسوده التفاؤل . ان العالم العربي ككيان يتميز بوجود مصادر بشرية كبيرة مقارنة بموارده الطبيعية القابلة للاستغلال . والاهم من ذلك ان العالم العربي يتميز بارتفاع النمو الطبيعي لسكانه والذي يتراوح بين ٣٫٢ بالمئة و ٣٫٥ بالمئة سنويا . كذلك فان سكان العالم العربي يتصفون بالفتوة حيث ان عدد السكان الذين تتراوح اعمارهم بين ١٥ سنة فما دون تصل الىحوالي نصف عدد السكان . ان هذا يمثل وعاء ضخما من المصادر البشرية التي يمكنها توفير العديد من القوى العاملة . بالاضافة الى ما ذكر فان هناك اتجاهات معينة تتصف بها تطورات الموارد البشرية في العالم العربي وهي ذات فائدة خاصة لجهود التنمية في العالم العربي والراغبة في التحويل الكامل للاقتصاديات العربية الى اقتصاديات تسودها الصناعة والخدمات . ان هذه الاتجاهات هي النمو السريع في سكان المدن والنمو السريع في التعليم وانتشاره وكذلك الزيادة المستمرة في ارتفاع نسبة مساهمة الاناث في القوى العاملة والتحسن في الاوضاع الصحية والاجتماعية . يضاف الى ذلك وجود اعداد كبيرة من العمال العرب من المغرب واوروبا الغربية يقدر عددهم في الوقت الحاضر بحوالي ١٫١٢٥٫٠٠٠ عامل منهم ١٩٢٫٠٠٠ من المغرب وحوالي ٢٠٠٫٠٠٠ من تونس ، ٨٥٨٫٠٠٠ من الجزائر ، وكذلك فان عدد العمال العرب والفنيين في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية هو كبير جدا ، وان نسبة كبيرة من هؤلاء سيعودون الى العالم العربي اذا ما توفرت لهم الوسائل التشجيعية واذا ما تحسنت الاوضاع الاقتصادية واوضاع الاستخدام .

ومع ذلك فان توفر المصادر البشرية على هذا المستوى الكبير لا يعني بالضرورة ان عرض القوى العاملة في المستقبل سيكون كافيا لسد الحاجة اليها . ان هذا يرجع الى كون الزيادة الكبيرة من المصادر البشرية ما لم يصحبها استثمار كبير ومعقول لانتاج الانواع المطلوبة من القوى العاملة فان الزيادة هذه ستكون عبئا معرقلا للنمو الاقتصادي . لذلك فانه من الضروري التأكد بأن عرض القوى العاملة في المستقبل سيتفق مع الحاجة اليها . وهذا يعتمد على عوامل كثيرة منها طبيعة الحاجة وطبيعة تركيب القوى العاملة الحالية والجهود المبذولة حاليا في تنمية المصادر البشرية ومدى ربطها بالحاجة الى القوى العاملة ، وعوامل اخرى خاصة بالعالم العربي كدرجة حرية انتقال الاشخاص بين الدول العربية ودرجة التنسيق الاقتصادي بين الدول العربية ودرجة الاستمرارية في تنفيذ برامج التنمية والخ ...

معضلة القوى العاملة : ـ العلاقة بين العرض والحاجة الى القوى العاملة خلال ١٩٧٥ ـ ١٩٨٥

مع افتراض عدم استيراد اعداد ضخمة من القوى العاملة الاجنبية من قبل الدول العربية فان العالم العربي سيواجه نقصا خطيرا في القوى العاملة اللازمة لتنفيذ برامج الاستعمار المرسومة للسنوات العشر القادمة . وبما ان استيراد اعداد كبيرة من القوى العاملة الاجنبية هو شيء غير ممكن تحقيقه لاسباب عديدة منها قلق السلطات حول احتمال انعدام الموازنة بين القوميات فان النقص الخطير من القوى العاملة شيء مسلم به . وتنفيذ الاستثمارات المرسومة يواجه عقبات أخرى . فبالاضافة الى العقبات المادية والاجتماعية والادارية فهناك عقبات عديدة وخطيرة متعلقة بالقوى العاملة . فاذا نظرنا الى جانب الحاجة الى القوى العاملة فسوف نلاحظ تركزها في الدول النفطية ذات الكثافة السكانية الخفيفة والتي تعاني حاليا من انعدام القاعدة المتطورة للقوى العاملة ، كذلك بسبب انعدام حرية انتقال الاشخاص بين الدول العربية فان النقص المتوقع في احد اقسام العالم العربي لا يمكن سده آليا من الاقسام الاخرى ذات الفائض في القوى العاملة . كذلك فان ضخامة الاستثمارات وارتفاع مستواها التكنولوجي بالاضافة الى الحاجة الملحة الى تنفيذها خلال فترة قصيرة يجعل من التعديلات اللازم اجراؤها في العرض لتلائم الحاجة ، عملية صعبة جدا وسوف تزداد هذه الصعوبة تعقيدا اذا ما تأملنا طبيعة اقتصاديات الدول العربية حيث انها كما هو الحال مع الاقتصاديات المتخلفة الاخرى تعاني من الجمود المتمثل في ارتفاع نسبة الامية وانخفاض درجة انتقال الافراد ووجود المعرقلات في نظام الاسعار وكذلك انعدام القاعدة الاساسية للقوى العاملة وعدم توفر المعلومات الدقيقة والكافية عنها وعدم توفر المعاهد التدريبية ذات التكنولوجيا الحديثة وكذلك انعدام المؤسسات ذات الخبرة والمتمثلة برسم سياسات القوى العاملة ... الخ . وبما ان البرامج الاستثمارية المرسومة الان قد بنيت على اساس حاجة كل دولة عربية على حدة ودون تنسيق فيما بين هذه الدول فان هذا سيؤدي الى ازدواجية الاستثمار وبالتالي ازدياد حدة المنافسة بين الدول العربية للحصول على نفس النوع من القوى العاملة النادرة . ان الاستثمارات المرسومة حاليا توضح تماما بان الكثير منها قد تقرر دون أي تنسيق بين الدول العربية كما هو الحال في الصناعات البتروكيماوية والاسمدة وانتاج الغاز السائل وتصفية المعادن والسمنت وتصليح السفن . وبسبب انعدام التنسيق فان معضلة القوى العاملة في الوطن العربي قد ازدادت تعقيدا .

وهناك عقبات من جانب عرض القوى العاملة . وقد ذكرنا سابقا ان الارتفاع الشديد في الحاجة الى القوى العاملة لا يمكن أن يتم توفيره في وقت قصير كهذا . ربما يكون في المستطاع تحويل الموارد المالية الى رؤوس اموال ثابتة كالطرق والمعامل والسدود والبنايات في فترة قصيرة . ولكن ليس من الممكن القيام بذلك في حالة الموارد البشرية . ان الوقت اللازم لتدريب عامل على استعمال الماكنة هو اكثر بقليل من صنع الماكنة نفسها وان الوقت اللازم لتدريب خبير في المعادن يستغرق اضعاف الوقت اللازم لبناء اكبر مصنع للحديد . لذلك فان تعديلا سريعا في عرض القوى العاملة لمقابلة تغييرات في الحاجة ليس ممكنا . بالاضافة الى ذلك فان الوطن العربي يفتقد التقاليد والحضارة الصناعية وكذلك الخبرة في حقل تخطيط القوى العاملة . ان الاستثمارات في الموارد البشرية في كافة الدول العربية تقريبا لم تربط مع الحاجة الاقتصادية والاجتماعية للبلد ، واقصد انعدام التخطيط في حقل القوى العاملة . ونتيجة ذلك كما لاحظنا انعدام التوازن بين العرض والحاجة الى القوى العاملة . لذلكفان الاهتمام الجدي بمسائل تخطيط القوى العاملة لم يبدأ حتى عام ١٩٧٢ في تونس وفي عام ١٩٧٤ في اغلب الدول العربية كما هو الحال في الجزائر والعراق والكويت والبحرين والمملكة العربية السعودية . أما بالنسبة الى تخطيط القوى العاملة الذي بدأ في مصر في بداية الستينات وفي المملكة المغربية في عام ١٩٦٤ فلم يكن ذا أثر فعال على حالة القوى العاملة في تلك الاقطار .

ان معضلة القوى العاملة في الوطن العربي هي احتمال وقوع نقص خطير في القوى العاملة اللازمة لتنفيذ المستوى المرسوم من الاستثمار حتى ولو تبنت الدول العربية مبدأ تخطيط القوى العاملة. وهذا يرجع لكون تخطيط القوى العاملة في الوقت الحاضر يعتمد على حالة القوى العاملة في كل قطر عربي على انفراد وليس على أساس الموقف العام للقوى العاملة في كافة انحاء العالم العربي . لذلك فان النقص الذي سيحصل في الدول النفطية لا يمكن سده من قبل الدول غير النفطية والتي قامت كل منها على حدة بتخطيط مستوى عرض القوى العاملة لديها لملاءمة الطلب . لذلك ما لم يتم تغيير مفهوم تخطيط القوى العاملة لكي يتخطى حدود كل دولة ويغطي كافة الدول العربية او مجموعة منها فان هذا التخطيط ليس حلا لمستقبل مشاكل القوى العاملة في العالم العربي .

توصيات :

لكي نتحاشى احتمال الانشقاقات بين الدول العربية فاننا نقترح المجموعات الثلاث الاتية من التوصيات :

١ ـ خطوات للاسراع في زيادة عرض القوى العاملة في المستقبل.
٢ ـ خطوات للاسراع في اعادةالنظر في الحاجة الى القوىالعاملة.
٣ ـ خطوات لضمان تخطيط فعال للقوى العاملة على مستوى العالم العربي .

(١) خطوات للاسراع في زيادة عرض القوى العاملة في المستقبل :

لكي يتم توفير نوعية الخبرات المطلوبة يجب على الدول العربية القيام باتخاذ عدة خطوات سريعة منها اجراء التعدادات السكانية وكذلك عن القوى العاملة وما يتعلق بها للحصول على اكبر معلومات ممكنة عن كافة جوانب الموارد البشرية . ويجب تحليل هذه المعلومات ونشرها حالا وذلك بالاستفادة من خدمات الالات الالكترونية . وان المعلومات الحالية عن القوى العاملة هي اما معدومة تماما او لم تنشر حتى الآن وبالتالي فهي معلومات قديمة فات اوانها . ومن الغرابة بمكان ان تكون جهود التنمية التي تستهدف توفير حياة افضل للسكان نفتقد المعلومات عن هؤلاء السكان انفسهم .

ويجب كذلك استخدام التدريب خلال العمل كاحدى الوسائل القراءة والكتابة هي ضرورة اساسية لكل تدريب يشمل ماكنة او آلة حديثة . ان محو الامية سوف يقلل من مدة التدريب اللازمة ويزيد من سلامة العامل وكفاءته الانتاجية . وان خريجي مراكز محو الامية سوف يكونون وعاء كبيرا من القوى العاملة جاهزا للتدريب على الخبرات التي يتوقع ان تكون في حالة نقص خطير .

ويجب كذلك استخدام التدريب خلال العمل كاحدى الوسائل المهمة لتوفير الخبرات . ويجب وضع الشروط القانونية على الشركات وخاصة الاجنبية بأن تقوم بتدريب السكان المحليين .

ويجب دعم وتقوية المعاهد المهنية وتحسين مستواها وذلك بجعل مواد دراستها ملائمة للاوضاع المحلية السائدة وتوفير خريجيها بالاعمال المتعلقة بحقول اختصاصهم . ويجب العمل كذلك على تحسين النظرة الاجتماعية لخريجي هذه المعاهد وذلك بالحملات الاعلامية المركزة والقوانين والتشريعات اللازمة .

كما ينبغي تكثيف العمل على رفع نسبة مشاركة الاناث في القوى العاملة .

لقد تم استعمال الخدمة العسكرية في بعض الدول كأداة لمحو الامية وتخريج العمال المهنيين . ونظرا لوجود المؤسسات العسكرية والمعدات والوسائل المتعلقة بها لذلك يجب القيام ببذل جهود كبيرة لاستخدامها في انتاج القوى العاملة الماهرة . وعلى الرغم من وجود برامج محو الامية في هذه المؤسسات فانها لا تزال محدودة وغير منسقة مع الخطط الاقتصادية وخطط القوى العاملة بصورة عامة .

وأخيرا يجب بذل الجهود لتحسين مستوى الدخل وظروف الاستخدام لاغراء القوى العاملة العربية الماهرة التي لا تزال في خارج العالم العربي .

(٢) خطوات الاسراع في اعادة النظر في الحاجة الى القوى العاملة :

ان مشاكل القوى العاملة في الوطن العربي قد زادت تعقيدا ، كما ذكرنا سابقا ، بسبب كون الحاجة الى القوى العاملة قد بنيت على حاجة البرامج الاستثمارية في الدول العربية دون أي تنسيق بينها . فاذا ما تم تنسيق بين هذه الدول قائم على اساس التبريرات الاقتصادية فان ذلك سيؤدي الى تحاشي الكثير من التبذير الناتج عن ازدواجية الاستثمارات وبالتالي الادخار في القوى العاملة النادرة . ان الحالة المثلى هي وجود تكامل اقتصادي عربي كامل يضمن توزيع الموارد العربية بأفضل الصور ويضمن بالتالي الاستفادة القصوى من القوى العاملة الماهرة النادرة . وبما ان احتمال حصول ذلك لايبدو ممكنا في القريب العاجل لذلك يجب العمل على تنسيق برامج الاستثمار في العالم العربي على اساس مبدأ المقارنة النسبية في الاقتصاد .

لقد ذكرنا كذلك ان السرعة في تنفيذ برامج الاستثمار هي احد العوامل التي زادت في نقص القوى العاملة . لقد صعب علي في بعض الاحيان فهم التبريرات التي تمليها بعض الدول لمحاولتها تنفيذ البرامج الانمائية خلال فترة قصيرة كهذه . فاذا كان التضخم في الاسعار سيزيد من كلفة المشروع فان الاخطاء الناتجة عن سرعة تحضير وتنفيذ المشروع قد تكون أعلى بكثير من معدل التضخم في الاسعار . ان عامل الوقت يجب اعتباره جزءا من كلفة تنفيذ أي مشروع .

(٣) خطوات لضمان تخطيط فعال للقوى العاملة على مستوى العالم العربي :

ان بعض الخطوات التي اعطيت للاسراع في زيادة عرض القوى العاملة أو اعادة النظر في الحاجة اليها قد لا تكون ملائمة لدولة لديها قاعدة عمالية واسعة وتعاني من البطالة كما هو الحال في مصر والمملكة المغربية وتونس . ومع ذلك فان هذه الخطوات ذات فائدة كبيرة لدولة تعاني من نقص شديد في القوى العاملة كالمملكة العربية السعودية والكويت . وبما أن العالم العربي مقسم الى قسمين ، قسم يسوده النقص وقسم يسوده الفائض في القوى العاملة فانه من مصلحة العالم العربي عامة ان تقوم الدول العربية ذات الفائض بتجهيز الدول ذات النقص بالقوى العاملة اللازمة عن طريق مشاريع متينة التناسق ضمن اطار تصعيد شامل للقوى العاملة في مستوى العالم العربي .

ان تخطيط القوى العاملة على مستوى العالم العربي لا يمكن ان يكتب له النجاح ما لم ينبع من اعتقاد الدول العربية الشديد بمصير العرب كامة . لذلك فان تخطيط القوى العاملة العربية يجب أن يكون جزءا من تعاون عربي مشترك لتحقيق الاهداف البعيدة المدى وهي تقدم العرب كامة . والا فان الدول ذات النقص في القوى العاملة قد تلجأ ببساطة الى استيراد القوى العاملة غير العربية لسد حاجاتها . كما ذكرنا بأن الواقع الامثل الذي يخدم العالم العربي هو وجود اقتصاد عربي واحد يتسم بالحركة التامة في رأس المال والعمل . وبما ان احتمال حصول هذا لا يبدو ممكنا الان فعلى الدول العربية العمل على دعم فكرة السوق العربية المشتركة . ومع الاسف فان المحاولات للوصول الى هذا الهدف منذ ١٩٥٧ لا تبدو مشجعة . لقد تم التوصل الى اتفاقيتين الاولى وقعتها خمس دول عربية فقط في آب ١٩٦٤ والثانية وقعتها ثلاث دول فقط في كانون الثاني ١٩٧١ ، ولم توضع أي منهما موضع التنفيذ الجدي . يجب الاسراع في بذل الجهود لتحقيق تقارب اقتصادي لتوسيع نطاق السوق وتشجيع التخصص الاقليمي في الانتاج وتنسيق الخطط الانمائية لتحاشي الضياع الناتج عن الازدواجية في الاستثمار وبالتالي اعادة النظر في الحاجة الى القوى العاملة وتوزيعها بشكل أفضل بين الدول العربية . ان فكرة السوق العربية المشتركة يجب ان توضع كهدف على الدول العربية الوصول اليه خلال فترة زمنية محددة وذلك بالاستفادة من مؤسسة مجلس الوحدة الاقتصادية العربية . والاهم من ذلك انه ما لم نبدأ جهود التعاون الاقتصادي من الان وقبل تنفيذ برامج الاستثمار الرئيسية فانه قد يفوت الاوان وتضيع الفرصة، لانه بعد ان يتم تنفيذ البرامج الاستثمارية المتوقعة الان يصبح أي تنسيق اقتصادي عربي باهظ الكلفة .

ان تخطيط القوى العاملة العربية يحتاج كذلك الى حسن النية وتوفير الثقة بين الدول العربية وايمان شديد بالاهداف الاقتصادية . انه ليس من الممكن تدريب الالاف من مصر او من دول اخرى لارسالهم الى دولة عربية اخرى تعاني من النقص في قواها العاملة ولكن بعد انتهاء التدريب يكتشف هؤلاء العمال بانه لا توجد حاجة لهم لاسباب معينة اما لتغير في القيادة السياسية للدولة ذات النقص او تغير في برامجها الانمائية . لذلك اذا ما اريد لتخطيط القوى العاملة العربية النجاح فان على الدول العربية وضع الهدف الاقتصادي وهو رائد الشعب العربي فوق كل الاهداف. وعلى هذا الاساس يمكن توزيع القوى العاملة بين الدول العربية من خلال جهاز تخطيط مركزي للقوى العاملة يساعده في ذلك اجهزة ودوائر فرعية . فمن خلال هذا الجهاز وبفضل التطور في الالة الالكترونية يمكن تحديد كافة مؤشرات ومحددات القوى العاملة ، المستوى والتكوين الحالي للفائض والنقص في كل دولة عربية ،والوقت اللازم للتدريب ... الخ . ولذلك فان النقص في القوى العاملة في دول النقص ممكن سده من قبل دول الفائض . كذلك ان كلفة تدريب العمال وطرق الدفع يمكن تحديدها حسب طرق يتفق عليها . ومن الجدير بالذكر ان فكرة تخطيط القوى العاملة العربية يمكنها الاستفادة من جهاز اداري قائم الان في مجلس الجامعة العربية يتمثل في مجلس العمل العربي الذي تأسس في عام ١٩٦٥ لغرض تحقيق التعاون بين الدول العربية في مشاكل العمل وكذلك لتوحيدتشريعاتهم العمالية وظروف العمل اينما كانت . لقد حقق هذا المجلس بعض التقدم في حقل التشريعات العمالية ، لذلك فان من الممكن جعله نواة لتخطيط القوى العاملة العربية .

د . مهدي محمد علي

البنك الدولي للانشاء والتعمير ـ واشنطن

د . حاتم الحسيني

مقدمة لدراسة العوامل التي تمنع الاستفادة من الكفاءات العربية

يمر الوطن العربي في اواخر القرن العشرين باهم مراحل تغيره . فهذه هي مرحلة ارساء اسس النهضة العربية المجيدة ، باشادة بناء المجتمع التقدمي الذي يضمن الحرية والحماية لطبقات الشعب المحرومة .

ومرحلة ما بعد الاستقلال هي اصعب مراحل الانتقال . الوطن العربي جزء من العالم الثالث الذي واجه التخلف والفقر والاستغلال بسبب الاستعمار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ورغم انحسار الاستعمار الغربي في القرن العشرين فان مشاكل التخلف لا تزال التحدي الاساسي امام المجتمع العربي .

فهل ستتمكن الامة العربية من التغلب على هذه المشاكل الرئيسية ، والانطلاق الى مرحلة البناء الجديد ؟

ان اهم مصادر قوة الوطن العربي هى الطاقة البشرية . واضافة الى ذلك ، فان الطاقة البشرية هي اساس مرحلة التحرر والتحول الجذري وهي لم تستغل بعد في مرحلة البناء الجديدة . ولقد اثبتت تجارب بعض شعوب العالم الثالث ، وخاصة الصين الشعبية وفيتنام وكمبوديا ، بان الطاقة البشرية هي اساس مرحلة التحرر والتحول الجذري في المجتمع .(١)

ويضخم بعض الكتاب الغربيين والعرب دور التكنولوجيا الغربية في حل مشاكل الوطن العربي . ويعتبرها بعضهم العامل الاساسي لحل مشاكل التخلف (٢) . ولكن القوة الاساسية في الوطن العربي هي الطاقة البشرية . وهي حاليا مبعثرة ، مقيدة ومضطهدة ، فان جمعت وعبئت فستكون البديل للمساعدات الامريكية والخبرة الغربية .

ان الارادة البشرية هي التي توجه الالة الغربية لا العكس . فان انعدمت الارادة العربية والتنظيم الجماهيري فلا يمكن الاستفادة من التكنولوجية الغربية .

من هنا تاتي اهمية دور المثقفين والعلماء العرب . فهم جزء اساسي من الطاقة البشرية ، بل اهم مقوماتها ، وهم يمثلون الفئة المدربة والخبيرة التي ستتحمل دورا رئيسيا في عملية البناء الجديد .

ان العالم الثالث والعالم العربي في امس الحاجة الى مثقفيه وعلمائه . ولقد صرفت الدول العربية ملايين الدولارات على بعثاتها العلمية . لذلك تعتبر هجرة الكفاءات العربية خسارةمزدوجة. فهي ضياع لاستثمارات هامة كما انها خسارة لطاقات مطلوبة في المجتمع النامي .(٣)

حول مفهوم « الكفاءات العربية » :

لا شك ان « الكفاءات العربية » مهملة من قبل الوطن العربي . ولكن الكتاب يطلقون تعبير « الكفاءات العربية » على العلماء العرب في الخارج ، بينما يجب ان يشمل هذا التعبير العلماء والكفاءاتخارج العالم العربى وداخله .

ان « الكفاءات العربية » داخل الوطن العربي طاقات هامة ايضا. ولعل اهمال هذه الطاقات والكفاءات في الداخل هو احد الاسباب الرئيسية لهجرتها .

والانسان العربي هو الطاقة الاساسية في المجتمع . واهمال هذا الانسان كطاقة خلاقة بناءة هو احد الاسباب الرئيسية لعدم

---

(١) راجع كتابات ماوتسي تونج حول تحليل طبقات المجتمع الصيني وتنظيم صفوف الفلاحين الذين يعتبرهم القوة الرئيسية في المجتمع . « مؤلفات ماوتسي تونج المختارة » (بكين ، دار النشر باللغات الاجنبية ، ١٩٦٨) المجلد الاول .

(٢) راجع المقالات التي نشرت في مجلة « كتابات مصرية » حول دراسة الانفتاح الاقتصادي الجديدة في مصر والاتجاه نحو الاستثمارات والشركات الغربية والنقد الشديد لهذه السياسة من قبل عدد من الكتاب المصريين ومنهم عادل كمال الشريف ، عمر ابراهيم الكاشف ، وخليل ناصف . كتابات مصرية (سبتمبر ـ ١٩٧٤) .

(٣) يشير د. محمد عبدالقادر احمد الى التكاليف المرتفعة لاستيراد الخبرات الفنية ، واعداد الخبرات العربية « هجرة العلماء العرب » الثقافة العربية (ابريل ـ ١٩٧٥) ص ١٢-٢٣ .

تمكن الوطن العربي من مواجهة مشاكله الحالية . فالفـلاح والعامل العربي هما جزء من الطاقات العربية المهملة . ولا يمكن للمثقف او العالم ان تلعب دوراً فعالا في مجتمع يضطهد فيه الفلاح والعامل .(٤)

كما ان المرأة العربية ، التي تمثل نصف الطاقة البشرية في الوطن العربي ، لا تزال محرومة من المشاركة في عملية البناء الجديد . وفي بعض الدول العربية تمنع المرأة من العمل(٥) .

فالمشكلة اذن ليست فقط كيفية استعادة الكفاءات العربية من الخارج ، انما كيف يمكن خلق الظروف الملائمة للاستفادة من الطاقات والكفاءات البشرية في الداخل ، وبالتالي القضاء على اسباب هجرة الكفاءات العربية للخارج .

تحاول هذه الدراسة معالجة بعض العوامل التي تمنع الاستفادة من الكفاءات العربية في الوطن العربي ، وهي بذلك مقدمة لدراسة بعض المشاكل التي يواجهها المثقفون العرب في مجتمعهم ، كما انها محاولة لاثارة الاسئلة وفتح مجالات البحث في اسباب التخلف في هذا المجال الهام .

ولقد ركزت بعض الدراسات حول هذا الموضوع على العوامل الخارجية التي تؤثر على هجرة الكفاءات العربية(٦) . ولكن العوامل الداخلية اهم بكثير من العوامل الخارجية . ولو استطاع الوطن العربي حل بعض مشاكله الداخلية وتامين الجو السياسي والاقتصادي والاجتماعي المناسب لما هاجرت الكفاءات العربية مهما كان اغراء العوامل الخارجية .

ما هي العوامل الداخلية التي تعيق الاستفادة من الطاقات البشرية فى العالم العربي ؟

العوامل السياسية :

ان الوضع السياسي هو الاطار الاساسي لعملية الاستفادة من الطاقات البشرية . ففي المراحل التي تزدهر فيها الديمقراطية والحرية والاستقرار السياسي ، يزدهر فيها ايضا العقل البشري ويساهم في عملية بناء مجتمعه .

لقد حدثت هجرة الكفاءات العربية في مراحل الاضطهاد والاستبداد السياسي(٧) . ففي فترة الاضطهاد العثماني في اوائل القرن العشرين اشتدت هجرة الطاقات البشرية الى أمريكا ، كما ان هجرة العلماء العرب ازدادت وتصاعدت في الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٦٧ التي تميزت بعدم الاستقرار السياسي في الوطن العربي .

قلت ان الفكر العلمي والعقل العربي سيضيء في فترات الظلم والاستبداد السياسي . وقد أكد احد الباحثين العرب ان الدول العربية ستحتل أعلى المراكز العلمية (٨) .

١ ـ مشكلة الحرية :

ان الحرية هي الاساس لانطلاق الفكر والعقل . وانعدام الحرية في العالم العربي هو أحد الاسباب الرئيسية لهروب الكفاءات العربية(٩) .

والمطروح هنا ليس مفهوم الحرية المطلقة بالشكل الغربي ، وانما حرية الرأي والتفكير ضمن الالتزام بالايديولوجية الواضحة التي تنبع من الالتزام ببناء المجتمع المتحرر التقدمي الجديد .

بدون حرية الرأي وحرية التعبير لا يمكن للمثقف او العالم ان ينتج في مجتمعه . ففي عدد من الدول العربية نجد حرية الرأي والكلمة مقيدة . فالصحافة تابعة للفئة الحاكمة ، والمثقف او العالم يتخوف من الاضطهاد بسبب التعبير عن رأيه بحرية .

وفي بعض الدول العربية لا يوجد قسم للدراسات السياسية في الجامعات بسبب تخوف الفئة الحاكمة من تدريس الموضوعات السياسية المختلفة .

اما القضية الاخرى المرتبطة بالحرية فهي قضية حقوق الانسان . ففي الوطن العربي ، تكاد حقوق الانسان تكون معدومة، حق الانسان في الحياة والعمل والتعبير عن الرأي .

فالسلطة والقانون هما لحماية الانسان وتامين حقوقه الاساسية . فهل تعمل السلطة لحماية الانسان العادي في العالم العربي ، ام يعتبر اداة للسلطة ؟

لقد هاجر العديد من العلماء العرب سعيا وراء الحرية والحقوق الاساسية . لذلك فان عودة الكفاءات العربية والاستفادة مما توفر منها في الوطن العربي مرتبطة بتامين جو من الحرية وضمان حقوق الانسان ..

٢ ـ مشكلة المشاركة الديمقراطية :

يواجه المثقفون العرب مشكلة المشاركة في السلطة في الوطن العربي . ففي عدد من الدول العربية تنحصر السلطة في يد مجموعة صغيرة ، سواء كانت عائلة مالكة ام عسكريين واعضاء الحزب الحاكم (١٠) .

---

(٤) راجع كتابات ماوتسي تونغ حول القوى الباعثة في الثورة وخاصة الفلاحين .

(٥) راجع كتابات قاسم امين حول المرأة العربية ، حيث اعتبر ان هناك تلازما بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة ، واكد بان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة من اهمها ارتقاء المرأة . اديب نصور « مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام (١٨٥٠ ـ ١٩٤٨) » . الفكر العربي في مئة سنة (بيروت ، الجامعة الامريكية ١٩٦٧) . ص ٩٣ .

(٦) يعطي د. الياس زين الاولوية لجاذبية العوامل الخارجية ومنها تشريعات الهجرة الامريكية الجديدة وفن تهجير الادمغة الغربي والرواتب المغرية وغيرها . الدكتور الياس زين ، هجرة الادمغة العربية (بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣) ص ٨٥ـ٩٦ .

(٧) د. محمد عبد القادر احمد ، ص ١٤ .

(٨) وصفي حجاب « الفكر العربي في مائة سنة ـ الفكر العلمي » الفكر العربي في مائة سنة ، ص ٦٢٨ .

(٩) يعتبر د. قسطنطين زريق ان الحرية « اول مطالب الفكر واهم شروط فعله وازدهاره » ، ويؤكد انه لولا الحرية لما استطاع الفكر ان يحرز ما احرزه في تاريخ الانسانية من انجازات رائعة في شتى الحقول . قسطنطين زريق ، « الجامعة ومستقبل الفكر العربي » الفكر العربي في مائة سنة . ص ٦٤٦ .

(١٠) وجدت دراسة الامم المتحدة عن هجرة الكفاءات من خمس دول نامية بان احد اسباب الهجرة هو التصادم بين الاقلية الحاكمة والخبراء المتخصصين ، وبان الكفاءات اهملت ولم تعط فرصة للمشاركة في حل مشاكل وطنها مما دفعها للهجرة .

The Barin Drain From Five Developing Countries.
(Colombia - Lebanon - Philippines - Trindad & Tobago)
(U.N. Institute For Research - New York, 1971). p. 16.

ما هي العلاقة بين الحاكم والمثقف ؟ وهل دور المثقفين والعلماء هو دعم الحاكم ومدحه رغم اخطائه ام التعبير عن رأيه بحرية وانتقاد الحاكم في المجالات التي يراها هامة ؟

يشك الحاكم العربي في المثقفين ، ويشترط عليهم ولاء يبعدهم عن الجو العلمي الموضوعي . كما ان معيار مشاركة المثقف في السلطة يصبح مدى التزامه بعضوية الحزب الحاكم ، بدل كفاءته ومقدرته العلمية . وفي مرحلة الصراع داخل الحزب او الدولة تصفي قوى فكرية وعلمية تمثل كفاءات هامة بالنسبة للوطن . وفي عدد من الدول العربية يجد المثقفون والعلماء العرب انفسهم منفيين من اوطانهم بسبب هذه الاوضاع السياسية(١١) .

في مثل هذه الظروف السياسية ، تنعزل الكفاءات العربية من مراكز السلطة ، وتفضل الهروب الى الخارج واللجوء الى المجتمع الغربي ، هذا في المرحلة التي يكون فيها المجتمع العربي في امس الحاجة الى الكفاءات العلمية والفكرية .

٣ ـ عدم الاستقرار السياسي :

ساهمت الانقلابات السياسية المفاجئة والنكسات والهزائم العربية في المرحلة الاخيرة في خلق جو سياسي مضطرب مما ادى الى انعزال الكفاءات العربية عن مجتمعها . فالمفكر والعالم يحتاج الى جو من الاستقرار السياسي ووضوح الاتجاه السياسي ليتمكن من الانتاج والعمل . كما ادت الحروب الاهلية العربية بين ١٩٥٠ ـ ١٩٦٠ (خاصة في العراق وسوريا) الى هروب الكفاءات العربية وتصفية طاقات فكرية مؤهلة للمشاركة في عملية البناء .

وقد تكون مرحلة عدم الاستقرار السياسي طبيعية في فترة ما بعد الاستقلال بسبب وجود التناقضات السياسية والطبقية الحادة . ولكن هذه المرحلة يجب ان تنتهي وتنبثق منها مرحلة الوحدة الوطنية على اساس سياسي واضح لتتمكن جميع قوى الشعب ، بما فيها المثقفون والعلماء ، من التفرغ لعملية البناء الجديد(١٢) .

وتحاول بعض الدول العربية حاليا ، كالعراق وليبيا والجزائر وغيرها ، تامين الاستقرار السياسي وتعميق وحدة القوى الوطنية من اجل توجيه كل الطاقات نحو بناء المجتمع وتطويره .

مشكلة البيروقراطية العربية :

يواجه المثقفون العرب اجهزة بيروقراطية خلفتها عصور الحكم العثماني والاستعمار الغربي . تقف هذه البيروقراطية الحكومية ، بقوانينها واحكامها ومؤسساتها ، عائقا رئيسيا في وجه التغيير الجذري المطلوب في المجتمع العربي .

ويجد العالم والمثقف العربي نفسه مقيدا من قبل هذه المؤسسات الحكومية ويفقد القدرة على الانتاج والابداع في مجاله العلمي والثقافي .

لذلك يحتاج الوطن العربي الى تغير جذري يقتلع هذه المؤسسات القديمة ويعيد بناء المؤسسات الحكومية بشكل يتلاءم مع متطلبات المجتمع الجديد ويفتح المجال امام العقل والفكر العربي للقيام بدوره المطلوب . كما انه لا بد من انشاء مؤسسات علمية وثقافية جديدة ، بعيدة عن البيروقراطية الحكومية ، لتكون مراكز بعث للنهضة العربية الجديدة(١٣) .

ان دراسة هذه المشاكل السياسية ، والتعمق في اسبابها وجذورها ووسائل حلها ، يساعد على خلق الجو السياسي المناسب للاستفادة من الطاقات والكفاءات البشرية والعلمية في الوطن العربي .

العوامل الثقافية والاجتماعية :

يواجه الوطن العربي ، بسبب مروره بمرحلة تطور انتقائية ، مشاكل وازمات ثقافية واجتماعية عديدة . وتؤثر هذه المشاكل تأثيرا مباشرا على المثقفين العرب وعلى دورهم في المجتمع العربي .

ومن الملاحظ ان الدراسات حول المشاكل الاجتماعية والثقافية في الوطن العربي قليلة . فلا بد اذن من اثارة الاسئلة والبحث حول هذه المشاكل والازمات التي تواجه الكفاءات العربية .

١ ـ ازمة الهوية العربية :

يواجه المثقف العربي ازمة الهوية او الانتماء العربي ، فالى اي مجتمع ينتمي الانسان العربي ؟ المجتمع الاسلامي المحافظ ، ام المجتمع الاشتراكي التقدمي ؟ وما هي الاسس التي يقوم عليها المجتمع ؟ هل هي التقاليد والعادات الاسلامية ام المفاهيم الغربية الجديدة ؟

ان هذه اشد الازمات بالنسبة للمثقف والعالم الذي قضى فترة في المجتمع الغربي واستمد ثقافته وعلمه من هذا المجتمع . لذلك لدى عودته للوطن العربي يواجه مجتمعا له تقاليده وعاداته التى تصطدم مع التربية والتنشئة الغربية للمثقف . وتزداد حدة هذه الازمة بسبب الصراع الدائر في الوطن العربي حول هذه القضية ، خاصة في مرحلة الانتقال التي لم تتضح فيها معالم الهوية العربية المعاصرة .

٢ ـ ازمة الفكر العربي :

وازمة الهوية مرتبطة بازمة اساسية اخرى هي ازمة الفكر العربي . فما هو الفكر العربي المعاصر ؟ وكيف يمكن توضيح ملامحه

---

(١١) كتب جمال الدين الافغاني بان احد اسباب انحطاط المسلمين هو الفجوة بين العلماء والملوك وانفصام الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة . اديب نصور ، « مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي في مائة عام » ص ٨٩ ، كما اشار د . اسحق موسى الحسيني الى فساد الحكام واتخاذهم حاشية تسكت عن الفساد بفساد مثله ، « ابحاث في ماضي المسلمين وحاضرهم » (القاهرة ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية عام ١٩٦٦) ص ٧٥ .

(١٢) يشدد بعض الكتاب العرب على اهمية وحدة القوى الوطنية والثورية في كل قطر عربي كخطوة نحو الوحدة العربية ، د. رفعت السعيد « الوحدة العربية ـ نقاط الاتفاق ونقاط الخلاف » الطليعة ـ القاهرة ، مايو ١٩٧٤) . كما ينتقد بعض الكتاب التجربة الناصرية من حيث اهمالها تقوية قوى الشعب خاصة الفلاحين والعمال ، عن طريق بناء الطبقة العاملة واستكمال الثورة الوطنية الديمقراطية كخطوة نحو الاشتراكية . ط ث. شاكر « قضايا التحرر الوطني والثورة الاشتراكية فى مصر » (بيروت دار الفارابي ، ١٩٧٣) .

(١٣) قدم علي قطريب عددا من الاقتراحات القيمة حول انشاء اجهزة جديدة للاستفادة من الكفاءات العربية على اساس علمي بعيد عن البيروقراطية ، منها انشاء مجلس عربي للابحاث ، ومراكز للابحاث العلمية والتطبيقية ، ومكتبة مركزية للوثائق ، وتمويلها من الدول العربية . د. علي قطريب ، « هجرة الكفاءات العربية » الثقافة العربية (ليبيا ، ديسمبر ١٩٧٤) ص ٢٤ .

في هذه المرحلة الانتقالية حيث لا تزال التناقضات الطبقية والاقتصادية تمزق المجتمع العربي ؟(١٤) .

تؤثر هذه الازمة الفكرية على العالم العربي ، فلابد من ان يوضح موقفه من التيارات الفكرية المطروحة ، ولكنه في الوقت نفسه يرغب التفرغ لعمله العلمي الموضوعي . لذلك يقف العقل العربي مشتتا بسبب هذه الازمة الفكرية .

ان الصراع الفكري جزء طبيعي من مرحلة الانتقال التي يمر بها الوطن العربي . ففي هذه المرحلة تتضح ملامح المدارس الفكرية المتصارعة ، فمنها المدرسة الاسلامية والمدرسة القومية والمدرسة الاشتراكية الماركسية(١٥) .

ولكن تبلور الفكر العربي الحديث سيتم مع تطور المجتمع العربي وظهور طبقات جديدة تستطيع ان تربط العقيدة بمصالح فئات الشعب المسحوقة ، وخاصة الفلاحين والعمال . لذلك لابد للمثقف والعالم ان يواجه ثقافته وعلمه لخدمة هذه الطبقات من شعبه ، وبهذا يشارك في حل هذه الازمة الفكرية .

٣ ــ مشكلة المؤسسات التربوية والتعليمية :

لقد ساهمت المؤسسات التربوية ، المدارس ، المعاهدوالجامعات العربية ، في خلق هذه الازمة الفكرية الى حد كبير . فوجود مدارس ومعاهد اجنبية في الوطن العربي ادى الى تعقيد مشكلة الهوية . فمعظم المثقفين العرب الذين درسوا في المدارس والجامعات الاميركية في الوطن العربي ، تشبعوا بالثقافة الغربية الاميركية بمعزل عن ثقافتهم وتاريخهم العربي .

ولقد ساهم تخلف المدارس والجامعات العربية في تعميق هذه الازمة . فعندما تضعف الجامعات والمدارس ومراكز الفكر في المجتمع ، ينطفىء الفكر ويتخلف الانسان عن ركب الحضارة والعلم(١٦) .

كما ان الصراع الفكري ساهم في خلق البلبلة حول الاسس التي تقوم عليها المؤسسات التعليمية . فهل يقوم التعليم على الاسس الاسلامية ، ام الاسس الاشتراكية ؟ وما هو وقف الدين من العلم والتطور الحديث ؟(١٧) .

---

(١٤) راجع الندوة حول الفكر العربي في مجلة « قضايا عربية »، والتي طرحت التساؤلات حول وجود فكر عربي معاصر ، وعلاقته بمشاكل المجتمع وبالمرحلة التي يمر بها العالم العربي . واستخلصت الندوة بان الوطن العربي يمر حاليا في « محنة حتى على مستوى الفكر » . « تجديد الفكر العربي » قضايا عربية (بيروت ، اذار ١٩٧٥) العدد ١١ ، ص ١٢ ــ ٣٠ .

(١٥) راجع دراسة د. محمد البهي حول الفكر الاسلامي الحديث للتعرف على الاتجاه الفكري الاسلامي ، ودراسة ط . شاكر حول قضايا التحرر الوطني والثورة الاشتراكية في مصر للتعرف على الفكر الاشتراكي الماركسي .

(١٦) راجع كتابات عبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا وجمال‌الدين الافغاني وبطرس البستاني حول اسباب انحطاط العالم الاسلامي والتي ترجع معظمها الى اهمال العلم والعقل وانتشار الجهل ، وانفصام العلماء عن الحكام . اديب نصور « مقدمة لدراسة الفكر السياسي العربي » ص ٨٤ــ٩١ .

(١٧) يرى محمد المبارك ان سبب المشكلة الثقافية في العالم العربي هو سيطرة الافكار والمذاهب المخالفة للاسلام على النظام الثقافي . محمد مبارك ، الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الافكار الغربية (بيروت ، دار الفكر ، ١٩٦٨) ص ١٣١ .

ان اعادة بناء المعاهد التربوية العربية واعطاءها الاولوية في خطة التنمية هما جزء اساسي من عملية حل مشكلة الهوية . ولا بد ان تلتزم هذه المؤسسات التعليمية بالبرنامج المرتبط بعملية التغيير والبناء الجديد في المجتمع العربي . ان ربط المدارس والجامعات العربية بمشاكل المجتمع يساعد على توجيه الفكر والعقل العربي نحو الاهتمام بحل مشاكل المجتمع العديدة عن طريق البحث العلمي والموضوعي . كما لا بد لهذه المعاهد التمهيدية ان تحتفظ بهويتها العلمية واستقلاليتها عن الفئة الحاكمة لتقوم بدورها العلمي الموضوعي (١٨) .

٤ ــ المشاكل الاجتماعية والعائلية :

يواجه المثقف والعالم العربي مشاكل اجتماعية عديدة تؤثر على اقامته وعمله في المجتمع العربى . فالصراع بين التقاليد والعادات الاسلامية والعربية وبين العادات الغربية الجديدة يسبب ازمة لدى المثقفين .

كما ان التطور السريع من المجتمع القروي التقليدي الى المجتمع المدني الحدبث يسبب مشاكل جديدة عديدة . فما هو دور العائلة في هذا المجتمع الحديث ؟ وما هو دور المرأة العربية ، وهل تبقى اسيرة المنزل ام تأخذ دورها كفرد عامل في المجتمع يشارك في عملية التغيير والبناء ؟

وكيف يمكن للمثقف والعالم ان يساهم في المجتمع الريفي حيث لا تتوفر رفاهية المدنية الحديثة التي تعود عليها خلال دراسته فى الغرب ؟

كما ان موضوع التراث الديني يثير مشاكل اجتماعية عديدة . فما هو دور الدين فى المدنية الحديثة ؟ وعلى أي الاسس يمكن تربية الجيل الجديد وابناء العلماء في الوطن العربي ؟ كل هذه المشاكل يواجهها المثقف العربي وتؤثر على قدرته في الانتاج العلمي ، والاستقرار في مجتمعه العربي .

ان الكثير من المثقفين والعلماء العرب يلجأون للغرب هربا من هذه التناقضات الاجتماعية الحادة في المجتمع العربي . فالعقل العربي الذي انشيء نشأة علمانية غربية لا يستطيع مواجهة مشاكل مجتمعه التقليدي العربي ، وبذلك يفضل العودة للبيئة التي تشبع منها بالفكر والعلم .

ان دراسة المشاكل الاجتماعية والعائلية في الوطن العربي كمدخل لفهم التناقضات العربية الراهنة تكاد تكون معدومة . ولعل دراسة د. هشام شرابي (مقدمات لدراسة المجتمع العربي) فريدة من نوعها حيث تحاول دراسة مشاكل تربية الطفل العربي واكتشاف العوامل العائلية والتربوية التي تكون الشخصية العربية المعاصرة .

المشاكل الذاتية :

يواجه المثقفون العرب مشاكل ذاتية عديدة تؤثر على مشاركتهم في العمل بالوطن العربي . فمن واقع ثقافته الغربية المادية ، يتطلع

---

(١٨) يدعو قسطنطين زريق الجامعة الى الاندماج في المجتمع والمشاركة في آماله ومطامحه والاحتفاظ بدورها في نقد المجتمع . قسطنطين زريق ، « الجامعة ومستقبل الفكر العربي » ص ٦٥١ ــ ٦٥٢.

المثقف الى التقدم السريع في المجتمع . فالشهادة بالنسبة له هي وسيلة للوصول الى المناصب العالية في المجتمع . لذلك يلجأ بعض المثقفين الى التقرب للسلطة والتخلي عن المبادىء والقيم العلمية في سبيل الوصول للمناصب الكبيرة .

ويصف د. هشام شرابي المثقفين هؤلاء « بالنزعة الانتهازية » بسبب استعدادهم للمساومة والابتعاد عن المبادىء العليا(١٩) .

كيف يخدم المثقف ، اذن ، الجماهير العربية المسحوقة ، وكيف يستطيع الالتزام بالمفاهيم « الفردية » بدون التخلي عن دوره العلمي والموضوعي في المجتمع ؟ والى اي حد يستطيع المثقف والعالم التضحية بالمكاسب المادية في سبيل التزامه بقضايا شعبه العربي ؟ .

ان الوطن العربي بحاجة الى « المثقف الملتزم » ، الذي يقف الى جانب شعبه ويلتزم بالكلمة الحرة والمبادىء النابعة من نضال شعبه . ولكن المشكلة التي يواجهها الوطن العربي هي كيفية تربية هذه الكوادر المثقفة والملتزمة ، خاصة في هذه المرحلة الانتقالية التي تشتد فيها التناقضات الفكرية والسياسية ؟

العوامل الاقتصادية والمالية :

يعتقد بعض الكتاب العرب ان تأمين المكافات المالية المغرية يشجع على عودة الكفاءات العربية واستقرارها في الوطن العربي . (٢٠) ان تأمين الموارد المالية هام ، ولكنه ليس باهمية العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية .

ان المشاكل المالية ثانوية بالنسبة للعوامل السياسية والثقافية والاجتماعية التي سبق بحثها. وتأمين الجو السياسي والاجتماعي والفكري المناسب هو الاهم لان المثقف الملتزم مستعد للتضحية المالية اذا توفرت الظروف الاخرى هذه .

ان عودة بعض المثقفين والعلماء العرب للمشاركة في عمل الثورة الفلسطينية والثورة في اليمن الجنوبي لدليل على استعداد المثقفين للتضحية بالعنصر المادي اذا توافرت الظروف السياسية والفكرية المناسبة . ان التزام هؤلاء بالعمل مع الثورة في اليمن الجنوبي وفلسطين لم يكن بسبب الاغراء المادي ، وانما بسبب الالتزام الفكري وبسبب الجو السياسي الذي امنته الاوضاع في هاتين الحالتين .

مع ذلك فان توفر الاستقرار الاقتصادي وتأمين الحاجات الاساسية المعيشية شرط اساسي لعودة الكفاءات ومشاركتها في العمل. فمن واجب الدولة اذن تأمين الاحتياجات الاساسية كتعليم ابناء المثقفين وتأمين الضمان الصحي والاجتماعي . فعندما يشعر المثقف والعالم بأن مستقبله ومستقبل اولاده مؤمن ، يستطيع أن يتفرغ لعمله العلمي باطمئنان واخلاص .

وقد قام عدد من الدول العربية ، منها العراق وليبيا ، بسن قانون جديد لعودة الكفاءات العربية ، يقدم لها كل التسهيلات والمساعدات المالية ، وذلك لاغراء العلماء العرب بالعودة والعمل في الوطن العربي . يمكن للمثقف ان يتحمل الكبت الفكري ، ولكن من الصعب عليه تحمل الكبت الفكري والكبت المادي في الوقت نفسه .

ان دول الخليج العربي الحديثة تملك الامكانيات المالية لمعالجة هذه المشاكل. فان توفرت الحرية السياسية والاستقرار الاجتماعي تستطيع هذه الدول الحديثة ارساء الاسس لنهضة عربية شاملة في منطقة الخليج العربي تكون القدوة للدول العربية الاخرى .

الخلاصة :

ان العقل البشري وطاقة الانسان العربي هما الباعثان الاساسيان للنهضة العربية . فلا يمكن بعث حضارة ونهضة عربية جديدة بدون تحرير الانسان العربي وتمكينه من المساهمة الفعالة في بناء مجتمعه الجديد . ولا يمكن تحرير العقل العربي الا عن طريق تحرير الانسان العربي ، لان العقل هو جزء من الانسان .

ان هروب الكفاءات العربية ما هو الا جزء من مشاكل الاضطهاد والتعسف في العالم العربي . لذلك لابد من معالجة الاوضاع الداخلية في العالم العربي لوضع حل جذري لمشكلة هجرة الكفاءات العربية .

ولا يمكن للفكر العربي ان ينتج في مجتمع تنقصه الحرية والديمقراطية ، لذلك فان تحرير الانسان العربي واقامة مؤسسات ديمقراطية شعبية هو الحل الجذري لهذه المشكلة .

ان الاوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية في الوطن العربي هي التي تسبب هروب الكفاءات العربية وشل الفكر العربي وانعدام التقدم العلمي . فمعرفة هذه المشاكل الاساسية ومحاولة معالجتها هو الطريق السليم لتحرير العقل العربي وانطلاقه نحو البناء الخلاق .

ان المشكلة ليست هروب الكفاءات العربية فقط ، انما هي اهمال الانسان العربي عامة واعتباره اداة لا طاقة خلاقة يمكنها تغيير المجتمع . لذلك فان عملية تحرير الانسان العربي ، وخاصة تحرير الفلاح الذي يمثل قوة اساسية في المجتمع ، وتحرير المرأة التي تمثل قوة كبرى في المجتمع هو الاساس لمواجهة مشكلة هجرة الكفاءات العربية .

وتجدر الاشارة هنا الى أن منطقة الخليج العربي تستطيع حل كثير من هذه المشاكل والانطلاق في عملية البناء الجديد . ففي عدد من دول الخليج (كالكويت والامارات وقطر وغيرها) لا توجد الرواسب البيروقراطية الحكومية القديمة ، ولا توجد التناقضات الاجتماعية الحادة ، فان توفرت حرية الرأي والاستقرار السياسي ، تستطيع دول الخليج العربي تحقيق تجربة رائدة في التاريخ العربي المعاصر من حيث بناء حضارة عربية مشعة .

د. حاتم الحسيني

مكتب الاعلام العربي بواشنطن

---

(١٩) راجع فصل « المثقف العربي والمستقبل » حيث يعالج د. هشام شرابي بالتفصيل دور المثقفين العرب ومشاكلهم ، ويقدم تعريفا بالاتجاهات المختلفة لدى المثقفين . كما يدعوهم الى تحمل دورهم التاريخي والمساهمة في تحقيق التغير في المجتمع العربي . هشام شرابي مقدمات لدراسة المجتمع العربي (بيروت ، الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٥) ص ١٢٩ ، ١٤٠ .

(٢٠) يؤكد د. الياس زين ان اول ما يجب عمله هو تهيئة المعاشات والرواتب المناسبة للاختصاصيين العرب ، اذ يعتقد أن هناك علاقة وثيقة بين الرواتب المنخفضة والهجرة . د. الياس زين ، « هجرة الادمغة العربية » ص ١٣٧ .

د . محمد ربيع

هجرة الكفايات العربية

أهمية الموارد البشرية

تنبع أهمية الموارد البشرية من كون حياة الانسان ورفاهيته الهدف الاول لكل خطط وبرامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واهم دافع وراء ما حققته الانسانية خلال تاريخها الطويل من انجازات حضارية ، مادية ولا مادية . اذ ان القيام بأي عمل مهما كان نوعه او طبيعته لا بد من أن يعتمد على الانسان في استكمال واحد أو أكثر من مقوماته ، كما ان هدفه النهائي لا بد من ان يتجه الى اشباع رغبات انسانية يحتاجها الفرد ولا تخرج عن الاطار العام لاهداف المجتمعات الانسانية . ولذلك يشكل العنصر البشري بما يمثله من قوة منتجة وقدرة على الاستهلاك ، وما يرنو اليه ويتطلع الى تحقيقه من مستويات معيشية أهم قوى الدفع والجذب وراء ما تعيشه المجتمعات المتقدمة من نمووتطوروما تعانيه المجتمعات المتخلفة من مشاكل وازمات.

ولما كانت عملية استغلال الموارد الطبيعية المتاحة لاي شعب من الشعوب تتطلب قوى بشرية ذهنية وجسمانية وقوى مادية تخضع لارادة الانسان وتوجيهاته ، فان حجم السكان ونوعيتهم يلعبان الدور الاكبر في تحديد مدى الاستفادة الممكنة من الموارد المتاحة لهم . اذ على الرغم من امكانية توفر الموارد الطبيعية بكثرة ، فانها تبقى بدون فائدة حقيقية حتى تمتد يد الانسان اليها وتبدأ في استغلالها وتوجيهها لخدمة قضايا الانسان في تطوره وتقدمه . ولما كان التقدم لا يتم الا بالانسان ومن خلال المجتمع ومؤسساته المختلفة ، فان نوعية السكان تصبح العامل الاكثر أهمية في تجديد علاقة المجتمع بموارده . ولذلك يصبح العنصر البشري بما وصل اليه من مستويات علمية تكنولوجية وما يمثله من افكار وقيم حضارية العامل الحاسم في تحديد مدى التقدم او التخلف الذي يتحقق لاي شعب من الشعوب . وفي هذا المجال ومن اجل التدليل على اهمية الانسان في صنع التقدم من عدمه يقول ماوتسي تونغ « لا توجد بلاد غير منتجة بل توجد عقول غير منتجة »(١) .

وبناء على نتائج البحوث والدراسات التي آجريت في مجال الاستثمار البشري تتضح الاهمية القصوى لبرامج تنمية الموارد البشرية واعداد الكوادر القادرة على استيعاب مفاهيم التقدم والمؤهلة لقيادة المجتمع وترجمة اهدافه الى حقائق واقعية . اذ بينما تشير الدراسات الى ان حوالي ٦٠ بالمئة من الزيادة في الدخل القومي الحقيقي للولايات المتحدة الاميركية في الفترة ١٩٠٠ – ١٩٥٦ تعود في معظمها الى التحسن في نوعية الموارد البشرية المستخدمة ، وجد ان ارتفاع مستوى التعليم بالنسبة للعامل الامريكي يساهم بحوالي ٣٦ – ٧٠٪ من الزيادة في عوائد العمل لديه (٢) .

ان الانسان في سعيه الدائب من أجل تحسين ظروف حياته يساهم في الجهود الرامية الى رفع مستوى الحياة بوجه عام ، كما يشكل ضغطا متزايدا على موارد المجتمع المتاحة . اذ بينما تمخضت جهود الانسان في المجتمعات المتقدمة الرأسمالية والاشتراكية ، عن تحقيق قدر كبير من التقدم ، ساهمت معدلات النمو السكاني المرتفعة وانخفاض مستويات التعليم وتزايد تطلعات الانسان في المجتمعات المتخلفة في تكريس الكثير من الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة في تلك المجتمعات . اذ على الرغم من أن معدل انتاج الطاقة والغذاء العالمي وصل الى ارقام خيالية جعلته يتفوق على نتاج كل العصور السابقة ، فان اعداد الجياع وأعداد المرضى وأعداد المحتاجين الذين يعانون من الفقر وسوء التغذية والبطالة والامية والاستغلال لا زالت في تزايد مستمر .

وعلى الرغم من ان سكان الدول المتخلفة يشكلون حوالي ثلثي سكان العالم ، فانهم لا ينتجون الا حوالي ربع الانتاج العالمي من الغذاء وحوالي ٥ بالمئة من الانتاج الصناعي فقط . وبينما يملك حوالي ثلث سكان العالم ، هم سكان الدول الصناعية المتقدمة، كل المعرفة العلمية والفنية المتوفرة وينفقون حوالي ٩٥ بالمئة من مجموع الانفاق العالمي على البحث العلمي ، يعيش حوالي ثلثي سكان الكرة الارضية ، هم سكان الدول النامية ، بدون بحث علمي أو معرفة فنية متقدمة تقريبا(٣) . ولذلك يساهم التقدم العلمي والتكنولوجي الذي تتمتع به الدول الصناعية المتقدمة في حصول تلك الدول على

---

(١) د. محمد ربيع ، الاقتصاد والمجتمع ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٢ .

(٢) Theodore W. Schultz, Investment in Human Capital pp. 11 - 13.

(٣) د. محمد ربيع ، هجرة الكفايات العلمية ، ص١٢٧ .

حوالي ٩٠٪ من الدخل الكلي لدول العالم تاركة ١٠٪ فقط لدول العالم المتخلف . وهكذا يصبح نصيب الفرد من انتـاج الغذاء في الدول المتقدمة يعادل سبعة امثـال نصيب الفرد في الدول المتخلفة ، ويصل معدل الدخل الفردي في الدول الصناعية ، بالمقارنة بمعدل الدخل الفردي في الدول المتخلفة ، الى حوالي ٢٠ مرة .

وبسبب ما تعيشه المجتمعات النامية من تخلف يعكسه انخفاض مستوى التعليم ، وانتشار الامية ، وجمود نظام القيم ، وانخفاض مستوى الفن الانتاجي السائد ، وسوء استغلال الموارد المتوفـرة البشـرية منها وغير البشرية ، تتسع الفجوة التي تفصـل الدول المتقدمة عن الدول المتخلفة كما تتسع الفجوة التي تفصل اغنيـاء الدول النامية عن فقرائها . ونتيجة لذلك تعاني المجتمعات المتخلفة من مشاكل كثيرة اقتصادية وغير اقتصادية ، تكرس نفسها مع الايـام وتحول دون تخفيف الام الناس وتحقيق امالهم في التقدم المطلوب . ومن أهـم المشاكل ذات الابعاد المختلفة والآثار العميقة على حياة تلك المجتمعات ومستقبلها مشكلة « هجرة الكفاءات العلمية » .

هجرة الكفاءات العلمية في اطارها التاريخي

ان هجرة العلماء او طالبي العلم لبلادهم والنزوح الى بلد اخر أو البقاء في نفس البلد الذي تلقوا العلم فيه واتخاذه موطنـا جديدا لهم ، تعتبر مشكلة قديمة قدم العلم نفسه ، وظاهرة اجتماعيـة املتها ظروف الحياة الانسانية وغذاها تفاوت التقدم الحضاري بين مختلف أقطار العالم على مدى العصور . وربما كانت هجرة الفلاسفة اليونان من بلادهم واتجاههم الى اثينـا فيما بين سـنتي ٦٠٠ ق.م و ٣٠٠ ق م أهم الهجرات الانسانية القديمة التي تركزت حول هجرة الكفاءات العلمية بسبب العلم ومن اجله .

وبعد امتداد الحكم الاغريقي الى مصر أخذت الكفاءات العلميـة تتجه نحو الاسكندرية ، حيث عمل حكام مصر في ذلك الوقت على رسم سياسـة قومية تجذب المهاجرين من العلماء والفلاسـفة اليها ، وذلك بهدف اقامة مركز حضاري جديد فيهـا يفوق في أهميتـه وعظمته مركز أثينا نفسـها . ومما يؤكد اهتمام حكام مصر البالـغ باقامة ذلك المركز وعيهم الكامل لما يمكن للعلم أن يقدمه من خدمـات ليس فقط في مجال امداد الدولة بالجديد من مقومـات الحضـارة الاساسية ، وانما أيضا في نشر روح الخوف والشـعور بالرهبة بـين صفوف المواطنين(٤) .

وبعد استقرار الحكم العربي في اوائل العهـد العباسي ، اتجـه الخلفاء العباسيون الى تشجيع العلم والعلماء، فاخذوا يرفعون من شانهم ويغدقون المال على النابهين منهم . ومع اتجـاه العباسيين الى بناء مركز حضاري متقدم في عاصمتهم اخذت البعثات العلمية من اختلاف اقطارها وعلى اختلاف دياناتها ترد الى بغداد ، طلبا للعلم والمعرفة . وبذلك عمل العباسيون على خلق الظروف الملائمة لقيـام حركة علمية نشطة ادت الى اجتذاب الكثير من العلمـاء الى مدينـة بغـداد والاستقرار فيها . وبعد فترة قصيرة أصبحت بغداد محط أنظـار العلماء وطالبي العلم ، يقدمون اليها من مختلف بقاع العـالم ينهلون من منابع المعرفة فيها ويساهمون في تقدمها وتطورها .

ومن خلال استعراض هجرات العقول على مدى العصور امكن التوصل الى تحديد بعض العوامل الاساسية التي قادت تلك الهجرات وساهمت في تحديد حجمها واتجاهها ، وبالتالي اثرها على تطـور الحضارات الانسانية المختلفة .

١ ــ اتجاه الهجرة من الاماكن الاقل تقدما وتحضرا الى الاماكن الاكثر تقدما ورقيا ، او الى الاماكن التي توفرت فيها الاجواء الصحية لتقدم العلوم والفنون وحرية الفكر .

٢ ــ ان قيام مركز علمي وثقافي في بلد معين او حدوث ازدهار اقتصادي فيـه كان يعمل على جذب العلماء والفنيين والمفكرين اليه ليساهموا في تقدم البلد المضيف وتطور الحركـة العلميـة والحيـاة الاقتصادية والاجتماعية فيه .

٣ ــ ان اتجاه العلماء والمفكرين والفنيين الى العمل في بلد معـين كان مظهرا لحدوث تفاوت نسبي في مستوى التقدم بين بلد واخر ، كما كان تعبيرا عن مقدرة البلد المضيف واستعداده لاستيعاب الوافدين من الكفاءات العلمية وتسهيل مهمتهم .

٤ ــ تعرض هجرة الادمغة لتدخل السلطة السياسية وذلك من اجل منع هجرتهم حفاظا على حركة علمية وتنموية قائمة او من اجل تشجيع هجرتهم الى حيث تزداد الحاجة اليهم من اجل بدء اوتنشيط حركة علمية ثقافية او خطة انمائية اقتصادية واجتماعية .

٥ ــ انه على الرغم من الخاسر والمكاسب التي دارت على المهاجرين انفسهم وعلى بلادهم الاصلية والبلاد التي هاجروا اليها ، فان حصيلة هجرة الكفاءات العلمية والفنية خدمت هدف تطوير حياة الانسان وتقدمه ، كما عملت على اثراء التراث الحضاري للانسانية بوجه عام. اذ جاء رحيل العلماء الى حيث وجدوا افضل الفرص للعمل والعيش، وانهم حيث وجدوا فرصا حقيقية للتعبير عن ذاتهم اعطوا معظم او كل ما عندهم وساهموا باروع نتاج عقولهم .

هجرة الكفاءات العربية ــ أبعادها وآثارها

ان ازدياد الاهتمام بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية ، خاصة بعـد الاستقلال وبعد اكتشاف الثروات الطبيعية في اجزاء متعددة من الوطن العربي ادى الى زيادة الاهتمام بمشـكلة هجرة العقول العربية الى الخارج . ويعود السـبب في ذلك الى زيادة الاعتقاد بوجود ارتباط مباشر وقوي بين توفير الكفاءات العلمية في بلد معين وتوفر امكانية تصعيد معـدلات التنمية الاقتصاديـة والاجتماعية فيه .

وبوجه عام ، ومن خلال دراسة مسار هجرة العقول العربية في فترة ما بعد الحرب العالميـة الثانية ، يمكن تأكيـد حقيقتـين اساسيتين :

١ ــ ان حجم الهجرة من حيث الكم والنوع يجعلها قضية قومية من اهم القضايا التي تثيرهـا وتغذيها الاوضاع الاقتصـادية والاجتماعية والسياسية في الوطن العربي .

٢ ــ ان حصيلة تلك الهجرة تشير الى انها في صالح الدول الصناعية المتقدمة والدول العربية الغنية وذلك على حساب الدول العربية الفقيرة .

ولما كانت الدول الغنية ، الصناعية منها والعربية ، اقـدر على توفير احتياجاتها من الموارد البشرية من الدول الفقيرة ، فاناستمرار مسار هجرة الكفاءات العربية على النحو الذي يسـود في الوقت الحاضر يقود الى تكريس الفجوة بين الفقراء والاغنيـاء واتساعهـا . ولما كان التفكير الاقتصادي الجديد على المستوى العالمي يتجـه الى العمل على تضييق تلك الفجوة ، وان التفكير الاقتصاديعلى المستوى

(4) Steven Dedijer, Early Migration in the Brein Drain, Waller Adams, Ed., P. 14.

العربي يتجه الى محاولة تحقيق نوع من التكامل الاقتصادي بين البلاد العربية ، فان البحث عن حل لهذه المشكلة لابد من ان يتم ضمن اطار العمل العربي يقوم على تحقيق اكبر الفوائد الممكنة من تلك الكفايات وتحقيق الحالة في توزيع ما يعود منها من فوائد على مختلف ارجاء الوطن العربي .

وقبل الدخول في مناقشة موضوع كيفية تحقيق الاستقلال الامثل للكفاءات العربية والحيلولة دون هجرتها الى الخارج ، لا بد من الاشارة الى بعض الارقام التي تعكس مدى اهمية ظاهرة هجرة الكفايات وخطورتها . ولا بد من التنبيه منذ البداية الى ان تلك الارقام لا تعكس الحقائق بدقة بقدر اتجاهها الى محاولة ابراز حجم الهجرات المختلفة ونوعية المهاجرين واتجاهاتهم ، اذ تقوم الاحصاءات المتوفرة على تقديرات جزئية لمؤسسات حكومية وخاصة قد لا تكون متخصصة وعلى تقديرات فردية وانطباعات شخصية لعلماء ومفكرين ينبع اهتمامهم بهذه الظاهرة من احساس خاص بالمسؤولية تجاه قضية عامة تهم المواطنين والوطن . وحتى في الدول المتقدمة التي تملك المعلومات كافة عن حركة المهاجرين اليها تخرج المعلومات منها مبعثرة ومجزأة وما ينشر منها يتم في الغالب على اساس ضعيف مما يترك الباحث امام اختيارين لا ثالث لهما : اما الاعتماد على معلومات غير دقيقة وغير كاملة في مواجهة البحث عن اسباب وعلاج هذه المشكلة او الاتجاه الى صياغة السياسات واقتراح الحلول دون الاعتماد على ما يتوفر لديه من معلومات .

ان الوقوف عند هذه النقطة والتي تعتبر اساسية ومبدئية بالنسبة لكل بحث علمي يقودنا الى القفز الى النتائج وتقديم اقتراح نعتبر الاخذ به بشكل ركنا اساسيا من اركان دراسة هذه المشكلة والتعامل معها على المدى الطويل . ويتلخص الاقتراح في ضرورة العمل على اقامة « مركز الكفاءات العربية » كمستودع لتجميع وترسب المعلومات الكافية والضرورية عن الكفاءات العربية العلمية والفنية وتوزيعها على المستفيدين منها والمحتاجين اليها بالشكل الذي يخدم هدف تحقيق الاستقلال الامثل لتلك الكفاءات .

لقد كانت أهم موجات الهجرة الانسانية في العصر الحديث هي تلك الحركة التي اتخذت من الاطلسي مسرحا لها ، تنتقل عبر مياهه من قارات العالم القديم الى مختلف بقاع العالم الجديد . ففي الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٤٦ و ١٩٢٤ بلغ حجم الهجرة العالمية الى كل من امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية وحدهما ما لا يقل عن ٥٠ مليون من المهاجرين . معظمهم من الاوروبيين ، وعندما استقرت حركة الهجرة العالمية على اثر هدوء موجاتها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى كان حوالي ١١/١ من سكان العالم آوروبيين او من اصل اوروبي يعيشون خارج القارة الاوروبية(٥) .

ان الاوضاع الاقتصادية التي سادت في العالم الجديد قبل قيام الثورة الصناعية جعلت قبول المهاجرين من مختلف الطبقات والمؤهلات امرا ممكنا وضروريا في وقت واحد . الا ان تقدم الفن الانتاجي وزيادة اعتماد الاقتصاديات الحديثة على الكفاءات الفنية والادارية المؤهلة تأهيلا خاصا ادى الى بروز حاجات معينة في الدول المستقبلة للمهاجرين ، مما حتم تغيير تركيب ونوعية المهاجرين لصالح الكفاءات العلمية والفنية ، اذ تشير احدى الدراسات عن المهاجرين من الدول النامية الى انجلترا في منتصف الستينات الى ان الغالبية العظمى من المهاجرين كانت تتراوح اعمارهم ما بين ٢٢- ٢٦ سنة ، وان نسبة المهاجرين ممن تزيد المهن المختلفة ، فان ٢٩ بالمئة منهم كانوا من اساتذة الجامعات والباحثين ، وان ٥٢ بالمئة كانوا من المهندسين من ذوي التخصصات المختلفة ، وان ١٢ بالمئة كانوا من العلماء المتخصصين في الصناعة والتكنولوجيا (٦) كما تشير احدى الدراسات عن المهاجرين من جمهورية مصر العربية الى ان نسبة ذوي الكفاءات العلمية من المهاجرين الحاصلين على دراسات اكثر من الثانوية بلغت ٤٧،٩٪ من سنة ١٩٧٠ م ، موزعين كالتالي : ١٥،٥٪ من الزراعيين ١١،٨٪ من العلميين ، ١١٪ من المهندسين ، ٤،٤٪ من الاطباء البشريين(٧) .

وفي الجدول التالي نبين توزيع المهاجرين من جمهورية مصر العربية في الفترة ١٩٦٢ - ١٩٧١ على دول المهجر وفقا لمهنهم المختلفة.

جدول رقم (١)

توزيع المهاجرين من جمهورية مصر العربية وفقا لنوع المهنة ودولة المهجر خلال الفترة ١٩٦٢-١٩٧١

نوع المهنة / دولة المهجر	أصحاب المهن الفنية العالية	أصحاب المهن الادارية	أصحاب المهن الكتابية	أصحاب المهن التجارية والمالية	حرفيون وصناع	أصحاب مهن ترفيهية ورياضية	مهن أخرى وغير مبينة	المجموع	النسبة المئوية
كندا	١٠٢٥	٤٤٤	٨٢١	٥٥١	٥٢٤	٨٠	١٢٢٥	٤٤٦٠	٣٢ر٥٧
استراليا	٦٨٨	٤٤١	٨١٦	٣٥٨	٢٤٧	٣٣	٨٧٤	٣٧٤٣	٢٧ر٣٣
الولايات المتحدة الامريكية	٢٧٨١	٣١٤	٣١٢	٥٧٢	٢٢٢	٤٢	٥٩٣	٤٨٥٢	٣٥ر٤٣
دولة أخرى	١٥	٣	٢٧	٢٨	٤٢	٤	٦٤	١٨٣	١ر٣٤
البرازيل	١٢٩	١٣	٢٠	٢٨	٦٣	١	١٠٣	٤٥٧	٣ر٣٤
المجموع	٤٦٦٣	٧٩٠	٢٠٤٦	١٥٣٢	١٦٠٩	١٦٠	٢٨٥٦	١٣٦٩٤	٪١٠٠
النسبة المئوية	٣٤ر٢٧	٥ر٧٧	١٤ر٩٤	١١ر٢٢	١١ر٧٥	١ر١٧	٢٠ر٨٨	٪١٠٠	

المصدر : الطليعة ، ابريل ١٩٧٣ ، ص ٥٩ .

ان بروز هذا التطور في نوعية وتركيب المهاجرين كان احد الاسباب الرئيسية في حرمان الكثير من الدول النامية من قياداتها القادرة على العمل والابداع . وعلى الرغم من اختلاف وتعدد اسباب الهجرة واساليبها ، فان هجرة الكفاءات العلمية والفنية العربية تتم من خلال قنوات اساسية هي :

١ - الهجرة عن طريق الدراسة في الخارج .

(٥) Brinley Thomas. International Migration and Economic Development. P. 9.

(6) The Migration of Professionally qulified Manpower from Developing Countries to Britain. Science Policy Researh, Unit University of Sussex Sep. 1968.

(٧) كمال السيد ، ٣ اتجاهات رئيسية حول هجرة الكفايات العلمية . الطليعة ، ابريل ١٩٧٣ ص ٣٥ .

٢ ـ الهجرة المنظمة او شبه المنظمة من داخل الوطن العربي الى خارجه .

٣ ـ الهجرة داخل الوطن العربي .

واذا كانت الهجرة عن طريق الدراسة في الخارج او الهجرة المنظمة من داخل الوطن العربي الى خارجه قد حظيت ببعض الاهتمام من بعض الحكومات العربية والمنظمات الدولية والباحثين ، فان هجرة الكفاءات العربية من والى مختلف البلاد العربية بقيت دون دراسة او تعليل. ولما كان لهذا النوع الاخير من انواع الهجرة اهميته البالغة في تحمل اعباء التنمية في العديد من البلاد العربية ، ويملك امكانيات كبيرة في ارساء اسس افضل لتكامل عربي اقتصادي وغير اقتصادي ، فقد يكون من اهم واجبات هذا المؤتمر تبني هذه القضية والعمل على توفير كافة الامكانيات لدراستها وتحليل مختلف جوانبها وابعادها .

الهجرة عن طريق الدراسة في الخارج

تتميز البلاد العربية بارتفاع اعداد الدارسين من أبنائها في الخارج وارتفاع نسب المهاجرين منهم بعد اتمام الدراسة . وتقدر اعداد الطلبة العرب الذين يتلقون العلم خارج الوطن العربي بحوالي ٦٠ الف طالب حوالي ٦٠٪ منهم يدرسون في جامعات دول الغرب الصناعية ويتوزع الباقي ، اذ بينما كان عددهم في العام الدراسي ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ ، ٢٢٢١ طلاب فقط ارتفع ذلك العدد في العام ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ م الى ٥٣٥٦٩ طالبا(٨) . وبينما تقدر نسبة الدارسين منهم في بلاد الغرب الصناعية ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الاميركية وكندا وبريطانيا وفرنسا والمانيا الاتحادية ، بحوالي ٦٠٪ من المجموع العام تتوزع الاعداد الباقية بين جامعات الدول الاشتراكية وبعض الدول النامية .

ان اتجاه الطلبة العرب الى الدراسة في الخارج مع ضعف التخطيط العلمي والاشراف التربوي الذي من شأنه ان يوجه اهتماماتهم الوجهة التي تحافظ على استمرار ارتباطهم بالوطن وتؤهلهم لتقديم ما يحتاجه من مهارات وخدمات كثيرا ما يؤدي الى اتجاههم لدراسة تخصصات من الصعب او من غير الممكن تحقيق الاستفادة المرجوة منها في البلاد العربية . كما ان اعتماد نسبة كبيرة منهم على انفسهم في كسب رزقهم وتوفير نفقات الدراسة كثيرا ما يؤدي الى اضعاف صلة الطالب بوطنه ويسهل عليه التكامل مع حياة المجتمعات التي يعيش ويدرس فيها .

ودون الدخول في تعداد وشرح اهمية العوامل الاقتصادية وغير الاقتصادية التي تمثل قوى الدفع والجذب بالنسبة للمهاجرين من الطلبة العرب ، تقدر نسبة من يهاجر منها بحوالي ٥٠٪ على الاقل. اذ تشير احدى الدراسات في هذا المجال الى ان جميع الطلبة اللبنانيين الذين يدرسون في الولايات المتحدة الاميركية قد قرروا البقاء فيها وان حوالي ٨٠٪ من الطلبة الاردنيين الذين يدرسون في الغرب لا يعودون الى وطنهم ابدا ، وان من بين كل ١٢٠ طالبا سعوديا يخرجون للدراسة في الخارج لا يعود الى السعودية منهم الا ما بين ٣٠ـ٤٠ خريجا فقط(٩) . كما تشير الاحصاءات المتوفرة عن خريجي الجامعة الاميركية في بيروت ان حوالي ٨٠٪ من خريجيها من الاطباء العرب هاجروا الى الخارج(١٠) . وتؤكد التقارير التي قدمت الى مؤتمر مراكش التعليمي لسنة ١٩٧٠ ان نسبة المهاجرين من مجموع الكفايات العلمية والفنية العربية تزيد على ٥٠٪ . فيما يذكر الدكتور زحلان في احدى دراساته ان حوالي ٧٠٪ من العلماء العرب الذين يتدربون في الخارج لا يعودون الى اوطانهم(١١) .

ويتضح مما سبق ان نسبة الهجرة بين الطلبة العرب الذين يدرسون في معاهد غربية قد تصل الى ٧٠٪ . اما نسبة الهجرة بين الدارسين منهم في دول اشتراكية ودول نامية فقد تقل من ربع النسبة السابقة ، حيث تشكل اللغة في معظم الاحيان اهم الحواجز الذي تحول دون هجرة غالبيتهم الى الخارج . وعلى افتراض ان نسبة النجاح بين الطلبة العرب الدارسين في الخارج تعادل ٦٥٪ ، وان نسبة الهجرة بين من يدرس منهم في بلاد اشتراكية ونامية تصل الى حوالي ١٥ـ٢٠٪ ، فانه من الممكن ان تزيد اعداد الكفاءات العلمية والفنية التي تهاجر عن طريق الدراسة في الخارج عن ٣٠٠٠ جامعي كل عام(١٢) .

الهجرة من داخل الوطن العربي الى خارجه

لقد ساهم العرب على مدى العصور في تغذية تيار الهجرة الانسانية حيث كانت الاوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية في البلاد العربية تقوم بتحديد اتجاه ومستوى الهجرة الى مختلف اقطار العالم . ومع بداية حركة الوعي العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وقيام الحكم العثماني باستغلال العرب واضطهاد بعض الاقليات والطوائف ، نشطت حركة الهجرة العربية الى خارج الوطن العربي ، خاصة الى دول امريكا الشمالية وامريكا الجنوبية وبعض الدول الافريقية .ولما كانت الاوضاع الثقافية والعلمية التي سادت البلاد العربية في ذلك الوقت متخلفة ، كانت الغالبية العظمى من المهاجرين من العمال غير المهرة دون الاقليات التي تعرضت ابان الحكم العثماني لمختلف انواع الاضطهاد والتفرقة .

وبسبب تغير سياسات الهجرة في كل من الولايات المتحدة الاميركية وكندا واستراليا ودول اوروبا الغربية وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واتجاهها الى التركيز على الكفاءات العلمية والفنية، تضاءل حجم الهجرة العربية بوجه عام وارتفعت نسبة الكفاءات العلمية والفنية بين المهاجرين . ومما ساعد على تقوية هذا الاتجاه انتشار التعليم الجامعي في البلاد العربية وتزايد اعداد الخريجين ، وذلك في وقت تعثرت فيه خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية وساءت فيه الاوضاع السياسية ، خاصة بعد تعرضها للعديد من الانتكاسات والهزائم في صراعها مع اسرائيل ، وسوف نحاول في الجداول التالية استعراض بعض الاحصاءات والارقام التي تعكس اوضاع الهجرة العربية الى الخارج ، وبشكل خاص ما يتعلق بالكفاءات العلمية والفنية .

---

(٨) عبدالحليم خلدون الكناني ، رئيس دائرة التدريب في الخارج، اليونسكو ـ باريس ، في كلمة الافتتاح للاجتماع الاقليمي لمدراء دور التعليم العليا للتعليم الفني في البلاد العربية ، بيروت ٢٧ ـ ٢٩ اغسطس ١٩٧٤ .

(٩) Brain Drain, Mid - East, January / February, 1969.

(١٠) Study Project on the Migration of Scientists and Physicians, April 1966, the Adlai Stevenson Institute on International Affairs.

(١١) A. B. Zahlan, Migration of Scientists and the Development of Scientific Communities in the Arab World.

(١٢) د . محمد ربيع ، هجرة الكفاءات العلمية ص٧١ـ٧٧ .

جـدول رقـم (٢)

اعداد المهاجرين من الكفايات العلمية والفنيـة العربيـة الى الولايات المتحدة الاميركية ١٩٦٢ – ١٩٦٩

البلد	احصائيون وفنيون	مهندسون	علماء طبيعيه	علماء اجتماع	أطباء	ممرضات اخصائيات	مجموع الكفايات	مجموع المهاجرين
مصر	٢٧١٩	٥٦٤	٢٣١	--	١٧١	٢٥	٣٧٢٦	٩٣١٥
لبنان	[illegible]	٢٧٢	١٥	٢٠	١١٩	٤٧	١٨٦٦	[illegible]
الاردن وفلسطين	٨٨٦	١١٣	٤٧		٢٧	٤٢	١١٣٠	٩٥٤٨
العراق	٧٩٩	١٦٥	٦٧	-	٤٥	١٤	١٠٨٨	٤١٩٢
سوريا	٢٦٣	١٢٩	٣٠	٥	٤٣	١٣	٩٨٣	٢٤٠٦
المغرب	٢٣٨	١٨	٣	—	١٤	٩	٢٨١	٢٤٧٣
تونس	١٣٩	٤	٦	١	١٣	٢	١٦٥	٤٩٢
الجزائر	١١٣	٩	٢	٦	١	١	١٣٢	٩٨١

المصدر : الطليعة ، ابريل ١٩٧٣ ، ٦١ .

جـدول رقـم (٣)

اعداد المهاجرين من الكفايات العلميـة والفنية العربية الى كنـدا ١٩٦٢ – ١٩٦٧

البلد	احصائيون وفنيون	مهندسون	علماء طبيعيه	اساتذة ومدرسون	أطباء	ممرضات اخصائيات	مجموع المهنيين	مجموع المهاجرين
مصر	٩١٣	١١٩	٩٨	١٧	١٠٠	٧	٢١٥٠	٩٩١٦
لبنان	٢٤٤	١٩	٨	١١	٤١	١٠	١٢٢٢	٣٩٩٣
المغرب	١٠١٩	٤	١٣	٣	٥	٢	١٥٦	٦٩٨
سوريا	٣٣	٥	٢	١	٤	٢	١٥٨	٤٥٣
الاردن	٣٥	-	٢	٢	٢	٤	١٣٩	٤٢٢
العراق	٢٣	١٢	٥	١	٢	٣	٤٠	٢٥٥
تونس	٥	٢	٢	١	٣	١	٣٠	٦٦
المجموع	١٣٩٦	١٥٧	١٠٢	٣٩	١٦٤	٢٩	٤٤٢٧	١٥٢٠٧

جـدول رقـم (٤)

نسبة الكفايات العلمية والفنية العربية التي هاجرت الى كل من الولايات المتحدة الاميركية وكندا الى مجموع المهاجرين خلال الفترة ١٩٦٣ – ١٩٦٩

البلد	المهاجرون الى الولايات المتحدة	المهاجرون الى كندا
مصـر	٪٤٠٫١	٪١٢٫٧
لبنـان	٪٢٢٫٨	٪ ٩
الاردن وفلسطين	٪١١٫٨	٪١٠٫٩
العـراق	٪٢٦	٪٢٢٫٤
سـوريا	٪٢٨٫٤	٪١٢٫٢
المغـرب	٪١١٫٤	٪٢٠٫٩
تونس	٪٣٣٫٢	٪١٣٫٦
الجزائـر	٪١٣٫٥	٪

الارقام الخاصة بكندا للفترة ١٩٦٢ – ١٩٦٧

المصدر : مشتق من الجدولين ٢ ، ٤

جـدول رقـم (٥)

خريجو الجامعات العربية واعداد المهاجرين من الكفايات العلمية والفنية العربية الى كل من الولايات المتحـدة الاميركيـة وفرنسـا في سـنة ١٩٦٧ .

البلد	مجموع الخريجين	مهاجرون الى الولايات المتحدة	مهاجرون الى كندا	مهاجرون الى فرنسا	المجموع	نسبة المهاجرين الى الخريجين
العراق	٥٠٤٢	١٨٠	٩٩	—	٢٧٩	٪٥٫٣
الاردن	١٢٠٨	١٧٥	٢٣	—	١٩٨	٪١٦٫٥
لبنان	٢١٤٩	١٢٣	١٦٥	—	٢٨٨	٪١٤
سوريا	٣٠٣	٩٦	٣٦	—	١٣٢	٪٤٣٫٦
مصر	٢٦٨٨٨	٢٩٤	٤٠٩	—	٧٠٣	٪٢٫٦
الجزائر	٦٤٤	(أ) ٤٠	٣	—	٤٣	٪٦٫٧
المغرب	٩٣٣	(ب) ٢٤	٤٥	(د) ٤٠	١٠٩	٪١١٫٧
تونس	٥٣٩	(ج) ٢٣	٣	(د) ١٦	٤٢	٪٧٫٨
المجموع	٤٠٠٥٩	١٠٤٧	٥٠٣	٥٤	١٦٩٣	٪٤٫٤

ملاحظـة :

(أ) معدل الفترة ١٩٦٢ – ١٩٦٧ .

(ب) معدل الفترة ١٩٦٢ – ١٩٦٧ .

(ج) معدل الفترة ١٩٦٢ – ١٩٦٤ .

(د) معدل من منحوا اجازات ممارسة المهنة في فرنسا في الفرة ١٩٦٢ – ١٩٦٦ .

المصدر : مشتق من الجدول :

١ – رقم (١) ص ٨٠٠ – ٨٠١ ، اعداد المعلمين في الوطن العربي، القاهرة : ديسمبر ١٩٦٩ .

٢ – رقم (٢) ص ١٦٦ – ١٦٩

٣ – رقم (٣) ص ١٧٠

٤ – (٣) ص ١٧٠

٥ – رقم (٤) ص ١٧٢

ويتضح من الجدول رقم (٥) ان اعداد الكفايات العلمية الفنية العربية التي هاجرت الى كل من الولايات المتحدة الاميركية وكنـدا وفرنسا في منتصف الستينات بلغت حوالي ١٧٠٠ مهاجر . اما اعداد المهاجرين منهم الى كل من استراليا ودول امريكا الجنوبيـة ودول اوروبا الغربية فتقدر بحوالي ١٠٠٠ – ١٥٠٠ شخص في السنة ،وذلك لان اعداد المهاجرين منهم الى استراليا وحدها قـدرت بحوالي ٥٠٠ شخص في سنة ١٩٦٧ . وبذلك تكون نسـبة الهجرة بين الكفابات العلمية والفنيـة العربية قد وصلت في سنة ١٩٦٧م الى حوالي ٧٪ عن مجموع خريجي الجامعات العربية وعندما نأخذ في الاعتبار الظروف السيئة التي تلت حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، خاصة الاقتصادية منها،وفي مصر والاردن بالذات ، وارتفاع اعداد الطلبة الجامعيين ، فان اعداد المهاجريـن من خريجي الجامعات العربية من الممكن ان تكون قد وصلت ٤٥٠٠ – ٥٠٠٠ جامعي في السنة . واذا اضـفنا الى هذه الارقـام اعداد الكفايات العربية التي تهاجر عن طريق الدراسة في الخارج ، فان خسارة البلاد العربية من كفاياتها العلمية تقدر بما لا يقـل عن ٨٠٠٠ مهاجر في السنة .

وتؤكد الدراسات التي اجريت في مصر حول هجرة الكفايات العلمية والفنية المصرية الى الخارج ما توصلنا اليه من نتائج فيما سبق . اذ جاء في « الاهرام الاقتصادي » ان نسبة الكفايات العلمية والفنية بين المهاجرين المصريين في سنة ١٩١٩ بلغت ٦٢٫٣٪ وذلك في مقابل ٣٫٤٤٪ في سنة ١٩٦٢ . وهذا يبين بوضوح الاثار السلبية لحرب حزيران ١٩٦٧ على الواقع المصري الذي اصبح يشكل اهم قوى الدفع وراء نزوح القيادات العلمية ورحيلها من الوطن . ومن بين الكفايات العلمية والفنية التي هاجرت من مصر في تلك السنة ، بلغت اعداد الحاصلين على درجة الدكتوراه في مختلف العلوم ١٣ ، واعداد الحاصلين على درجة الماجستير ٣٥ ، والحاصلين على دبلومات عليا ٧٤ ، والحاصلين على درجة البكالوريوس ١٨٢٢ . (١٣)

وفي دراسة اخرى عن حجم الهجرة المصرية للفترة ١٩٦٣ - ١٩٧٢ تشير الارقام الى ان اعداد المهاجرين بلغت حوالي ٢٨ الفا تقريبا ، من بينهم ١٢٨٤ مهندسا ، ٦٤٦ طبيبا ، ١٥٩ صيدليا ، ٧٤٥ من حملة الشهادات الجامعية في العلوم الزراعية ، ٦٤١ من خريجي كليات العلوم (١٤) . وتشكل هذه الاعداد في مجموعها ما نسبته ١٢٫٤٪ من اعداد المهاجرين . واذا اضيف الى تلك الارقام اعداد الجامعيين الحاصلين على درجات علمية في فروع الادارة والاقتصاد وغيرها من العلوم الاجتماعية والانسانية وخريجو المعاهد الفنية العالية فان نسبة الكفايات العلمية بين المهاجرين على مدى العشر سنوات ١٩٦٧ - ١٩٧٣ م فانها قد تصل الى ٢٠٪ . اما جريدة الجمهورية فقد ذكرت نقلا عن وزارة الصحة المصرية ان عدد الاطباء المصريين المقيمين في انجلترا وحدها بلغ ١٥٠٠ طبيب في سنة ١٩٧٢ . (١٥) وفي دراسة لوزارة القوى العاملة والتدريب عن الهجرة الى استراليا تبين ان المهاجرين يتوزعون حسب مؤهلاتهم العلمية كالتالي(١٦) .

٢٦٪ بدون اية مؤهلات

٢٧٪ ذوي مؤهلات اقل من المتوسطة .

٤١٪ من حملة المؤهلات المتوسطة .

١٦٪ من حملة المؤهلات العالية .

اما نسبة الكفايات العلمية والفنية من المهاجرين فقد بلغت ٣٦٫٥٪ موزعين كالتالي :

٢٪ من المتخصصين في علوم الهندسة .

٧٪ من المتخصصين في الطب البشري .

٣٪ صيدلة .

١٢٪ من المتخصصين في العلوم الزراعية .

٢١٪ من المتخصصين في العلوم بمختلف فروعها .

١٫٥٪ طب اسنان وطب بيطري

وعلى العموم تقدر اعداد الجامعين من العرب بحوالي مليون جامعي، حوالي ١٠٪ منهم (حوالي ١٠٠٠٠٠) يعيشون ويعملون خارج البلاد العربية . اما حملة شهادة الدكتوراه فيما بينهم فيبلغ عددهم حوالي ١٥٠٠٠ نصفهم على الاقل هاجر الى بلاد غير عربية .

(١٣) الاهرام الاقتصادي ، العدد الصادر في ٢-٥-١٩٧٢ .

(١٤) جريدة الاهرام في عددها الصادر في ٢٢-٣-١٩٧٣ م.

(١٥) جريدة الجمهورية في عددها الصادر في ٢٥-٧-١٩٧٢

(١٦) الاهرام ٢٧-٧-١٩٧٥ م .

الهجرة داخل البلاد العربية

كما تهاجر الكفايات العلمية والفنية من وطن لاخر ، نجد انها تهاجر داخل الوطن الواحد ، وذلك في محاولة للبحث عن افضل امكانيات العيش والعمل . والهجرة داخل البلاد العربية تقوم على المؤهلين من الكفايات العلمية والمهارات الفنية والعناصر البشرية القادرة على العمل والانتاج . اذ ان تفاوت درجات التطور بين بلد عربي واخر ومنطقة اخرى ، خاصة بعد اكتشاف النفط وتسويقه في عدة اقطار عربية ، ادى الى ازدياد حجم الهجرة داخل البلاد العربية وتعدد اتجاهاتها .

وقد تكون الهجرة داخل البلاد العربية ليست ذات اهمية لو ان الحدود القائمة بين كل دولة واخرى وقوانين الاقامة في كل منها لا تحول دون ممارسة العربي لحقوق المواطنة في وطنه . اذ ان خضوع الفرد العربي في تنقله لاجراءات مشددة وقوانين معقدة في معظم الاحيان ، تجعل من الانسان العربي مهاجرا في وطنه ومقيما اقامة مؤقتة بين اهله ومحكوما عليه بان يشعر بعدم الانتماء الى ارضه .

وبسبب عدم توفر الاحصاءات الدقيقة عن اعداد المقيمين من العرب خارج دولهم وعدم قيام بعض الدول المضيفة باعداد الدراسات المطلوبة عن احوال العاملين لديها وتركيبهم وتوزيعهم المهني والجنسي .. الخ ، فانه من المتعذر علينا ان نقدم صورة دقيقة لاعداد ونوعيات الكفايات العلمية العربية التي هاجرت وتهاجر كل عام داخل البلاد العربية . الا انه يجب الا يفوتنا في هذا المجال ان نشير الى اهمية المهاجرين من العرب الى بعض الدول العربية ، وعلى وجه الخصوص الى الدول النفطية ولبنان . اذ بينما يبلغ حجم الجاليات العربية في كل من الكويت وقطر ودولة الامارات العربية المتحدة ما يعادل ١/٣ سكانها تقريبا ، تزيد اعداد الجاليات العربية التي تعمل في لبنان على المليون . وبينما تهاجر الكفايات العلمية والفنية على مختلف مستوياتها الى الدول النفطية ، يهاجر الى لبنان نسبة قليلة من نخبة العلماء والمديرين ورجال الاعمال والاعداد الكبيرة من العمال والمهنيين والعاملين في قطاع الخدمات .

وعلى العموم ، سوف نحاول فيما يلي التركيز على اهمية اوجه التشابه والاختلاف بين شكلي هجرة الكفايات العلمية والفنية العربية داخل البلاد العربية وخارجها (١٧) .

١ - بينما تهاجر الكفايات العلمية والفنية في العادة من بلاد متخلفة الى بلاد متقدمة ، او من بلاد متقدمة الى بلاد اكثر تقدما ، تتجه الكفايات العربية في هجرتها داخل البلاد العربية في الغالب من بلاد متخلفة الى بلاد اكثر تخلفا .

٢ - بينما تكون الهجرة الى خارج البلاد العربية ، ، فان الهجرة داخل البلاد العربية تكون مؤقتة . وحتى في الاحوال التي تغدو فيها الهجرة داخل البلاد العربية دائمة ، فان شعور الفرد العربي بعدم الانتماء الى البلد الذي يعيش فيه وحرمانه من حقوق المواطنة والكثير من الحقوق غير السياسية تجعله يعيش حالة من عدم الاستقرار النفسي والوظيفي مع تعميق احساسه بالغربة وشعوره بالانحناء امام ظروف العمل والعيش القاسية .

٣ - بينما تقود الهجرة الى خارج البلاد العربية في معظم الاحيان الى تنمية قدرات الفرد العربي واستغلال القدر الكبير من

(١٧) د. محمد ربيع ، هجرة الكفايات العلمية ، راجع الصفحات ٨٨-٩٠ .

موهنه واثراء تجاربه ، فان الهجرة داخل البلاد العربية تتميز في الغالب بعدم قدرتها على استغلال امكانيات الفرد المتاحة . وبسبب غياب عنصر التحدي وتخلف الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في معظم البلاد المضيفة بوجه عام واضطرار الكفايات العربية الى التعايش مع تلك الاوضاع تتدنى مستويات الاداء وتضعف او تموت قوى الخلق والابداع لدى المفكرين والعلماء وتضطر الغالبية العظمى الى التنازل عن الكثير من قيمها واخلاقياتها . وهكذا يتحول الجزء الاكبر من الكفايات العلمية العربية التي تهاجر داخل الوطن العربي الى قوالب فكرية واراء نظرية لا علاقة لواقع الحياة بها ولا قدرة لديها على تجنيد وبلورة معنى الالتزام العلمي وربطه باحتياجات المجتمع وضرورات تقدمه .

هجرة الكفايات العلمية والفنية في ضوء الاحتياجات العربيــة

ان ارتفاع او انخفاض اعداد ونسب المهاجرين من الكفايات العلمية والفنية يبقى بدون دلالات واضحة ومحددة ما لم يتم ربط تلك الاعداد والنسب باحتياجات المجتمع وتطلعاته . واذا كان ارتفاع نسبة الكفايات المهاجرة لا يشكل خطرا كبيرا على اقتصاد بلد متقدم في استطاعته انتاج وتدريب المزيد من تلك الكفايات ، فان ارتفاع تلك النسب بين المهاجرين من البلاد النامية ، ومن بينها البلاد العربية ، قد يشكل مانعا يحول دون نجاح محاولات التنمية في تلك البلاد .

يبلغ عدد سكان البلاد العربية حوالي ١٤٥ مليونا من الناس ، نصفهم على الاقل لا زالوا تحت سن الثامنة عشرة من العمر ، اي لا زالوا خارج سوق العمل . اما نسبة الشيوخ والعاجزين عن العمل بسبب اوضاعهم الصحية والخاصة فتقدر بحوالي ٥٪ من اجمالي السكان . ولما كانت المرأة العربية التي تخضع لعادات وتقاليد ، واحيانا نظم وقوانين ، تحرمها من دخول سوق العمل الا في مجالات نادرة وفي أضيق المجالات ، فان قوة العمل العربية قد لا تزيد عن ٣٠ مليونا من الناس ، وهذا يعادل ٢٢–٢٥٪ فقط من مجموع السكان . واذا اخذنا بعين الاعتبار اعداد العاطلين عن العمل واعداد العمال الزراعيين وغير الزراعيين الذين يعانون من البطالة المقنعة ، فان مجموع العاملين في البلاد العربية قد لا يزيد عن ٢٥ مليونا من الناس . وهذا يعني ان القوى العاملة في البلاد العربية قد لا تزيد عن ١٦٪ – ١٨٪ من السكان . ومما يثبت ذلك ان نسبة العاملين من سكان الكويت ، وهو بلد ترتفع فيه نسبة الذكور والشباب وتنخفض فيه نسبة البطالة حيث تضمن الدولة عملا لكل المواطنين ، بلغت في سنة ١٩٧٠ حوالي ٢١٪ من مجموع السكان (١٨) .

واذا كانت اعداد المهاجرين من العرب تقدر بحوالي ثلاثة ملايين على الاقل ، فان ما لا يقل عن ٧٠٪ من المهاجرين هم القادرون على العمل والانتاج . وهذا يعني ان نسبة المهاجرين من العرب تبلغ حوالي ١٪ من مجموع السكان ، وان نسبة المهاجرين من قوة العمل العربية تبلغ حوالي ٨٪ من المجموع العام . ولذلك تتعرض البلاد العربية التي تعاني من التخلف وتزداد احتياجاتها الى القوى البشرية القادرة على العمل والانتاج ، الى هجرة سكانية تستنزف قسما كبيرا من ثرواتها البشرية التي يصعب تعويضها . وبسبب ارتفاع اعداد ونسب الكفايات العلمية والفنية بين المهاجرين اصبحت الهجرة العربية الى الخارج احدى اهم القضايا التي تمس حياة المجتمع العربي وتهدد – في حالة استمرارها – معظم خطط وبرامج التنمية العربية للفشل .

---

(١٨) المجموعة الاحصائية ، ١٩٧٤ ، مجلس التخطيط ، الكويت .

نسبة الكفايات العلمية والفنية الى مجموع الذين هاجروا من البلاد العربية الى كل من الولايات المتحدة وكندا فيما بين سنتي ١٩٦٢ – ١٩٦٦(*)

البلد	نسبة الكفايات العلمية والفنية بين المهاجرين الى كنــدا	نسبة الكفايات العلمية والفنية بين المهاجرين الى الولايات المتحدة
العراق	٤٠٫٧ ٪	٤٣٫٥ ٪
الاردن	٢٢٫٥ ٪	٢٤٫٣ ٪
لبنان	٢٠ ٪	٤٠٫٢ ٪
سوريا	٢٣٫٤ ٪	٤٠٫٧ ٪
مصر	٢٩ ٪	٣٧٫٢ ٪
الجزائر	٤٥٫٥ ٪	–
المغرب	١٧٫٩ ٪	٢٤٫٩ ٪
تونس	٢٥ ٪	١٥٫٩ ٪

وبينما تزداد احتياجات العالم العربي الى كل الكفاءات العلمية والفنية وذلك بسبب ارتفاع نسبة الامية (حوالي ٨٥ ٪) وانخفاض مستوى المساكن (حوالي ٢٥ ٪ من السكان فقط يعيشون في مساكن تليق بحياة الانسان) ، تبلغ نسبة الهجرة بين الاطباء العرب حوالي ٢٠ ٪ وبين المهندسين حوالي ٢٥ ٪ وبين خريجي الجامعات في علوم الطبيعة حوالي ١٥٪ . اما نسبة العائد بين العلماء العرب الحاصلين على درجة الدكتوراه والقادرين على تحمل اعباء الاقامة وتدعيم الجامعات في البلاد العربية فتبلغ حوالي ٥٠ ٪ على الاقل .

ان ظروف التخلف الاقتصادي والاجتماعي التي تعيشها البلاد العربية ، وما يرتبط بتلك الظروف من ارتفاع نسبة الامية وارتفاع نسبة البطالة وتصاعد تطلعات مختلف الطبقات في المجتمع ، يجعل السكان في البلاد العربية يبرزون كمشكلة متعددة الجوانب . الا ان كون العنصر البشري بما يمثله من امكانيات عمل وقدرة على الخلق والابتكار قادرا على التطور والتكيف تصبح امكانية تحوله من مشكلة اقتصادية واجتماعية الى قوة منتجة وخلاقة امرا من الممكن تحقيقه ، بل وهدفا حياتيا يصعب الخيار فيه . وعلى العموم تقوم عملية تحويل العنصر البشري « المشكلة » الى قوة منتجة على عنصرين اساسيين :

١ – العمل على انهاء وجوده كمشكلة . وهذا يتطلب احداث تغيرات اساسية في المؤسسات الاجتماعية القائمة في المجتمع وذلك بهدف الوصول الى تعطيل فعل او تقليل اثر الاسباب الكامنة وراء تصعيد المشكلة السكانية .

٢ – العمل على تصعيد قدرته كقوة منتجة . وهذا يتطلب احداث

(*) المصـدر :

Gregory Henderson, Emigration of Highly - Skilled Mannower from the Developing Countries New Yourk; Uniter, No, 3, 1970, pp. 185 - 186.

تغيرت كبيرة في المؤسسات الاقتصادية والسياسية والتعليمية في المجتمع وذلك بهدف الوصول الى تحسين نوعية السكان وترشيد سلوكهم الاقتصادي وخلق الاجواء الملائمة لتطور ملكات الفرد وقدراته .

ان النظرة غير العلمية للفرد العربي باعتباره عبئا ثقيلا يقع على كاهل الاقتصاد والوطن كانت أحد اهم الاسباب التي دفعت بما يزيد على المليونين من ابناء الامة العربية القادرين على العمل والانتاج الى الهجرة الى الخارج . ولذلك نلاحظ ان علاج مشكلة هجرة الكفايات العلمية لا يمكن ان يتم الا من خلال تطوير مفهوم الانظمة التي تعمل في المجتمع واحداث تغيير جذري في القيم السائدة واستبدالها بقيم حضارية تعي قيمة العلم والعلماء على تحقيق الاستغلال الامثل لطاقاتهم .

واذا كانت المتغيرات الاقتصادية التي عانتها البلاد العربية في السنوات الاخيرة قد اوجدت مناخا جديدا ساهم في نمو وتطوير العديد من المؤسسات الانمائية الاقتصادية والاجتماعية والعلمية ، فانه يجب علينا ـ عند علاج مشكلة هجرة الكفايات العلمية ـ الا نغفل دور الحياة العربية في تكريس اسباب الهجرة وتعميق دوافعها . اي ان عملية البحث عن حلول حقيقية لهذه المشكلة تتطلب ـ في تقديرنا ـ ثورة في القيم والعادات والتقاليد التي تسود الحياة العربية . ثورة شاملة تتعدى في ابعادها ونتائجها كل النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية القائمة في المجتمع .

جامعة الكويت

د. محمد ربيع

د ٠ حسن الشريف

العوامل المساعدة لاستعادة واستبقاء .. الاختصاصيين العرب في العلوم والتكنولوجيا

توطئـة :

بسبب الاحداث الداميـة الجارية في لبنان منذ اكثر من ثمانية اشـهر كان لا بـد من اجراء تعديلات جمـة على الصيغة الاولـى المقترحـة للبحث . كما كان لابد من الاستغناء عن اجزاء من البحث كان يمكن ان تغنيه وتوسع من آفاق الطرح وابعاده .

(١) لم يكن بالامكان الحصول على المراجـع الضروريـة لاغنـاء البحث ، سواء من المكتبات الموجودة في لبنان بسبب اغلاقها معظم الوقت ، وبسبب استحالة الوصول اليها امنيا ، وكذلك اسـتحالة الاستعانـة بالمصادر من خارج لبنان لصعوبة السفر وانقطاع البريد . لهذا جاء البحث خاليا من الاسناد الضروري للبحث العلمي .

(٢) لم يكن بالامكان اجـراء الاتصـالات والمقابلات المفيدة مـع اشخاص كان يمكن ان يغنوا البحث خصوصا اولئك الذين شاركوا في استعادة الكفاءات العربيـة وفي تشـغيلهم في الوطـن العربـي للاستفادة من خبرتهم في هذا المجال .

(٣) اصدرت دول عربية عديدة قوانين هامة تتعلق باسـتقطاب الكفاءات العربية ، وكان لابد من مناقشـة هـذه القوانين ومقارنتها لكن نص هذه القوانين لم يتوفر .

(٤) كان البحث يتضمن اسـتمارة موسعة حول عوامل استقطاب واستبقاء الكفاءات العربية ، وقد طبعت الاستمارة ووزع عـدد كبير منهـا لكن توقف البريـد لم يسـمح للباحث بالحصول الا على عدد ضـئيل من الاجوبة التي لاشك اغنت البحث ولا بد من شكر اصحابها الذين تحملوا عناء ملء الاستمارة واعادتها .

(٥) اصدر العراق قانونين لتوظيف الكفاءات العربيـة عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٤ كما اصدر قانونا حول تجنيس غير العراقيين ، وكان من المفيـد دراسـة توظيف الكفاءات العربية بعد صدور القانون الاول ثم القانـون الثاني وكذلك بعـد صـدور قانـون التجنيس .. لكن ظروف لبنان الامنية لـم تسمح للباحث بمغادرة لبنان للعراق لاتمام البحث .

لكل هذه الاسباب لابد من الاعتذار اذا جـاء البحث مبسطا .. وانني اعتبره كمقدمة تشجع النقاش والحوار حول المواضيـع والاراء التي ستطرح خلال البحث .

مقدمــة

بعد استعراض سريع للمواضيع المطروحة في « مؤتمر تنميـة الموارد البشرية في الوطن العربي » كان من المناسـب ان يركز البحث الحالي على عوامل استبقاء المختصـين العرب لاسباب عدة :

(١) ان عوامل استقطاب واستعادة الكفاءات العربية تناقش في ابحاث اخرى مقدمة للمؤتمر كما انهـا نوقشت في كتابات عـديدة صدرت حول الموضوع .

(٢) ان البلاد العربية اصبحت مركز اسـتقطاب عالمـي لمختلف الكفاءات والاختصاصات خصوصا بعـد حرب تشرين المجيدة وتعاظم دور العرب في الميدان العالمي ، ماليـا واقتصاديا وسياسيا ، واتساع المشاريع تفصيليا لمن اراد متابعة البحث في هذا المجال .

(٣) ان عديدا من الـدول العربيـة اصـدرت قوانين لاستقطاب الكفاءات العربية واستعادتها : مصر ، سوريا ، العـراق ، ليبيـا ، الجزائر ، السعودية ، الكويت .. الخ وهذا سعي جاد من الـدول العربيـة لمعالجـة اشكالات الاستقطاب ، ولابد من دراسـة هـذه المشاريع تفصيليا لمن اراد متابعـة البحث في هذا المجال .

(٤) في الوقت الذي يتزايـد فيـه الاهتمام الرسمي باستعادة الكفاءات العربية ، لم يبدأ بعـد الاهتمام الكافي باسـتبقاء هـذه الكفاءات للعمل بصورة دائمة في البلاد العربية . ونتج من جراء ذلك ان كثيرا من المختصين العرب اخذوا يأتـون للبلاد العربية للعمـل بصورة مؤقتة وعلى مشاريع محددة ثم يقفلون عائدين الى المهجـر .. خاصـة وان عددا كبيرا منهم يصاب بصدمة اليمة لعدم مقدرته علـى العطاء الجاد في ميدان اختصاصه فيرجع الى المهجر بروح سـلبية او يكتفي بتقديم النصائح والاسـتشارات المؤقتـة « كخبير اجنبي » من نوع جديـد .

لهذا كان المناسب معالجـة عوامل استبقاء الخبرات البشريـة العربية بشكل مفصل والتركيز على النواحي المهمـة منها ، خاصةوان معظم عوامل استعادة الخبراء العرب هي نفسها عوامل استبقائهم في الوطـن العربي وان اختلفت صيغة الطرح والتركيز .

من جهة اخرى فان البحث لم يميز بشكل دقيق عوامل استبقاء المختصين في العلوم والتكنولوجيا عن باقي الخبرات حيث ان معظم العوامل تشمل مختلف الاختصاصات وميادين العمل ، ولهذا جاء البحث شاملا من التركيز احيانا على المتخصصين في العلوم والتكنولوجيا .

وفي نهاية المقدمة لابد من القول ان البحث يعالج الصعوبات التي يواجهها المختصون العرب الراغبون جديا في العطاء والبقاء في الوطن العربي ، والذين يبذلون جهدا في مواجهة عوامل التغريب التي تواجههم وتدفعهم الى الهجرة ، علما ان بعضا من هؤلاء يأتي الى البلاد العربية وهو مقرر سلفا ان يعود الى المهجر ولا يحاول جديا مواجهة الصعوبات ويكتفي من المحاولات بالاياب مبررا سلبيته بالمشاكل التي يواجهها . ان البحث ينطلق من ان هناك غالبية ترغب جديا في البقاء بشكل نهائي في الوطن العربي اذا تأمن لها الحد الادنى من متطلبات العمل المنتج والحياة اللائقة .

تصنيف الخبرات العربية وتأثير ذلك على عوامل الاستبقاء

تختلف العوامل المؤثرة على المختص الراغب في العمل في البلاد العربية تبعا للفئة التي ينتمي اليها . وفي كل محاولة جادة لمساعدة العائدين لابد من معالجة اشكالات كل فئة على حدة . ان من نواقص قوانين استقطاب الكفاءات الصادرة في بعض البلاد العربية انها لا تراعي ذلك ، بل تعامل الجميع ككل متجانس يلاقي نفس المصاعب ويتقدم بنفس المطالب . واذا كان من الصعب في هذا البحث العام التركيز على مشاكل كل فئة من المختصين العائدين الا انه لابد من لفت النظر الى هذه الناحية وتصنيف المختصين الى فئات متماثلة في الوضع من نواحي مختلفة املا في ان تراعي السلطات العربية والجهات المعنية هذا الامر في المستقبل .

اولا : تصنيف المختصين العرب حسب الجنسية والجواز:

ما تزال قوانين الاقامة والتجنيس واذن العمل تشكل عائقا اساسيا امام التنقل الحر بين البلاد العربية ، وامام امكانية العمل الحر للراغبين فيه . كذلك فان جنسية المختص تحدد الى درجة كبيرة نوع التعامل الاجتماعي بل والسياسي في البلد الذي يعمل فيه . وبامكاننا ان نصنف الخبرات العربية من هذه الناحية الى التصنيفات التالية :

(١) حملة الجوازات الاجنبية ، والذين يعاملون اداريا كاجانب، فيرتاحون لذلك وتخف امامهم الكثير من العقبات في الرتب والاقامة والتعامل .

(٢) الفلسطينيون الذين يحملون وثيقة فلسطينية ، ولهؤلاء اشكالات ضخمة ما زالوا يعانون منها في مختلف النواحي وتحتاج لبحث مفصل .. مع العلم ان غالبية الخبرات العربية المختصة « الفائضة » هي فلسطينية بطبيعة الحال .

(٣) المختصون من حملة جوازات الدول العربية الفقيرة ، لبنان، سوريا ، الاردن ، مصر ، وهؤلاء من جهة يواجهون بصعوبة ايجاد عمل في بلدهم الاصلي ، ومن جهة اخرى يعاملون كغرباء واحيانا كمرتزقة (في معظم الاحيان) في البلاد العربية الغنية التي تحتاج لخبراتهم .

(٤) المختصون من حملة جوازات دول النفط الغنية وهؤلاء يعانون اقل المشاكل عمليا ولكن متطلباتهم قد تتجاوز ما تستطيع بلادهم تقديمه لهم خاصة من النواحي الاجتماعية والحضارية .

واذ نكتفي في البحث بالاشارة الى هذه الفئات نذكر بان عوامل استبقاء الخبرات العربية المذكورة ادناه يمكن تحديد نسبة اهميتها بالنسبة لكل فئة عند التحول لمعالجة هذه العوامل عمليا .

(٥) المختصون من شمال افريقيا يحتاجون الى معالجة خاصة لانقطاعهم تماما عن المشرق العربي وانقطاع المشرق العربي عنهم .

ثانيا : تصنيف الخبرات العربية حسب علاقتها بالخارج:

تحدد علاقة المختص العربي بالخارج ، مدى ارتباطه بالعمل في الخارج كما تبين مدى استقطاب الخارج له مقابل العوامل التي تدفعه للعمل في البلاد العربية .. وتختلف المؤثرات تبعا لذلك . وعند الدراسة العملية لعوامل الاستقطاب والاستبقاء لابد من دراسة بريق الخارج والاغراءات التي يقدمها للمختصين العرب حتى يدفعهم للعمل بعيدا عن الوطن العربي . وفي هذا المجال يمكن تصنيف المختصين العرب الى الفئات التالية :

(١) الذين درسوا وعملوا في البلاد العربية ولم يغادروها للعمل في الخارج . ان هؤلاء يشكلون الخامة الاضخم لسوق العمالة العربية ، واللبنة الاساسية لاي كادر فني تسعى اية دولة عربية لتربيته . ومن الملاحظ ان هؤلاء مهملون في معظم الابحاث الدائرة حول « هجرة الادمغة العربية » أو عوامل استقطابها واستبقائها . وفي الوقت الذي تصرف فيه مصر (مثلا) وغيرها من الدول العربية مبالغ ضخمة لاسترداد الكفاءات من الخارج نراها تفتح الباب على مصراعيه لهجرة المختصين المحليين الى الخارج . وكذلك في الوقت الذي تصرف فيه المبالغ على استقطاب الكفاءات من الخارج لا نجد اية دولة عربية تقوم بمجهودات جادة لرفع كفاءة الكوادر الفنية لديها ، ولرفع مستواهم العلمي والاجتماعي .. في حين يبقى الخارج بالنسبة لهؤلاء الحلم ذا البريق الاخاذ الذي يستهويهم للهروب من واقعهم الاجتماعي والمادي وفرصتهم للترقي في العلم والخبرة والكفاءة .

ان البحث الحالي لا يتعرض لهؤلاء تفصيليا باكثر من هذه الملاحظة . لان عوامل استبقاء هؤلاء المختصين تتعرض الى تركيبة المجتمع العربي والادارة الحكومية في الدول العربية وهذا خارج بالطبع عن نطاق البحث . ولكن لابد من لفت النظر الى روحية التعامل مع هؤلاء حيث ما زالوا يعتبرون كما مهملا لا يلتفت اليه احد بشكل جدي .

(٢) الذين عرفوا الخارج خلال الدراسة وخصوصا خلال العمل بعد ان درسوا او عملوا لمرحلة في البلاد العربية ، وهؤلاء يستطيعون اجراء المقارنة عادة ولصالح الخارج في معظم الاحوال لانهم يقارنون الوضع العربي كما كان عليه في السابق .

(٣) الذين درسوا وعملوا في الخارج لفترة طويلة بحيث اصبح الواقع العربي غريبا عنهم ، وهؤلاء بمعظم الاحيان يتصرفون كاجانب مثل مواطني البلد الذين يعملون به حاليا .

(٤) الذين درسوا وعملوا في الخارج ثم عادوا للعمل في البلاد العربية . وهؤلاء تتنازعهم الرغبة في البقاء مع عوامل الجذب التي تشدهم الى الخارج . ومعظم عوامل الاستبقاء المطروحة في البحث تتعلق بهؤلاء على وجه التحديد . وهذه الفئة يمكن تقسيمها الى فئات اصغر عند الرغبة في معالجة الاشكالات التي يواجهونها بقصد معالجتها .

ـ الذين عادوا بمبادرة فردية ودون ان يكون لديهم عمل والمشكلة الاولى التي تواجههم هي ايجاد عمل مناسب علما بانه ليس هناك في أي بلد عربي مؤسسات للاستيعاب والتوظيف المناسب .

ـ الذين عادوا بعقد مسبق للعمل في مؤسسات عامة (خصوصا الجامعات والدول) .

ـ الذين عادوا بعقد مسبق للعمل بمؤسسات عربية خاصة كبيرة (مثل APD, ADAR... الخ) او اصغر مثل مكاتب المقاولات والاستشارات الخاصة .

ـ الذين عادوا كموظفين مع شركات اجنبية لها فروع في البلاد العربية . وهؤلاء يعاملون كاجانب خصوصا من حيث الامتيازات المادية والاجتماعية وهم مرتاحون لذلك .

(٥) الذين عملوا في الخارج وعادوا للعمل في البلاد العربية ثم تواجهوا بصعوبات جمة جعلت استمرارهم في البلاد العربية مستحيلا « فطفشوا » الى الخارج مجددا ، اما بسلبية شديدة لا يفكرون معها بالرجوع الى البلاد العربية ، او بسلبية محدودة قد تدفعهم لمعاودة الفكرة في المستقبل « اذا تحسنت الظروف » وارى بين الحاضرين بعضا من هؤلاء . واهمية دراسة هذه الفئة انها تلقي الضوء بشكل محدد على الاشكالات التي يعانيها المختص الراغب في البلاد العربية والتي قد تؤدي في النهاية الى خسارته وعودته للخارج ، فتخسر البلاد العربية مرتين به بل ثلاث مرات ، مرة عند هجرته الاولى ، ومرة في المجهود المبذول لاستقطابه ومرة ثالثة عند هجرته مجددا الى الخارج .

ثالثا : تصنيف المختصين العرب حسب نوع الاختصاص

وهذا التصنيف هو الغالب في تفكيرنا بدليل العنوان المعطى للبحث . ومن الملاحظ في هذا المجال ان الاهتمام يوجه عادة الى اعلى الاختصاصات والخبرات ، والى الاختصاصات العلمية والتقنية . ومع ان هذا الاهتمام ضروري الا انه في الواقع يحجب حقيقة حاجة البلاد العربية .

فمعظم الدول العربية تحتاج الى كل انواع الاختصاص : تحتاج الى خبراء في البحث الاجتماعي الجيد ، في التوعية الاجتماعية الجيدة ، تحتاج الى خبراء في الاقتصاد ، وبشكل اهم الى خبراء في الادارة ، تحتاج الى خبراء في التربية اذا ما نظرنا الى المستوى المزري للتعليم في بلادنا .. الخ .

ومن جهة اخرى فان الدول العربية تحتاج الى كل المستويات في الخبرة والاختصاص من العامل الفني الجيد الى المستشار المختص ذي الخبرة الفائقة .

واذا كانت الجهود تبذل لاستقطاب الكفاءات العالية فلابد من مجهود ملموس لاستقطاب الكفاءات ذات الاختصاصات والخبرات الدنيا والمتوسطة وفي كل المجالات .

اذن لابد من القول مجددا ان عوامل استقطاب واستبقاء الخبرات العربية تختلف من فئة الى اخرى ، وكما لاحظنا فان فئات المختصين العرب متعددة وتختلف اشكالاتها كثيرا . واذا كان البحث الحالي يعرض مجمل العوامل المؤثرة دون الاهتمام بكل فئة على حدة ، فان على السلطات والجهات العربية المعنية الاهتمام بهذا التقسيم حتى تكون اجراءاتها مفيدة وذات نتيجة مثمرة .

والبحث الحالي لا يستطيع اقتراح الحلول للاشكالات المعروفة الا عرضا ويكتفي بعرض العوامل بعد وضعها في الاطر التالية :

(١) العقبات في وجه ممارسة المختص لعمله على الوجه الامثل والافيد .

(٢) الناحية المادية بمختلف جوانبها .

(٣) العقبات السياسية .

(٤) مشاكل التاقلم الاجتماعي والحضاري بالنسبة للعائدين :

أ ـ العلاقات البشرية .

ب ـ مشاكل العمل .

ج ـ متلطبات الحياة الحديثة .

(٥) الحاجة للاستمرارية وضمان المستقبل .

الصعوبات في وجه العمل المنتج :

المشكلة الاولى التي تواجه المختص الراغب في العودة أو العائد الراغب في البقاء هي كيف يستطيع العطاء ضمن اختصاصه على الوجه الامثل والاكثر انتاجية . كيف يستطيع خدمة البلاد العربية كمختص . وهذه المشكلة هي التي يجب التوجه لمعالجتها بقوة لان امكانية معالجتها ليست مستحيلة بالنسبة لمختلف الفئات والاختصاصات ولمختلف الدول العربية ، وما يحتاجه هي اجراءات ادارية وحكومية حاسمة وواضحة .

اولا : الحصول على العمل المناسب :

معظم المختصين العرب يواجهون بصعوبة الحصول على عمل ضمن اختصاصهم في البلاد العربية وذلك لعدم وجود مؤسسات للاستيعاب . فالاقلية من المختصين في الخارج يتوقفون في الحصول على عقود مسبقة معظمها تكون مؤقتة وفي غير ميدان الاختصاص المباشر ويعتبرونها خطوة اولى تساعدهم في العودة الى البلاد العربية ، وهؤلاء مع الغالبية التي تعود دون عقد مسبق تواجه بمشكلة ايجاد عمل . وايجاد عمل مناسب ضمن الاختصاص الذي يكون المرء قد قضى سنوات ثمينة من عمره لتحصيله . وبالرغم من توسع مجالات العمل في العديد من الدول العربية ، فان معرفة المجالات المتوفرة وامكانية الحصول على عمل فيها ما تزال تعتمد العفوية والوسائل العادية : الاعلام في الجرائد وانتشارها محدود مهما كانت كبيرة ، او بالاتصال الشخصي .

يضاف الى ذلك فقدان التنسيق بين المؤسسات التي تتطلب الخبرات العربية حتى ضمن البلد الواحد . فلا يصار الى تبادل المختصين والخبرات للاستفادة القصوى منهم ، ويواجه المختص بأن عطاءه في معظم الاحيان هو خارج ميدان اختصاصه .

ثانيا ـ انتقاد المقدرة على العطاء المنتج في ميدان الاختصاص :

بعد ان يحصل المختص على عمل يجد ان هذا العمل ليس ضمن دائرة اختصاصه تماما . وحتى اذا كان ضمن دائرة الاختصاص يكتشف انه غير قادر على العطاء المنتج كما كان يعطي في الخارج ويتزايد هذا الشعور مع الوقت بسبب تراكم الاشكالات في وجه العطاء الكامل ضمن الاختصاص المعهود . من هذه الاشكالات :

(١) ماذا نريد من المختص في العلوم التكنولوجية ؟ متابعة الابحاث والانتاج الراقي كما في الخارج ام التكيف والعمل في القضايا البسيطة المطلوبة في البلاد العربية ؟

(٢) يكون المختص الذي يعمل في الخارج معتادا على روتين معين للعمل وعلى نوع معين من المشاكل التي يطلب اليه حلها . وبالنسبة للخبرات العالية يكون المختص مهتما بنواح ضيقة نسبيا ومتقدمة كثيرا في مجال البحث . اما في البلاد العربية فقضايا العمل تختلف بشكل جذري . فالبلاد العربية ما زالت حضاريا بلادا متخلفة والاشكالات التي تتطلب معالجة اشكالات تختلف جذريا عن البلاد المتقدمة حضاريا . والمطلوب من المختص ليس البحث المجرد للوصول الى نتائج جديدة ، وانما العمل من بين الحلول المعروفة لايجاد الانسب منها في معالجة القضايا البدائية في البلاد العربية .

بمعنى آخر يصبح على المختص ان يوظف خبراته العالية في حل اشكالات بدائية نسبيا ، ولكن في ظروف حضارية متخلفة . وهذا الشيء يتطلب حدا اقصى من التكيف الخلاق Creative adaptation مما قد لا يتوفر لدى العديد من العائدين الذين يتأبطون حلولا جاهزة معهم لقضايا يتخيلون انها موجودة قبل ان يصلوا الى البلاد العربية.

(٣) يزيد في المشكلة السابقة افتقاد البنى التحتية الضرورية للعمل الجاد .

- متطلبات السكرتيريا ، والطباعة والنسخ .
- متطلبات الاتصال السريع بالهاتف او البريد او البرق .
- متطلبات الانتقال السريع بالسيارة او الطائرة او القطار .
- متطلبات الصيانة الضرورية ، سواء من حيث توفر اليد العاملة المختصة او المعدات او قطع الغيار .
- فقدان قيمة الوقت لدى معظم الذين يضطر للتعامل معهم .
- فقدان معنى الدقة في القول والعمل والتعامل .

ويجد المختص ، ذو الخبرة العالية ، نفسه يضيع وقتا ثمينا على قضايا يعتبرها تافهة وكان يتوقع ان تكون متوفرة ، او يتوفر له من يقوم بها عنه . ويصبح العطاء المختص الذي اعتاد عليه روتينيا في البلاد « الراقية » عملية شاقة بل مستحيلة في كثير من الاحيان .

(٤) اضافة لكل ما سبق يواجه المختص بالروتين والبيروقراطية القتالية في البلاد العربية . فكل شيء يحتاج الى الف معاملة ، وكل معاملة تحتاج لعدة مراجعات ، وكل مراجعة قد تحتاج الى رشوة. وعلى سبيل المثال ان صرف شك قد لا يتطلب ثواني في البلاد «الراقية» وهو عملية مباشرة تحتاج الى ربع ساعة على الاقل والى عدة امضاءات في اكثر البلاد العربية تطورا في الميدان المصرفي . ويواجه المختص بثقل هذه البيروقراطية حتى في ميدان عمله نفسه وبأبسط الامور ، فاذا احتاج الى معدات قرطاسية مثلا يحتاج لمعاملة ، واصلاح عطل طرأ على احد الاجهزة يحتاج الى معاملة وانتظار .. الخ قد يختلف ثقل الروتين من موقع الى اخر ، ولكن كلما قرب العمل من الدوائر الحكومية كلما ازداد ثقل الروتين والحكومات العربية هي رب العمل الاكبر في معظم الاحيان .

(٥) وبالنسبة للمختص في العلوم والتقنيات يكتشف بسرعة افتقد الاجهزة الضرورية التي اعتاد ان يعتبر وجودها من المسلمات في عمله في الخارج ، ويكتشف ان مثل الحصول على هذه الاجهزة ليس بالسهولة المتوقعة ، فيضطر للبحث عن بديل ، وفي معظم الاحيان للعمل بدون هذه الاجهزة ، ثم يخفض من انتاجية عطائه بنسبة كبيرة. ويزداد قبل افتقاد الاجهزة والمعدات الحديثة اذا كان عمل المختص في ميدان البحث والتطوير وليس فقط في ميدان الانتاج ، وكلما علا الاختصاص كلما ازدادت الحاجة الى مثل هذه الاجهزة وكلما انخفضت انتاجية العطاء تبعا لذلك .

وباختصار ، يجد المختص ان كل العوامل التي جعلت منه مختصا بارزا في الخارج ، والتي سمحت له بالعطاء والانتاج تلعب دورا سلبيا في البلاد العربية ، ويجد ان عطاءه ليس كما يتوقع . ويشعر باستحالة العطاء كما يطلب منه وكما يطلب من نفسه . ونتيجة لذلك اما ان ينجح المختص في التاقلم مع الواقع الجديد ، وعلى العطاء بالحد الاقصى ضمن الظروف المتوفرة ومن خلال روحية التكيف البناء ، او ييأس ويستوعب بالروتين فيصبح عطاؤه روتينيا محدودا ، أو يهرب مجددا الى الخارج فرارا من هذا الواقع .

ثانيا : افتقاد الحافز على العطاء الجاد وافتقاد امكانية التطور واكتساب الخبرة .

بعد أن يمضي المختص فترة كافية في عمله يكتشف انه يفتقد الحافز على تطوير نفسه وعمله ، كما يفتقد امكانية تطوير نفسه وعمله في معظم الاحيان .

(١) يلاحظ انه ليس هناك تقدير صحيح للشهادات والخبرات التي يمكن ان يكتسبها وانه ليس هناك اي نظام للتشجيع والترقية سواء نظام روتين متخلف يساوي بين الجميع . واذا كان هناك امكانية للترقية الاستثنائية فغالبا ما تعتمد على مزاجية الاشخاص المسؤولين والعلاقة الشخصية بهم .. حيث ان معظم من يكلفون بتقدير عمل المختص هم ادنى منه خبرة واطلاعا . وبهذا تخبو لدى المختص الرغبة الجادة في تطوير نفسه وعمله .

(٢) يلاحظ المختص كذلك انه حتى لو رغب في تطوير نفسه وخبرته ، فان مجال ذلك مفقود او محدود محليا :

- فالمراجع الضرورية غير متوفرة على العموم وهناك صعوبة للحصول عليها بشكل شخصي. اما لغلاء التكاليف او لتعقيدات استيراد الكتب بالبريد ، وكذلك لصعوبة معرفة ما جد في ميدان الاختصاص حيث ان معظم المجلات العلمية لا تصل الى البلاد العربية .

- ومؤسسات التعليم العالي اما مفقودة او ان القيمين عليها من الاجيال القديمة الذين لم يسعوا للبقاء على معرفة بما يستجد من علوم . وامكاناتها المادية والبشرية والفنية محدودة او معدومة . وكذلك فان مراكز البحث العلمي تعاني من نفس نواقص الجامعات ، هذا ان وجدت .

- والجو العلمي الدافع للتطور والنمو الذاتي يكاد يكون مفقودا . فالمختص ذو الخبرة العالية ، وحتى المتوسطة ، يفتقد عادة الانداد الذين هم بمستواه او افضل منه ليبقى على اتصال وثيق بميدانه ، متطلبات عمله اقل بكثير من اختصاصه . والمؤتمرات العلمية اما نادرة او معدومة . يكتشف المختص ان المناخ السليم لتبادل الخبرات الفنية والعلمية مفقودة عموما في البلاد العربية .

كذلك يلاحظ انه ليس من مجال للتجربة والخطأ في البلاد العربية . فالمطلوب منه ان ينجح من المرة الاولى . في كل انتاج بل وفي كل بحث او تجربة يجربها فالميزانية محدودة وروحية التجربة مرفوضة والتصور ان المختص يحمل كل الحلول في جيبه وعندما يواجه بمشكل عليه أن يحله فورا وبشكل صحيح .

(٣) يلاحظ المختص كذلك ان امكانية اكتساب مزيد من الخبرة في الخارج يكاد يكون مستحيلا : فالتكاليف غالية ، وقلما تتوفر له مجانا ، والسفر يحتاج لاذونات خاصة ، وقد يمنع لدوافع سياسية أو أمنية . وترك العمل لفترة طويلة نسبيا غير مسموح به حتى ولو لاكتساب المزيد من الخبرة .. الخ .

وهكذا مرة اخرى يجد المختص نفسه امام الخيار المرير بين الاستسلام للركود الفكري والعلمي او مواجهة الصعوبات كلها بمفرده والنضال الشاق من اجل الاحتفاظ بمستواه العلمي .. أو الهرب الى الخارج حيث تتوفر الفرصة لاكتساب المزيد من الخبرة والمعرفة .

ثالثا : سياسة التنمية في البلاد العربية :

ان عددا كبيرا من المختصين العرب ، الراغبين في العمل في البلاد العربية ، خصوصا من ذوي الخبرة العالية انما استقطبوا في هذه المرحلة للمساهمة في مشاريع التنمية في البلاد العربية ، والمساهمة في تطوير المجتمع العربي الى المستوى اللائق بين الامم . ولكن هذه الرغبة تصطدم عند مباشرة العمل بـ « سياسة التنمية » في البلاد العربية ، أو بشكل ادق بغياب « السياسة الواضحة للتنمية » في معظم البلاد العربية .

(١) فمعظم الدول العربية لا ترى في سياسة التنمية دورا محدودا تلعبه الحكومة سوى تشجيع الاستثمار الخاص وتأمين الخدمات الضرورية وبعض البنى التحتية مثل المدارس ، الطرقات ، المطارات .. الخ . ومعظم الدول العربية لا تبني الدور الذي تلعبه الحكومة على دراسات علمية تستند الى الحاجة الفعلية للبلاد العربية ، وانما يكون دور الحكومة عادة نابعا من عوامل سياسية واعلامية مختلفة قد تكون بعيدة كل البعد عن الواقع والحاجة الفعلية .

(٢) وفي معظم الدول العربية يفتقد التنسيق بين مختلف مؤسسات واجهزة الدولة الواحدة ، ويفتقد المرجع لاتخاذ القرار في القضايا الرئيسية في التنمية . ويكتشف المختص مثلا ان الدراسة التي يعدها قد اعدت في السابق في وزارة اخرى ، او ان دراسة يحتاج اليها اعدت في مؤسسة اخرى لا يستطيع الحصول عليها او ان عمله يحتاج الى قرار معين لا يجد من له صلاحية اتخاذه ، او يكتشف بعد فترة ان دراسته التي تعب عليها ما تزال غافية في الادراج تنتظر من يلقي النظر عليها .

(٣) ويكتشف المختص في معظم الدول العربية تقلب الاهواء في التخطيط وتشتت المخططين وتنافسهم حتى ضمن البلد الواحد ، فمرة يكون التركيز مثلا على دور القطاع العام ثم فجاة ينقلب الى تشجيع القطاع الخاص . ومرة تكون دراسة المشاريع تركز على انتاجيتها الاقتصادية ، واخرى على مغزاها السياسي والاجتماعي . ومرة تكون المشاريع تخدم تنمية البنى التحتية ، ومرة تركز على الانتاج الثقيل ومرة اخرى على الانتاج الاستهلاكي . ومرة يشجع الاستيراد ، ومرة يمنع . ومرة تشجع سياسة التعامل مع هذه او تلك من الدول الاجنبية ومرة تمنع . واحيانا تخصص ميزانية للبحث والدراسة ومرة تخفض هذه الميزانية . واحيانا تنشأ اجهزة للتنسيق بين مختلف المشاريع (وزارة التخطيط مثلا) ومرة يقلل من اهمية مثل هذه الاجهزة الى درجة العدم . ومع تقلب الاهواء يفتقد المختص كل مقدرة على الدراسة العلمية والتخطيط السليم ، وتراوح معظم خطط التنمية في معظم الدول العربية مكانها .

(٤) ويؤدي غياب سياسة واضحة للتخطيط والتنمية ، وقلبها الى اهدار واضح بالطاقة البشرية والمادية ، فتفشل المشاريع ، وتهمل الدراسات ، وينتقل المختص من دائرة لاخرى ويشعر بان مجهوده غير منتج وغير مثمر وانه يضيع وقته وجهده سدى .

(٥) كذلك لابد من القول أن التخطيط في كل الدول العربية يعتمد المصلحة القطرية والاقليمية ولا يتعداها الى النظرة الشاملة للوطن العربي . فيزداد الهدر في المشاريع والدراسات والطاقة البشرية ، وتتوزع الطاقات المتوفرة على فسيفساء من الدول والوزارات والاجهزة .. ويشعر المختص الذي أتى لخدمة « الوطن العربي » والمجتمع العربي أن عمله قزم ليخدم جزءا محدودا من هذا الوطن الكبير . ويضيع في متاهات التنافس بين الدول العربية نفسها ، وكذلك في اختلاف تصورات هذه الدول وتوجهاتها .

(٦) علاوة على ما سبق يكتشف المختص ان العمود الفقري في أية خطة للتنمية ، أي تربية الكادر الفني المحلي والعربي الدائم ، شبه مفقود ولا يعار أي اهتمام . فمعظم الدول العربية تصرف همها الاكبر على استقطاب الكفاءات والدراسات والمشاريع من الخارج بشكل مؤقت ، مع عدم اعارة أي اهتمام لبناء الكادر المحلي الذي يستطيع متابعة ما يتم من دراسات ومشاريع . حتى يصبح الوطن العربي مكتفيا نسبيا بالخبرة والطاقة الفنية . ويشعر المختص ان عمله مرتبط به شخصيا ، وان كل عطاء يعطيه هو طاقة كفرد ، ولا يجد من مجال لنقل خبرته واختصاصه الى كوادر ناشئة تستطيع العمل الدائم على انجاح ما يبدأه من دراسات ومشاريع .

رابعا : عقدة الاجنبي :

يعود المختص الى الوطن العربي وكله نشوة للانتصارات التي حققتها البلاد العربية على الصعيد العالمي ماليا وسياسيا ولوقفة العز التي تقفها تجاه الاجنبي . يعود وهو مرتاح لمجهودات الدول العربية لاستقطاب الكفاءات العربية واستعادتها . ولكن يصدمه عندما يبدأ العمل في البلاد العربية ان عقدة الاجنبي تطغى في كل مجال وميدان وباننا ما نزال مستمرين فكريا ونفسيا وما نزال ننظر لانفسنا كشعب متخلف غير قادر على اللحاق بركب الحضارة الانساني وغير قادر على اخراج طاقات بشرية عربية بمستوى الخبرات الاجنبية .

(١) فكل الدراسات الكبرى والمشاريع يجب ان تلزم لشركات اجنبية .

(٢) وكل مشروع او دراسة عربية لابد ان يستشار بها مرجع « اجنبي مختص » وتطوع القرارات العربية للاستشارة الاجنبية فنيا وعلميا ، وحتى سياسيا في بعض الاحيان .

(٣) ويكتشف المختص العربي ان خبرته وكفاءته غير مقدرة بمثل خبرة وكفاءة الاجنبي . فكم من مرة يجد المختص نفسه تابعا « لخبير اجنبي » كانا معا في الدراسة الجامعية وكان ، هو العربي ، يفوقه علما وانتاجا . ولكم من مرة يكتشف المختص العربي ان امتيازاته المادية لا توازي نصف امتيازات الاجنبي من نفس الخبرة والشهادة . وكم من مرة سفهت اراؤه العلمية لصالح آراء اجنبية غير عليمة وغير مخلصة لمجرد انها اجنبية .

(٤) وكل انتاج اجنبي متفوق بالضرورة على الانتاج العربي كمسلمة لا تقبل النقاش مهما كانت كفاءة البضاعة العربية ودقة صنعها وخبرة المشرفين على انتاجها فهي حتما اقل قدرة على المنافسة امام البضاعة الاجنبية ، والغربية بشكل ادق .

(٥) يضاف الى ما سبق ان فئة جديدة بدأت تبرز بين المختص العربي والمختص الاجنبي . فهناك المختص العربي المقيم وهناك المختص العربي « المستورد » مؤقتا . فالعربي المقيم في الخارج متميز بالضرورة في كل شيء عن نده العربي المقيم في البلاد العربية وكم من المؤتمرات والندوات والتسهيلات تجري « للكفاءات العربية في الخارج » وتهمل الكفاءات المماثلة والندة المقيمة في البلاد العربية . بل ان نفس الشخص « تهبط قيمته » اذا استقر في البلاد العربية بعد « استيراده » كمختص مؤقت من الخارج .

وهكذا تزدوج عقدة النقص تجاه الاجنبي فلدينا الان « خبراء اجانب » و « خبراء اجانب عرب » .

وكل هذا بالطبع يشجع المختص على عدم الاقامة الدائمة في البلاد العربية وفي احسن الاحوال على الاكتفاء بالاقامة المؤقتة والاستشارات المحدودة من الخارج حتى لا يصبح « من اهل البيت » فيفقد قيمته كخبير و « كوادر من الخارج » .

ان كل العوامل السابقة ، تجعل عطاء المختص العائد ضمن عمله صعبا . ويأخذ مع الوقت يشعر بعبث اقامته في البلاد العربية ، فلا هو قادر على العطاء المنتج في ميدان خبرته ، ولا هو مستفيد علميا وفنيا وماديا من اقامته في البلاد العربية ولا يجد من التقدير لمعنى اقامته وثمنها بالنسبة اليه .. وسرعان ما يجد نفسه مدفوعا من جديد الى التفكير بالهجرة الى الخارج مع اقتناع بأن هجرته هذه لن تضر احدا كما ان اقامته لا يستفيد منها احد .

لقد توسع البحث نسبيا في مناقشة العقبات امام عطاء المختص المنتج في ميدان عمله واختصاصه لانها المقصودة اساسا في عنوان البحث ، ولانها تعني المختصين في ميدان العلم والتقنية اكثر من غيرهم ولان معالجتها يمكن ان تتم باجراءات سريعة وواقعية تمنع هجرة العائدين مجددا وتحول دون خسارة الوطن العربي لهم لصالح سوق العمالة في الخارج .

وسيمر البحث على باقي العوامل بسرعة . لانها بحثت في مجالات اخرى وعلى امل ان ترد في مناقشات وابحاث لاحقة .

الناحية المادية

من اهم عوامل استقطاب الكفاءات العربية الناحية المادية ، وبالطبع فانها ايضا عامل مهم في استبقاء الكفاءات العربية للعمل في الوطن العربي . فهنالك باستمرار تنافس بين سوق العمالة العربي وسوق العمالة في الخارج . ولابد أن يقدم السوق العربي امتيازات مادية موازية او تقل قليلا عن الامتيازات والاغراءات التي تعرض على المختص العربي في الخارج . من هذه القضايا :

(١) مساواة الراتب في البلاد العربية بما يعرض من راتب في الخارج .

(٢) مساواة المختصين فيما بينهم في الراتب اذا تساوت الشهادة والخبرة حتى لا يشعر أي منهم بأنه مغبون تجاه زميله الند له .

(٣) بحث امكانية زيادة امتياز الخبرات المحلية مقابل الخبرات العربية العائدة حتى لا يكون هنالك تفاوت كبير يؤدي الى الشعور بالاستعلاء لدى العائد من جهة ، والى شعور بالغبن بدفع للهجرة لدى المختص المقيم من جهة اخرى .

(٤) تأمين نفقات السفر للخارج من آن لاخر لاكتساب مزيد من الخبرة .

(٥) تأمين نفقات الخدمات الضرورية المؤمنة في الخارج : تعليم الاولاد ، الطبابة ، التعويض في نهاية الخدمة ، التعويض في حالة الاصابة اثناء العمل .. الخ .

(٦) تأمين بعض التسهيلات المادية عند العودة مثل نقل الاثاث والعائلة والكتب ، والسيارة .. الخ .

(٧) الترقية والمكافأة على التفوق في العمل والخبرة وتخطي اجراءات الترقية الروتينية عند الضرورة .

(٨) امكانية تحويل جزء من الراتب الى الخارج .

(٩) امكانية العمل الحر اذا انتهي عقده مع المؤسسات العامة في البلد العربي المضيف نفسه او في بلد عربي مجاور .

(١٠) تأمين نفقات البحث العلمي والمراجع العلمية والمشاركة في المؤتمرات العلمية .

عقبات سياسية

يلعب الوعي القومي والسياسي دورا ملحوظا في استقطاب المختص العربي في الخارج واستعادته للعمل في البلاد العربية . ولكن هذا العامل يكاد يتوقف او ينقلب سلبيا حال مباشرة المختص عمله في البلاد العربية .

(١) يشعر المختص بان هناك تقديرا سياسيا وقوميا لعملية عودته بدافع وطني الى البلاد العربية .

(٢) يشعر المختص ان الالتزام السياسي والعمل السياسي محظور في معظم البلاد العربية ويشكل عائقا جديا امام امكانية استمراره في العمل في هذا البلد العربي او ذاك .

(٣) يجد المختص ان في الخارج جمعيات ومؤسسات عربية عديدة تشجعه على الابقاء على ارتباطه مع الواقع العربي وتشجعه على العودة للعمل في البلاد العربية ، بل وربما تؤمن له عملا مسبقا ليعود .

ولكن حالما يعود ، يترك لوحده يصارع مختلف سلبيات التخلف وصعوبات العمل في البلاد العربية دون مؤسسات تعينه على ذلك ودون استمرار في التوجيه السياسي الذي دفعه للعودة اصلا . فليس هنالك مؤسسات للاستيعاب والاستبقاء والتوعية حول ذلك كما لدى العدو الصهيوني مثلا .

من جهة اخرى فان معظم العائدين او كلهم من الذين يقيمون في الدول الغربية ، وقد اعتادوا على حد ادنى من الليبرالية في التعامل والتصرف . وهم يتوقعون ان يكون لديهم ممارسة الحد الادنى المماثل لمثل هذه الليبرالية في البلاد العربية وممارسة الحد الادنى من الحريات الشخصية الممارسة في الخارج ، مما هو مفقود في معظم الدول العربية .

- حرية الفكر .
- حرية المعتقد السياسي والديني .
- حرية العمل الفكري والسياسي وتوفر المناخ السلس لذلك .
- وجود المؤسسات الثقافية والفكرية التي تشجع على نمو الاجواء الفكرية والثقافية العامة .

اخيرا فان معظم العائدين يفتقدون حرية التنقل بين البلاد العربية التي هي من حيث المبدأ وطن عربي واحد . فالصعوبات في الانتقال بين بلدين عربيين مجاورين مثل سوريا ولبنان مثلا تفوق الصعوبات في الانتقال بين معظم الدول في الخارج سواء من حيث التأشيرات واذونات الخروج والتدقيق على الحدود .. الخ .

وكل هذه الامور تدفع المختص العائد للتفكير مليا في احتمالات هجرته من جديد الى الخارج .

مشاكل التأقلم الاجتماعي والحضاري بالنسبة للعائدين:

معظم المختصين العائدين يواجهون بصعوبات جمة في العودة للتأقلم مع الواقع الاجتماعي المتخلف في البلاد العربية . ومعظم هذه

الصعوبات تنصب على الزوجة اذا كانت اجنبية او متفرنجة ، وعلى الاولاد اذا تعدوا سن الرابعة أو الخامسة . كذلك يواجه المختص نفسه صعوبات في التاقلم الاجتماعي متعلقة بعلاقاته البشرية في حياته الجديدة وبفقدان العديد من متطلبات الحياة الحديثة التي كانت متوفرة له في الخارج .

اولا : العلاقات البشرية :

يكون المختص قد اعتاد نمطا معينا من العلاقات البشرية في الخارج أو في عمله مع الدولة حيث يقيم ، في بيته ومع انداده في العمل . ويواجه بانهيار اسس هذه العلاقات واختلافها جذريا في البلاد العربية .

(١) ففي معظم الاحيان تكون العلاقات مع الدولة العربية معقدة من حيث تأشيرات الدخول ، واذن العمل ، والضرائب ، وامكانية التنقل ، والراتب اذا كان يعمل في مؤسسات حكومية .

(٢) واذا جاء المختص مع جهة غير حكومية فان علاقته مع المؤسسة التي يعمل بها لها تعقيداتها الخاصة . فهي اولا تتطلب نوعا من العلاقة بين المؤسسة نفسها والدولة (الرشوة) واذا كانت المؤسسة خاصة فشهوة الربح السريع تطغى وتؤدي الى استغلال واستهلاك للمختص العائد . كما ان العلاقات (والترقيات) في مثل هذه المؤسسات مزاجية ، انتهازية وتعتمد الوساطة والقرابة والعلاقة الشخصية .

(٣) يشعر المختص ان علاقته مع نده المختص العائد في معظم الاحيان غير سليمة ، فبدلا من التعاون المثمر وتبادل الخبرة والمعرفة ، كثيرا ما يسود التنافس واخفاء المعلومات (خاصة بين ابناء بلد عربي معين) والمكائد المتبادلة .. وبالرغم من أن مثل هذه العلاقات توجد في المؤسسات في الخارج الا أن وقعها في حالة العائد سيئة جدا لما يعطى لعودته من معان وطنية ومثالية . فيفاجأ بمثل هذه التصرفات من انداد له جاءوا للكسب السريع او لمجرد الزيارة وتمضية الوقت او من اجل هدف شخصي محدد .

(٤) ويشعر المختص أن علاقته بنده المقيم ايضا سيئة ، فهو في نظر المقيم دخيل ، ومتميز ، ومتعال ، « خبير اجنبي من نوع جديد » وقلما يجد التعاون المطلوب منه ، سواء في العمل او في العلاقات الاجتماعية العادية .

(٥) وفي معظم الاحيان يشعر المقيم ان علاقته بأهالي البلد المضيف سيئة ، فهم ينظرون اليه كمرتزق يسعى لاستغلال خيراتهم ، كغريب ، وتنشأ علاقات سلبية متبادلة في عدم الاحترام وعدم التقدير .

وفي كل هذه المجالات لابد لباحثي علم الاجتماع من دراسات معمقة ومفصلة حتى تتعاون كل الاطراف المعنية على التخفيف من هذه السلبيات المعيبة في علاقاتنا مع مختصين نريد منهم العودة الى وطنهم لخدمته والاقامة فيه .

ثانيا : الاشكالات العائلية :

(١) اذا كان المختص العائد أعزب ، يواجه مباشرة في معظم الدول العربية بانغلاق اجتماعي قد لا يستطيع مواجهته : فالعلاقات بين الجنسين محددة والتصرفات الليبرالية التي أعتاد عليها شبه مفقودة . ومن جهة اخرى اذا سعى للزواج يجد صعوبة جمة في العثور على الزوجة التي تناسبه فكريا واجتماعيا ، وصعوبة في كيفية التعرف عليها واقامة علاقة سليمة معها تمهد للزواج . ويجد صعوبات مادية كبيرة في تأثيث المنزل واقامة الاجراءات الاجتماعية والدينية والضرورية . مما قد يرهقه ويدفعه الى التأخر في الزواج أو البحث عن زوجة اجنبية مع كل اشكالات الزوجة الاجنبية .

(٢) وسواء كان أعزب أم متزوجا يواجه بنوع من العلاقات الاجتماعية المفروضة عليه من قبل الاقارب ، من حيث الزيارات والاقامة والمساعدة .. الخ . كما يواجه بفقدان الكثير من وسائل الترف والاندية الثقافية والفكرية والفنية التي قد يكون معتادا عليها في الخاج .

(٣) وتشكل الزوجة عادة عائقا كبيرا في البقاء سواء كانت اجنبية أو عربية عاشت فترة طويلة في الخارج ، فمتطلباتها تكون اكثر بكثير مما يسمح به المجتمع في البلاد العربية .

- العمل في ميدان اختصاصها .
- الابتعاد النسبي عن الاهل والاقارب .
- ممارسة حد ادنى من الحريات الليبرالية التي اعتادت عليها في الخارج .
- التسهيلات الضرورية للمنزل والمطبخ .
- المدرسة اللائقة للاولاد ، خاصة بالنسبة للغة الاجنبية .
- امكانية التحرك الاجتماعي وزيارة أماكن اللهو والترفيه .
- واذا كانت اجنبية قد يشكل عائق اللغة عقبة تدفعها الى اليأس بسرعة فتهرب الى حيث تستطيع التفاهم مع الناس من حولها .
- توفر اللباس بازيائه الحديثة وتقبل المجتمع العربي له .
- ابتعادها عن اهلها واجوائها الثقافية والفكرية مما قد يشكل لها صدمة اجتماعية حضارية فتفقد الاهتمام بزوجها وتدفعه للعودة أو تتركه وتعود .

(٤) وبنفس الاهمية والصعوبة تكون اشكالات الاولاد بعد سن الخامسة أو السادسة :

- ايجاد المدرسة المناسبة باللغة المناسبة .
- الحريات الاجتماعية خاصة بالنسبة للفتيات .
- مجالات الاختلاط بالنسبة للجنسين في سن المراهقة والنضج .
- الرغبة فى التخصص العالي الذي قلما يتوفر في البلاد العربية.
- انتماء العديد من الاولاد الى البلد الاجنبي الذي نشأوا به اكثر من انتمائهم للحضارة العربية والتراث العربي .

ثالثا : التسهيلات الحضارية الحديثة :

ان البلاد العربية ما زالت مجتمعات متخلفة على وجه العموم وتفتقد بدرجات متفاوته كثيرا من تسهيلات الحضارة الحديثة التي يكون المختص قد اعتاد عليها وكذلك اعتاد عليها زوجته وأولاده .

وكثيرا ما يكون افتقاد هذه التسهيلات من التأثير بحيث يدفع

المختص العائد الى الهجرة ثانية لبلاد تتوفر فيها مثل هذه التسهيلات، ومنهـا على سبيل المثال لا الحصر :

(١) عدة المنزل والمطبخ والتزبين للزوجة .

(٢) وسائل الترفيه والتثقيف لجميع افراد العائلة خاصة الصغار .

(٣) السيارة والطائرة ووسائل النقل المختلفة .

(٤) التليفون والتلفزيون والتلفزيون الملون .

(٥) الحدائق العامة والمنتزهات والبلاجات .

(٦) الاسـواق الحديثة .

(٧) المجلات الاجنبية والعلمية وكذلك كتب المطالعة لجميع افراد العائلة الـــخ ....

أن مشـكلة التأقلم الاجتماعي تأتي ربمـا بنفس الاهمية مع قضايا انتاجية العمـل المختص واحيانا تكون تأثيرات التأقلم الاجتماعي من السـلبية بحيث تغطي على النجـاح في العمل وتدفع المختص الـــى الطريق الاسهل : الى الهروب مجددا للخارج .

وتزداد حدة هذه المشكلة من أن احدا من الجهات المعنية لا يهتم بهـا ويترك ـ المختص العائد يواجهها وحيدا الى أن ييأس في معظم الاحيـان . ومن الضروري أن يبدأ الاهتمام الجاد من قبل الحكومات العربيـة بمثل هذه الامور ، أو على الاقل تاسيس الجمعيات والنوادي التي تستطيع أن تسـاعد المختص العائد في مواجهـة مشـكلة التأقلم الاجتماعـي والتي هي مشـكلة انسانية يتعرض لهـا كل عائـد مهما كان مستوى خبرته .

الاستمراريـــة وضمان المســـتقبل :

يبقى في عوامل استبقاء المختصين العرب في البلاد العربية عامل أساسي مهم هو الاستمرارية وضمان المسـتقبل . بمعنى أن المختص العربي الذي يترك مستقبلا مضمونـا في الخارج يتوقع حدا أدنى من الاستمرارية وضـمان المستقبل في البلاد العربية . وهذا يتمثل في :

(١) استقرار الوضع السياسي واستمرارية خطة التنميـــة . فالمختص يأمل بأن يكون عمله للمجتمع العربي كله وليس لنظام بالتحديد أو لشخص وزير معين أو مـا شـابه . واستقرار الوضـع السياسي وخطـة التنمية في أي قطر عربي يسـاعد بشكل حاسـم في استقطاب واستبقاء الكفاءات العربية المختصة .

(٢) أستمرار مشاريع التنمية مع وجود مشاريع متكامـلة مستمرة تضمن للمختص دورا دائمـا في سـوق العمالة العربيـة وتؤمنه ضد البطالة أو الهجرة مجددا اذا مـا انتهى المشروع الذي يعمل عليه .

(٣) امكانيـة الانتقال الى ممارسـة العمل الحر اذا انتهى المشروع الذي يعمل عليه او اذا انتهى عقد المؤسسة التي احضرته .

(٤) ضمـان تعويض نهاية الخدمـة بشكل مقارن مع الخارج .

(٥) معالجة قضايا التجنيس والاقامة واذن العمل بحيث لا تشكل عائقـا امام المختص في الاسـتمرار في البـلاد العربية مهمـا كانـت الظروف والاحوال السياسية والاقتصادية حتى لا يشـعر بانـه غريب مشرد طيلة اقامته في البـلاد العربية .

خاتمـــة

أن الباحث يقر بالنواقص والسلبيات العديدة في البحث الحالي ويأمل أن تسنح الفرصة في المستقبل لتخطي الصعوبات التي واجهت البحث الحالي ولاتمـام اجزاء البحث الناقصة خاصـــة اسـتمارة استقراء أراء المختصين العـــرب والدراسـة المقارنـة بين مختلف القوانين التي اصـدرتها البلاد العربية لاستقطاب واستبقاء الكفاءات العربيـــة .

د . حسن الشريف
مديـر التوجيـة في مدارس
المقاصد الاسلامية بصيدا ـ لبنان

د . صلاح الدين الشيخلي

العوامل المساعدة في استرجاع الكفاءات العربية المهاجرة

١ ـ نظرة عامة

قد لا نغالي اذا قلنا ان موضوع هجرة الادمغة ، او نزيف الكفاءات كما يسمى في بعض الاحيان ، ظاهرة قديمة بدأ التفكير بها وتجميعها وبنفس الاساليب التي نألفها في مثل هذه الايام منذ العصر العباسي ، ومن بعد ذلك في القرن السادس عشر والسابع عشر ابان وبعد الثورة الصناعية في اوروبا وبعد الحرب العالمية الاولى والثانية في امريكا .

ان اتساع الفجوة بين الدول النامية وتقنيتها المتطورة ، والدول المتخلفة واوضاعها البدائية ابقى هذه الظاهرة وزاد منها حتى اصبحت ظاهرة مستفحلة وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين . ولم تكن الكفاءات العربية بمنأى عن هذه التيارات ، الا ان بعد هذه المشكلة لم يتوضح الا في الاونة الاخيرة عندما اقبلت النظم التقدمية في البلدان العربية على تنمية مواردها الداخلية معتمدة على الكفاءات المحلية والعربية ، فظهر البون الشاسع بين احتياجات التنمية الفعلية للكفاءات وبين ما هو موجود فعلا في الداخل ، فاتجهت بذلك الانظار الى الكوادر المتواجدة في الدول الصناعية المتقدمة طالبة منها العودة والمساهمة في معركة التنمية ، وسنعود الى هذا الموضوع في محل اخر من البحث .

ولكي نقيم هذه الظاهرة نرى من المفيد ايراد بعض الحقائق حول الكفاءات العربية بشكل عام والهندسية بشكل خاص المتواجدة خارج القطر ، ففي خلال سبع سنوات مثلا ما بين عام ١٩٦٢ و ١٩٦٩ هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية حوالي ٣٧٦٦٠٠ عربي من اخصائيين وفنيين ومهندسين وعلماء طبيعة واطباء وعلماء اجتماع وممرضات .

كما تدل الدراسات على ان هنالك عملية استيطان بعد التحصيل العلمي اكثر منه هجرة مباشرة بعد التحصيل من الجامعات العربية المحلية . فلو اخذنا المهندسين مثلا نرى ان ما يزيد على (٥٦٪) من المهندسين المدربين فيها قد هاجروا الى امريكا وكندا خلال الفترة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٦ . اما الارقام المماثلة لها من البلدان الاخرى ففي لبنان (٣٥٠٥٪) ، والعراق (٩٠٢٪) ، ومصر (١٠٩٪) . ولم تقتصر الهجرة على امريكا الشمالية بل تعدتها الى فرنسا وانكلترا والمانيا الغربية ولكن بنسب واعداد اقل من الهجرة الى امريكا الشمالية . ان ما يصح على المهندسين ينسحب بنفس الاتجاه على الاختصاصات الاخرى كالطب والعلوم البحتة وغيرها من مستويات التقنية الاخرى .

وتدل الدراسات ايضا على ان هنالك علاقة وثيقة بين التعليم والتدريب في الخارج والهجرة ، حيث دلت هذه الدراسات على ان الطلبة القادمين من الدول العربية وخاصة من لبنان والاردن يستخدمون الدراسة في الخارج خطوة اولى للاستيطان النهائي في البلد الذي يدرسون فيه كالولايات المتحدة وانكلترا . كما تدل الدراسات على ان (٧٠ ٪) من علماء المنطقة العربية الدارسين في المعاهد الغربية يعاودون الهجرة الى مواقع دراستهم الاولى ويفضلون البقاء والعمل فيها .

لقد اهتمت منظمات دولية كالامم المتحدة واليونسكو بهذا الموضوع وقدم اخصائيوها دراسات عديدة يبينون فيها خطورة استمرار عملية الهجرة والاثار السلبية التي تتركها على مسيرة التنمية في البلدان النامية ومنها البلدان العربية ، وقد اوضحت هذه الدراسات ان المهندسين يشكلون حوالي ثلث مجموع المهاجرين خارج البلدان العربية يليهم الاطباء واخصائيو العيون والزراعة . وتكمن الخطورة في الاستنتاجات التي توصلت اليها هذه التقارير ، وهي ان هجرة الادمغة العربية لا زالت في حركة مطردة ومتزايدة وليست عملية عشوائية او عرضية وهي دالة من دوال مستوى التنمية ومدى تطور القطر اقتصاديا واجتماعيا . وتستنتج معظم هذه التقارير ان هنالك اتجاها متزايدا للهجرة خلال السبعينات اذا لم تتخذ اجراءات فورية لايقافها .

وبهذا الصدد يقول السيد مالكم اوديشيا ، نائب المدير العام لليونسكو « ان العلماء والمهندسين والاطباء الذين يهاجرون الى العالم المتقدم ، هم دعامة التنمية وعوامل دفعها وهم الاساس في كل تغيير وتطوير ، كما ان قيمتهم تتجاوز كل حساب بالدينار او الدولار . ان الذين يغادروننا هم النخبة المتعلمة المؤهلة على اعلى مستويات المهارة ، وهم معلمو الشباب وقادتهم وهم المخططون لمجتمعنا والمجددون له ، وهم قادة عالمنا في مجالات السياسية والثقافة . »

وسلبيات هذه الظاهرة كثيرة ومتعددة ، وبعضها يكاد يدخل ضمن مفهوم البديهية ، ففي مجال العلم والتكنولوجيا ، فان هجرة الاف الخبراء والفنيين والعلماء والاختصاصيين من الوطن العربي ، لا يحرم الوطن العربي فحسب من مساهمات هذه الكفاءات وانما يضيف الى المجتمعات التي ينزح اليها استثمارا بشريا جديدا يساعد

في مضاعفة عجلة التقدم العلمي ، فتزداد بذلك الفجوة لتحرك الوضع الاول الى الوراء ، والوضع الثاني الى الامام . اضف الى ذلك ان هجرة العلماء تؤخر ولعشرات السنين (نتيجة للطبيعة التي يستلزمها اعداد مثل هذه الكوادر) تنمية المراكز العامية والجامعات وتؤخر عملية النهضة العلمية بشكل ملموس ، حيث تشير تقارير الخبراء ان استنزاف (٧٠٪) من العلماء العرب المدربين في الاقطار المتقدمة في الغرب قد اعاق من الان ولفترة عشر سنوات قادمة انماء الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات العلمية التي استنزفت منها . ومع ان الارقام المطلقة للهجرة من الوطن العربي لا تبدو كبيرة اذا ما قورنت بمجموع السكان الذي يربو على الـ ١٥٠ مليون نسمة الا انه لو نسبت هذه الارقام الى الفنيين واصحاب المهن وليس الى مجموع السكان ، فهي تتراوح بين ٨ للفئة الاولى الى ٤٥٪ للفئة الثانية على التوالي .

اما في مجال التنمية فقد اعتبر المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للامم المتحدة ان هجرة الكفاءات الى البلدان الصناعية المتقدمة ينافي الاهداف الاساسية التي وضعت لعقد التنمية الثاني ، وتصدير خطير لموارد شحيحة من البلدان المتخلفة الى البلدان النامية .

واذا علمنا ان اهم مقومات عملية التنمية وخاصة في مراحلها التنفيذية هم الكوادر الفنية العالية التدريب ، نستطيع ان نفهم البعد الذي تاخذه هجرة الكفاءات الى خارج القطر على متطلبات التنمية ، ناهيك عن الحاجة الى المخططين والعلماء والتقنيين الذين تبرز اليهم الضرورة في مجالات قطاعات البنى الارتكازية خلال عملية التنمية .

وبمعنى اخر فان هجرة العلماء والمهندسين والفنيين لا يعتبر خسارة في الاموال والاستثمارات التي انفقت عليهم لايصالهم الى مستوى الخبرة والمهارة التي هم فيها فحسب ، وانما خسارة كبيرة لمسيرة التنمية ، حيث انهم يمثلون احد العوامل التي ترتكز عليها مجمل عملية التنمية في التخطيط والتنفيذ .

فالمشكلة اذن واضحة بابعادها وانعكاساتها ، وحتى في مسبباتها ، ولا نرى داعيا ان نكرر ما طرحته الادبيات الاخرى الكثيرة حول الموضوع ، الا ان المهم هنا ان نتحرى اسباب « الطرد » او الهجرة الاساسية من البلدان العربية الى البلدان الصناعية النامية ، ليتسنى لنا طرح الاسس والعوامل التي تساعد على استعادة الكفاءات المهاجرة ، للعمل في الوطن العربي .

٢ ـ الظاهرة ومسبباتها :

قد يكون من المناسب هنا ان نوضح ان ظاهرة تنقل الكفاءات من قطر الى اخر لا تشكل بحد ذاتها مشكلة اساسية وخطيرة ، الا عندما يختل التوازن بين الطلب على الكفاءات العلمية العالية التدريب ، وبين العرض المحدود لهذه الكفاءات في القطر المصدر ، لصالح الطلب ، حيث ان هنالك الكثير من الدول النامية ومنها بعض الدول العربية ، لا تستوعب مراحل التنمية التي تمر بها ابراز مشكلة هجرة الكفاءات فيها ، كقضية محورية في عملية التنمية لعدم اختلال التوازن الذي نوهنا عنه . الا ان هذه الحالة لا تنطبق على معظم الدول العربية ، وخاصة تلك الدول التي تبنت برامج طموحة للتنمية في اقطارها ، وبعد ان اصبحت صاحبة القرار النهائي في توجيه مواردها المالية لرفع المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لشعوبها .

ان هذا التحليل يعني ضمنا ، ان الكفاءات العربية توجهت ، الى خارج اقطارها في وقت لم يكن هنالك ما يكفي من النشاطات الاقتصادية لتبرير تواجدها الفعلي في القطر ، او ان مضاعفات الركود الاقتصادي الذي مرت به المنطقة قد ساهم في تكوين معظم عوامل الطرد الاساسية لذوي الكفاءات ، اضف الى ذلك أن من أهم اسباب هجرة ذوي الكفاءات ، هي الفجوة الحضارية بين الدول العربية والتي تعتبر في مصاف الدول النامية ، وبين الدول الصناعية النامية ، والتي تنعكس مظاهرها على كافة اوجه النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي ، وتكاد المقارنة تفقد مؤشراتها المشتركة وتميل دائما لصالح المجتمع الصناعي النامي ، كلما طرحت هذه المواضيع على بساط البحث . ولا غرابة اذن ان وجد جميع الباحثين ان حدة الهجرة تتناسب تناسبا عكسيا مع مستويات النمو والتقدم التي حققتها البلدان المصدرة لهذه الكفاءات وطرديا مع الفوارق المتحققة نتيجة للاختلاف في مراحل التطور الاخرى . وهذا يعني بالضرورة ان بلداننا العربية التي لا زالت تتمسك مجتمعاتها باطر وتقاليد حضارات قديمة ومستقاة في اسسها عن النهضة الصناعية الحديثة والتوجه العلمي الذي يسود البلدان الصناعية (اوربا وامريكا) ، لا تستطيع ان تقدم النموذج او تهيء البيئة التي يتطلبها العالم الاختصاصي الذي اكتسب خبرته العلمية وممارسته في مؤسسات وحضارة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تمارسها مجتمعاتنا الحالية . فالكادر العلمي الذي نحن بصدده هو ربيب المناخ العلمي الاوروبي والمنهاج العلمي الصناعي المتقدم والقيم العلمية السائدة في مثل هذا المناخ والتي ترتبط بمجوعها بفلسفة الحياة بصورة عامة في المجتمعات الغربية . لذا فالانتقال من مثل هذه الاجواء ، الى الحضارات التقليدية السائدة في المجتمع العربي ، ومحاولة العمل في اجوائه ، بنفس العقلية والمدخل الغربي للموضوع ، سيصدم ولا شك هذه الكوادر ويحيطها بشعور الغربة ، على الاقل ، خلال ممارستها الوظيفية لاختصاصاتها .

ان الكلام عن توجه المجتمع وممارسته ، ينسحب على تنظيمات المؤسسات القائمة في هذا المجتمع ، والقوانين والتشريعات التي تنظم العلاقات الوظيفية والانتاجية والشخصية بين افراد المجتمع ، وبالتالي فان اي تخلف نسبي في مستويات الرواتب والاجور ، او انعدام مؤسسات البحث العلمي ، او نقص في الخدمات الضرورية او الترفيهية وغيرها ، ما هي الا مظاهر هذا التباين في النظرة والفلسفة واوجه مختلفة لمشكلة واحدة والتي اسميناه ابالفجوة الحضارية .

٣ ـ الاجراءات المتخذة لتشجيع عودة ذوي الكفاءات :

اننا في الوقت الذي لا نستطيع ان نعالج فيه اصل المشكلة وهي سد الفجوة الحضارية بين المجتمع الغربي الصناعي والمجتمع العربي النامي ، نستطيع ان نطرح حلولا من شأنها ان تزيل بعض مضاعفات المشكلة وتعمل بالتالي على الحد من معدلات الهجرة من جهة، وتشجيع الكفاءات المتواجدة في الخارج للعودة الى الوطن .

لقد كانت هنالك مبادرات عربية كثيرة لتشجيع عودة ذوي الكفاءات ، وخاصة بعد اقبال معظم هذه الدول على برامج طموحة للتنمية ، اظهرت عجز الكوادر المحلية كما ونوعا على تحمل كامل اعباء المسؤولية ، اضف الى ذلك ان بعض الانظمة العربية انطلقت في معالجتها من منظار قومي ، وفتحت ابوابها لاستقبال كافة المغتربين العرب الراغبين في العمل لديها وعلى قدم المساواة مع مواطنيها .

لقد كان العراق في مقدمة الدول العربية التي بادرت الى اصدار تشريع باسم قانون تشجيع عودة ذوي الكفاءات في عام ١٩٧٠ ، استهدفت فيه كسب الخبرات العربية العاملة في الخارج ، ممن مضى على ممارسته لمهنته مدة ثلاث سنوات . وكانت الحوافز المادية

من ابرز ميزات هذا القانون . وقد عدل هذا القانون مرة اخرى عام ١٩٧٢ عندما انيط بحثه بلجنة وزارية لتقديم مقترحات على ضوء الخبرة السابقة لتطبيق القانون الاول . وفي نهاية عام ١٩٧٤ صدر القانون الحالي والذي سمي بقانون « رعاية اصحاب الكفاءات » . ويلاحظ في هذا القانون انه جاء متخطيا لغالبية نواقص القوانين والممارسات والمعوقات السابقة ، ومن ابرز ميزاته :

١ ـ انه اعتبر قانون رعاية اصحاب الكفاءات ، مما يشير الى استمرار متابعة الدولة لصاحب الكفاءة حتى بعد عودته وممارسته لعمله ومحاولة حل مشاكله التالية لحين استقراره النهائي في القطر .

٢ ـ انه شمل الموجودين داخل القطر بنفس ميزات العائدين من الخارج الى حد بعيد ، والتفت بذلك الى ضرورة الحفاظ على الخزين الموجود من الكفاءات داخل القطر ، والحد بالتالي من معدلات الهجرة السابقة ، ومعالجة المشكلة من اصولها .

٣ ـ انه تخطى الميزات المادية والتفت الى التسهيلات الادارية الاخرى والمعوقات التنظيمة التي كانت تصدم العائد ، وتعيقه في كثير من الاحيان عن القرار في العودة .

٤ ـ انه ميز بين العلماء من ذوي الاختصاصات النادرة وغيرهم من الاختصاصيين وافرز لهم معاملة خاصة في نصوصها .

٥ ـ انه التفت الى توفير المستلزمات الضرورية الاخرى للعائدين ، وبالاخص مقومات بدء حياة جديدة في العراق ، كالارض والسكن والاقراض والمنح والمكافآت .

٦ ـ انه انشأ هيئة بمستوى عال وصلاحيات واسعة للاشراف ومتابعة وتنفيذ القانون وتسهيل الاجراءات الاخرى للعائدين وخاصة في الايام الاولى لعودتهم .

٧ ـ انه فسح للعائدين مجال حرية الاختيار بين الاستمرار في العمل في العراق ، او العودة الى المهجر ، بعد فترة معينة ، اذا لم يستطع العائد الاستقرار الكامل في عمله ومحيطه الجديد .

ان الفلسفة الاساسية خلف فقرات القانون ، هو مد الجسور بين الكفاءات العربية المهاجرة ، وبين الوطن الام ، دون جعل هذا القانون او غيره اسلوبا من اساليب الضغط والاستدراج غير العلمي والمدروس .

لقد شرعت دول عربية اخرى قوانين مماثلة لتشجيع عودة ذوي الكفاءات العربية من الخارج ، وقد كان القاسم المشترك الاعظم بين معظم هذه التشريعات هو المغريات المادية التي طرحتها كنقطة بارزة في القانون ، ان هذا المنحى يعني ضمنا ان في اعتقاد المشرعين لهذه القوانين ، ان السبب الاساسي لهجرة ذوي الكفاءات من البلدان العربية والنامية على حد سواء هو الانخفاض المطلق لمستويات الاجور والمكافآت السائدة في هذه الدول ، وان الاسلوب الوحيد لاسترجاعهم هو اغراؤهم بالمحفزات المادية . الا ان هذا المنحى يعطي انطباعا معاكسا مفاده ان الكفاءات العربية مستعدة لبيع خدماتها لمن يزايد في عرض المحفزات المادية من اجور ومكاسب اخرى .

ان خبرتنا العلمية في هذا الميدان ، لا تؤيد هذا الاتجاه حيث اتضح لدينا ومن خلال لقاءاتنا بالكفاءات العربية في كل من انكلترا والمانيا الغربية والولايات المتحدة ، انها تقسم الى ثلاثة مجاميع ، الاولى مهيأة للعودة الى اوطانها والمساهمة في معركة البناء دون الحاجة الى محفزات مادية وما اليها ، والفئة الثانية هي التي يساورها الشك بين البقاء في البلد الذي تعمل فيه وبين العودة الى الوطن ، وقد تساعد الحوافز المادية مع مثل هذه الفئة ، والمجموعة الثالثة هي التي استقرت في المهجر ولا يمكن اغراؤها بالمحفزات المادية او غيرها للعودة والاستقرار الدائم في وطنها . وقد افردنا معالجات خاصة لكل من الفئتين الثانية والثالثة .

لقد تقصينا بعمق اسباب عدم عودة المجموعة الثانية ، بهدف وضع الحلول العملية لها ، واتضح لنا ان المعوقات الاساسية هي تراكمات ومشاكل تعقدت بمرور الزمن منها الالتزامات التعاقدية القديمة مع الدولة وملاحقة الدولة لهم باستمرار ، ومنها المجابهات السابقة التي خبرتها افراد هذه المجموعة عند عودتها الى الوطن في وقت سابق ، ومنها عوامل سياسية واجتماعية وانطباعات خاطئة .

اننا لا نشك بأن المشاكل التي جابهتنا على صعيد القطر العراقي ، هي مشاكل عامة تنسحب على مجمل الوطن العربي . وان حالات من هذا القبيل يمكن معالجتها بطرح الحافز المادي او اي اجراء اخر من شأنه توفير المستوى اللائق لهم ولعوائلهم .

اما المجموعة الثالثة والتي قررت الاستقرار في الغرب بشكل نهائي ، فاننا نقترح استمرار الصلة معهم ومد الجسور اليهم للاستفادة منهم بشكل خبراء مؤقتين او اساتذة زائرين ، وجعلهم حلقة الوصل بين المجتمعات الصناعية المتقدمة ، والمجتمع العربي النامي وتمكينهم من نقل اخر حلقة من حلقات التطور العلمي اليه .

الخلاصة

مع ان هذه الورقة دارت حول اساليب استرجاع الكفاءات العربية من الخارج الا اننا نرى ان هنالك علاجا ذا شقين لهذه المشكلة ، والاساس فيه هو معالجة اوضاع الكفاءات المتواجدة في الوطن العربي وتقديم العون لها وتمكينها من اداء واجباتها في كافة مجالات النشاط الاقتصادي وذلك باعادة النظر في مستوى الرواتب والاجور وخلق الصلة بينها وبين فئات الشعب الاخرى بهدف تعميق هذه الروابط التي تكون قد انفصمت خلال تواجد صاحب الكفاءة في الخارج للدراسة او العمل ، كما ان هنالك نقطة اساسية اخرى تعود الى صلب الانظمة التربوية التي تزرع في المواطن العربي اتجاهات لا تمت بصلة الى واقع المجتمع العربي ، كما انها تلقنه مستويات من العلوم تكون في نهايتها جاهزة لخدمة المجتمع الصناعي على حد سواء .

اننا لا ندعو هنا الى تخفيض المستويات العلمية في المؤسسات الاكاديمية في الوطن العربي ، وانما نرى ضرورة اعادة تصميمها لتواجه متطلبات المجتمع النامي وخاصة في مجالات الطب والمجالات الحرفية الرامية الى اعداد الاطر الوسطى من الكوادر الفنية .

اما على مستوى الكفاءات العربية الموجودة في الخارج فقد برهنت الخبرة العملية ، ان مقدمة الاساليب الناجحة لاسترجاع ذوي الكفاءات هو منحهم المحفزات المادية بمستويات مقاربة لتلك التي كانوا يتمتعون بها في الخارج ، كما تدل التجربة ايضا ان هذا العامل لا يكفي بحد ذاته اذا لم تتوفر في الاقطار المستلمة لهذه الكفاءات مؤسسات علمية واجواء علمية مهيأة للبحث العلمي او المساهمة في مشاريع التنمية او تكليف العائدين بمسؤوليات تتماشى وقابلياتهم او طموحهم .

اننا نرى كتحليل نهائي لهذا الموضوع ، اننا لا نستطيع القضاء على ظاهرة تنقل الكفاءات مثلما ان هنالك مستويات متباينة في المرحلة الزمنية لواقع التنمية بيننا وبين الدول الصناعية الكبرى وان التطور الطبيعي لكيان المجتمعات العربية والذي سيتبعه تطور في كل مؤسسات هذا الكيان سيجذب هذه الكفاءات بفضل تساوي العوامل الاخرى وطغيان عامل الانتماء القومي والشعور بالمواطنة .

د . صلاح الدين الشيخلي
رئيس الجهاز المركزي للاحصاء بالعراق

الدكتور طارق اسماعيل

النزيف الكفائي العربي

يعاني وطننا العربي عموما حالات في التخلف تتفاوت نسبيا من جزء الى اخر ، ولمواجهة ذلك ينبغي القيام بمسح عام لمشاكل المجتمع الرئيسية بمختلف انواعها وتحليلها علميا ووضع الحلول المناسبة لها مما يتطلب كادرا ذا خبرات عملية متخصصة متقدمة ومركزية في المعالجة .

وعلى الرغم من امكانية تحقيق الشرط الاول ، فان الشرط الثاني ـ واقصد مركزية المعالجة ـ امر صعب على الصعيد الزماني القريب اللهم الا اذا ـ وبقدرة قادر ـ انبثقت هيئة عربية شاملة تمتلك صلاحيات تتعدى الحدود القطرية وهو امر ممكن التحقيق اذا تعايشت الحكومات العربية جميعا وتعالت على الخلافات السياسية واتفقت على التعاون المثمر في هذا المجال ، ولما كان هذا مغلفا ببعض الصعوبة فان ايكال الامر الى الكيانات القطرية كفيل ببناء المراحل الاولى للحل ومما يساعد على ذلك تحرر الاداة السياسية لعديد من الاقطار العربية واتجاهها المنظم لمعالجة التخلف ضمن حدودها .

ان مسافة الالف ميل تبدأ بخطوة واحدة ، والخطوة الاولى في معالجة التخلف هو الوعي بالحاجة الى الكفاءة العربية المغتربة وتشريع القوانين الخاصة بحمايتها وجذبها .

احصاءات وارقام :

ورغم ان عدد المغتربين العرب من ذوي الكفاءات غير معروف ضبطا فان التقديرات تصل الى عشرات الالوف وبالضرورة فانهم يكونون النخبة الممتازة من ابناء الوطن العربي لاسباب عدة اهمها :

تكيفهم الحضاري للعيش في المجتمعات الارقى ودخولهم ميدان المنافسة الصعبة مع مواطنيها وتكافؤهم فيها اضافة الى تحصيلاتهم الثقافية العالية . ويلاحظ المتتبع ايضا بان العدد بدأ يزداد تدريجيا منذ منتصف الخمسينات وبطريقة تصاعدية حتى اليوم ، وعلى الرغم من محاولات عدم التشجيع في الاسواق العالمية نتيجة الركود الاقتصادي الذي حل في الغرب في السنين الماضية فان عدد النازحين من ذوي المواهب العرب مما يزال تصاعديا كما ورد في دراسة الدكتور ميخائيل سليمان في هذا المجال (١) . حيث ان عدد المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٩ قد وصل الى ٤٣،٨١٨ موزعين بالشكل التالي :

العراق	:	٥،٤٣٦
الاردن وفلسطين	:	١١،٧٠١
لبنان	:	٢ر١٩٥
سوريا	:	٣،٨٠٤
المغرب (مراكش)	:	٣،٥٥٦
مصر	:	١٣،١٢٦

ويحدثنا الدكتور سليمان بان عدد المهاجرين الى امريكا في ستة اشهر فقط في عام ١٩٦٩ قد قارب العشرة الاف عربيا ونسبة اصحاب الحرف المهنية او المدراء هي كما يلي :

العراق	:	١٨٪
الاردن وفلسطين	:	١٢،٤٪
لبنان	:	١٦،٤٪
سوريا	:	٢٠٪
المغرب (مراكش)	:	١٣٪
مصر	:	٤٢،٢٪

يتضح من النسب اعلاه ان امريكا استورت ربع مجموع مهاجريها في عقد واحد خلال ستة اشهر ولو القينا نظرة اخرى الى كندا لوجدنا بان النسبة أعلى بكثير منها في امريكا وذلك لاسباب عديدة على رأسها مطاطية وسهولة الاقامة لذوي المهارات والتشجيع الذي يلقاه المغترب من السلطات الكندية ودوائر الهجرة فيها ، هذا بالاضافة الى قلة متطلبات الهجرة قياسا لقوانين ومتطلبات الهجرة الامريكية :

(1) Michael W. Suleiman. "The Reportation of Arab Elites", in Middle East Rorum, Vol. XLVII Nos. 3 and 4 (Autumn and Winter, 1971), PP. 81—87.

ونظرة اخرى الى نظام الرعاية الطبية البريطانية قد ياتي بنتائج لا تصدق عن الاطباء العرب الموجودين هناك !!. فثمة تقديرات - غير رسمية طبعا - تؤكد بأن خمس الاطباء العرب الذين درسوا في بريطانيا قد امتصهم المجتمع البريطاني نفسه . والمثل صحيح بالنسبة لفرنسا والمانيا الغربية .

ولو نظرنا الى البلاد الاوروبية الاخرى لوجدنا نماذج كثيرة من المثقفين والمهنيين العرب موزعين هنا وهناك وفي جيوب لا يمكن ان يصدقها المنطق . ترى ماذا حصل ؟ ولماذا هذا الاغتراب وعلى الاخص لهذه النخبة الممتازة من مواطنينا ؟ وهل ان التشريعات التي شرعها المشروع نهائية ! ؟ وبصيغة اخرى هل اكتسبت هذه التشريعات صفة الكمال والقطعية ؟ ان اي جواب لهذين السؤالين يقتضي تقصي اسباب النزيف الخبري العربي اولا والنظر نقديا الى القوانين المشرعة لهذا الغرض لان الدخول من الباب اكثر ضمانا من القفز من النافذة كما هو معروف .

على طريق الحل :

ثمة حقيقة اساسية ينبغي اقرارها في هذا الصدد وهي ان العراق كان اول الاقطار العربية التي اهتمت بظاهرة النزوح هذه وخاصة في السنوات الخمس الاخيرة وليس بغريب عليه ذلك ، فعمليات التغير الشاملة الجارية على مختلف الاصعدة الحياتية للفرد من جهة والمجتمع من جهة اخرى والصيغ الانفجارية لقرارات ثورة تموز السياسية المجيدة تتوافق منطقيا وذلك ، فاتخذت العديد من الخطوات الجدية بهذا الخصوص واولها قانون عودة ذوي الكفاءات العلمية الى الوطن رقم ١٨٩ والذي تبعه قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٨٩١ والصادر بتاريخ ٣٠ - ١١ - ١٩٧٢ والذي اعقبه القانون الشامل رقم ١٥٤ الصادر في ٤ - ١١ - ١٩٧٤ ولعل من يتأمل نصوص هذا القانون يجد - تحفيز الخبرات وحثها على العودة الى الوطن مراعيا الناحية المالية قدر الامكان - كما تبعت ذلك اجراءات اخرى على ذات الطريق حيث تم تشكيل لجان معينة لهذا الغرض واتجاه النية الى عقد مؤتمر لكافة المغتربين المهنيين العرب ببغداد اضافة الى الاصلاحات التي ادخلتها على المؤسسات العلمية لجعلها مواكبة للمرحلة السياسية التي يجتازها القطر خاصة والوطن العربي عموما وقد حظيت الجامعة باهتمام خاص فتشكلت فيها لجنة باشراف رسمي عالي للنهوض بها ورفع مستواها العلمي . كما تم ارسال وفد رسمي للطواف باوروبا وامريكا والاجتماع بالجاليات العربية وحث الكفاءات العربية على العودة الى الوطن .

خزان الداء :

لقد قدر لي ان اقضي فترة تفرغي في العام الماضي ببغداد مدرسا في الجامعة وقد قمت خلالها بدراسة مسحية اولية شملت (١٥١) عراقيا من حملة الشهادات العالية الذين عادوا الى الوطن بعد ان قضوا سنوات دراستهم في الخارج فعين اغلبهم في الجامعة ووزع الباقون على اجهزة الدولة ومؤسساتها . انا لا ازعم ان دراستي كانت منهجية ١٠٠ ٪ وان النتائج التي حصلت عليها قطعية ولكني استطيع ان أزعم انني حصلت على مفاتيح عامة تخدم بحث المشكلة لا سيما وانها قادتني الى خزان الداء هذا . كما لا بد من ان اعترف في البداية ان الاسلوب الذي اعتمدته في الدراسة لم يكن على شكل الاستفتاء او الاستبيان المألوف وانما كان على هيئة اسئلة وجهتها بشكل غير مباشر ثم جمعتها ووزعتها واحصيتها مركزا فيها على تثبيت درجاتهم العلمية ونوع الدراسة واسباب العودة وبقاء زملائهم في الخارج والتجارب المريرة لديهم ومقارنتها بما حصل عليه زملاؤهم المغتربون في الخارج ومدى استقرارهم في الوطن .

* *

تتوزع عينة البحث حسب فترة البقاء في الخارج بحسب الجدول التالي :

جدول رقم (١)
مدة البقاء

قطر الدراسة	١ - ٣ سنة	٥ - ١٠ سنة	١٠ - ؟ سنة
الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية	١٦	٩	٢
امريكا الشمالية	١٩	٣٨	٢٦
اوروبا الغربية	٨	١١	١٢
المجموع	٤٣	٥٨	٥٠

والجدول رقم (٢) يثبت تحصيلهم العلمي واقطار دراساتهم :

جدول رقم (٢)
الشهادات او ما يعادلها

القطر	الماجستير	الدكتوراه	المجموع
امريكا	٥٦	٣٧	٩٢
الاتحاد السوفياتي واقطار الكتلة الشرقية	١٣	١١	٢٧
اوروبا الغربية	٢٢	٩	١١
المجموع	٩١	٦٠	١٥١

ولو دققنا في النتائج لحصلنا على ما يلي :

١ - ان ٢٧ ٪ فقط من الذين درسوا في اوروبا الغربية تذمروا من المعاملة التي لافوها هناك في التمييز بين الاجنبي وزميله المواطن فذكروا بأن هناك تمييزا لمصلحة المواطن وذكروا بأن التمييز يكون موجها ضد العرب بصورة عامة . هذا وان المنافسة الصناعية على الوظائف المهنية تكون فيها الاولوية لمواطني البلد على الرغم من عدم تمتعه بكفاءة المنافس الاجنبي فدفعوا الى العودة للوطن ولو قدر لهم الحصول على عمل مناسب لكان العكس .

٢ - ان جميع الذين درسوا في الاتحاد السوفياتي ذكروا انه لم يكن في وسعهم البقاء في الاتحاد السوفياتي والاقطار الاشتراكية لان تلك الحكومات تشجع عودة هؤلاء حال انتهاء تعليمهم وذكر ٣٠ ٪ انهم كانوا يفضلون البقاء في بلدان دراستهم للتدريب بعد التخرج او الاشتغال في بلاد اخرى لو تسنى لهم ذلك .

٣ - ٢٤٪ من هؤلاء الذين درسوا في الولايات المتحدة لم يكن بوسعهم البقاء هناك لاسباب قانونية تتعلق بقوانين الهجرة الامريكية التي تحظر على من ينهي تعليمه وتدريبه البقاء والعمل اذا كان يحمل سمة دخول خاصة بالطلبة المبعوثين . خمسة عشر منهم ذكروا بانهم يفضلون البقاء في أمريكا ، اما للتدريب او للادخار ،وبعد ذلك العودة الى الوطن

وقد يكون سبب عدم عودتهم انهم درسوا في جامعات غير مشهورة ـ على حد رايهم ـ مما يؤدى لعدم ايجاد عمل مناسب لهم بمؤهلاتهم العلميـة التي يحملونها نسبة الى زملائهم من خريجي الجامعات المشهورة هناك وذكروا ايضا بان الوطن لا يميز بين خريجي الجامعات لذلك فهم متساوون بغيرهم من خريجي الجامعات المشهورة الاخرى ، سواء كانت اميركية او بريطانية او غيرها وبذلك تتوفر لهم فرص ملائمة لمؤهلاتهم العلمية .

وهناك ١٢ ٪ من هؤلاء درسوا في معاهد علمية شهيرة ومعروفة في اميركا وكان بامكانهم البقاء دون عراقيل لكنهم فضلوا العودة الى الوطن لاسباب اما مادية او اجتماعية او مالية وقد اجمع الخريجون على ان الفرص المهنية عموما والمتعلقة بالاختصاص بشكل خاص تتوفر لهم في الوطن اكثر من الخارج على شحة التسهيلات العلمية في الوطن والمتوفرة في الخارج .

مما تقدم يتضح بان الرغبة في البقاء في الخارج مشروطة بالعمل في حقل التخصص ترجع لدى المستفتين على الرغبة في العودة الى الوطن وهو في تقديري سبب مهم اخر لعب دورا في اتخاذ هذه الكفاءات لقرارها الحاسم في العودة حيث ان الذين درسوا في البلدان الاشتراكية لم يسمح لهم بالعمل فيها وان غالبية الدارسين في اوروبا الغربية عملوا اثناء الدراسة وبعد تخرجهم في اعمال لا تتعلق بتخصصهم . ثلاثة منهم فقط عملوا في وظائف تتعلق باختصاصاتهم وتحصيلهم العلمي ولكن برواتب اقل من اقرانهم من مواطني البلد . وان هناك شخصا واحدا فقط عمل براتب مساو لاقرانه من ابناء البلد ولكنه شعر بان مستقبله محدود لاسباب عديدة . كذلك نلاحظ ان الذين عملوا في مجالات تخصصهم في اميركا اثناء دراستهم شعروا بالغبن وانعدام العدالة الاجتماعية فيها مما دفعهم الى العودة ولكنهم ابدوا وجود الرغبة لديهم في البقاء المؤقت هناك اما للتدريب او لادخار بعض المال ليساعدهم في بناء حياتهم الجديدة في الوطن .

وثمة عامل اخر لعب دورا في تغريب الكفاءة او اعادتها ذلك العامل هو الحالة الزوجية وسأفصل ذلك مستعينا بالجدول التالي :

اميركا

العمر	غير متزوج	متزوج بدون اطفال	متزوج مع اطفال	المجموع
١٩ ـ ٢٤	١٧	٣	١	٢١
٣٥ ـ ؟	٣	٢٠	٢٤	٢٩
المجموع	٣١	٢٣	٣٩	٩٣

الدول الاشتراكية

العمر	غير متزوج	متزوج بدون اطفال	متزوج مع اطفال	المجموع
١٩ ـ ٢٤	١١	٢	٣	١٦
٢٥ ـ ٣٠	٢	٣	٥	١٠
٣٥ ـ ؟	ـ	ـ	١	١
المجموع	١٣	٥	٩	٢٧

اوروبا الغربية

العمر	غير متزوج	متزوج بدون اطفال	متزوج مع اطفال	المجموع
١٩ ـ ٢٤	١٢	١	٢	١٥
٢٥ ـ ٣٠	٤	٣	٣	١٠
٣٥ ـ ؟	٢	٢	٢	٦
المجموع	١٨	٦	٧	٣١

يتضح ان حوالي ٣٥٪ من مجموع المستفتين سافروا للدراسة في سن الرجولة المبكرة وهي السن التي تتراوح بين ١٩ ـ ٢٤ ومعظمهم غير متزوج ـ سبعة عشر منهم عادوا الى الوطن برفقة زوجات اجنبيات . واضافوا بأن الزواج بأجنبية قد زاد من تقصير حياتهم بعد عودتهم على الرغم من انهم اكدوا بأن زوجاتهم رحبن بالعودة معهم قبل الزواج . وان خمس حالات من المتزوجين بالاجنبيات انتهت بالطلاق . كما اجمع هؤلاء على ان عامل الزواج اثر على العديد من زملائهم وشجعهم على البقاء في الخارج كما أبدى ستة من هؤلاء ندمهم على زواجهم باجنبية واربعة اكدوا بانهم سعداء بزواجهم ولكنه كان افضل لهم لو بقوا في الخارج والبقية الباقية منهم اكدت بانهم لم يندموا على زواجهم من اجنبية . وقد اكد هؤلاء بأن زوجاتهم لم يخالفهن في قرار العودة بل ان بعضهن لم يرغبن في مغادرة العراق وبخاصة اللواتي اجتزن مرحلة التكيف او التعلم وهي السنة الاولى عادة . ويلاحظ من يطلع على نتائج الفئة الثانية وهي الوسيطة فئة الاعمار المتراوحة بين ٢٥ ـ ٣٠ ان ١٧ منهم اغتربوا عزابا عاد ١١ منهم متزوجين باجنبيات وجاءت نتائج اسئلتنا لهم حول البقاء في الخارج مشابهة لنتائج زملائهم من ذوي الاعمار المبكرة المتزوجين باجنبيات اما الـ (٤٦) الذين تزوجوا قبل مغادرتهم الوطن فقد ذكر (٢٢) منهم وهؤلاء هم الذين انجبوا اطفالا بأن زوجاتهم اصبن بداء الحنين الى الوطن مما ادى الى ضرورة عودتهم الى الوطن بأسرع وقت . واما حالة الاربع والعشرين المتزوجين الذين لم ينجبوا اطفالا فانها تختلف تماما اذ ان الزوجة عادة اصغر عمرا وبسبب من عدم انشغالها بالاطفال اختلطت بالمجتمع الجديد فأتقنت اللغة وواتتها فرصة العمل وشاركت زوجها في كثير من الفعاليات الجامعية مما الهاها عن الحنين الى الوطن على عكس زوجات الـ (٢٢) الاولى اللواتي لم تواتهن فرص الاختلاط واتقان اللغة والعمل في المجتمع الجديد ، لقد اكد هؤلاء بان زوجاتهم كن سعيدات في البقاء في الخارج بل وحاولن تشجيعهم على البقاء .

وهكذا نرى بأن الحالة الزوجية تؤثر على عزم المغترب وبصورة عامة يلعب السن دوره ايضا في ذلك لان صغار السن يسهل تكيفهم للحياة الجديدة على عكس زملائهم ممن هم اكبر سنا منهم ، ولدى استبيان ارائهم في الاسباب التي شجعت زملاءهم على البقاء والاسباب التي دعتهم وزملاءهم الى العودة اجمعوا على ان البقاء في الخارج يحقق الامتيازات التالية :

١ ـ محيط علمي اكثر تقدما يحفز على مواصلة البحث والتجريب وزيادة الخبرة .

٢ ـ الترقية والترفيع تعتمد بالدرجة الاولى على البحث المنتج والكفاءة الفردية .

٣ ـ ضمان الحرية السياسية او على الاقل احترام وجهات النظر المضادة وانتفاء الاضطهاد السياسي .

٤ ـ المستوى المعاشي الجيد الذي يحققه الفرد .

أما عن الاسباب التي تدعوهم الى التذمر من الحياة في الوطن كما يرونها :

١ ـ عدم الاستقرار السياسي .

٢ ـ الحواجز الاجتماعية .

٣ ـ شحة التسهيلات العلمية .

٤ ـ انخفاض المستوى المعاشي .

٥ ـ القيود المفروضة على المتزوج باجنبية .

وعن الاسباب التي تجبرهم على البقاء في الوطن فقد اكدوا :

١ ـ الروابط العائليـة .

٢ ـ تربيـة الاطفال تربية عربيـة .

٣ ـ الايفاء بالعقود التي ربطوا بهـا لمؤسسات الدولة .

٤ ـ الوسط الاجتماعي العربي .

٥ ـ المستقبل المضمون في الوطـن .

وحينما سئلوا عن اهم المشكل التي جابهوها بعد عودتهم افاد ٨٠٪ منهم بانها مشاكل السنوات الخمس الاولى المالية وصوبـات التأقلم مجددا في الوطن . ولكن المتزوج بأجنبية واجه صعوبة اكثر حيث ان الضغوط الاجتماعيـة والنفسـية في الكثير من الحالات كانت اشـد عليه من غيره ، كمـا اكد الجميع على ان المشاكل العلميـــة تزداد شدة يومـا بعـد يــوم ...

والملاحظة التي اود ان اسوقها هي ان ما تقدم بخصوص المغترب العراقي يصح تعميمه على المغتربين العرب لاسباب عدة أهمها انتماؤهم القومي الواحـد والتركيب الاجتماعي المتشابه والتطور السياسـي المتقارب . وهكذا يمكـن اجمال الضغوط التي يتعرض لهـا المغترب وتسبب تسربـه بالتـالي :

١ ـ الضغوط الاجتماعيـة .

٢ ـ الضغوط الاقتصاديـة .

٣ ـ الضغوط التكنولوجيـة .

الضغوط الاجتماعيـــة :

ان نظرة سريعة على المجتمعات القطرية العربية والقوى الفاعلـة فيهـا تكفي لان تهدينا الى جبهتين متصارعتين داخلهـا تحاول كل منهما ترويض الاخرى وجرهـا الى بساط الطاعة وهمـا تختلفان كمـا في القوة والعدد ونوعا في القيم والطموحات . هاتان الجبهتان هما جبهة الجيل القديم الذي تمترس في مؤسسات المجتمع الـى حـد التخمـة ممسكا بمقاليـد السلطة ، وجبهة الجيل الجديد ، النامي في قواعد المجتمع وخلايـاه والذي يشكل ذوو الكفاءات جزءا اساسيا فيــه باعتبارهم نتاجات الثقافة والعلم المعاصرين التي يتحصـن الجيـل الجديد بها . وممـا لا يقبل الجدل ان قيم الجيل القديم لم تخـرج من شق الارض بل تم استيرائها تقليديا ، وتبعـا لذلك يمكـن ارجاع جل القيم المتمكنة في المجتمعات العربيـة القطرية الحالية الى اصول قبلية تضرب في التاريخ الى مئات السنين . فمـا زال مبـدأ (انصر اخاك ظالمـا او مظلومـا) ساريـا في كثير من مجتمعاتنا ، مترتبا عليه عدم اتاحة الفرص المتكافئة ماديا ومعنويا امـام الجميع ، مما شكل ضغطا هائـلا على الكفاءات ودفعهـا الى الهروب من السـاحة بحثا عن مجتمعات اكثر انسجاما وراحـة تقيمهم كفائيـا على اسس علميـة محايدة بصرف النظر عن انتماءاتهم العائلية او الوطنية .

الضغوط التكنلوجية :

ينبغي الاعتراف سلفا باننـا فقراء تكنولوجيا وبخاصة في حقـل مستلزمات البحث العلمي ممـا يشل قدرة المتخصص على ترجمـة معرفته او كفاءته بشكل منجزات في حقل اختصاصه او تنمية مداركه العلميـة باجراء التجارب او الابحاث باستمرار ممـا يؤدي بالتالـي الى قتل الكفاءة العلميـة التي يتمتع بهـا المتخصص ويدفـع به الى الالتجاء الى المعاهـد والمؤسسات الاجنبية التي توفر لـه ذلك . هذا اذا صرفنا النظر عن فقر مكتباتنا وشحوب علاقاتنـا المكتبيـة فـي الخارج وعدم توفر الحوارات العلمية بين ذوي الاختصاص الواحد في الوطن وانقطاع العلاقات العلميـة التي تساعد على التعريف بالمنجزات العلميـة وعدم وجود حياة علمية نشطة .

الضغوط الاقتصاديـــة :

مما لا ريب فيه ان العامل الاقتصادي يلعب دورا مهمـا في هذا المجال على الصعديـن العام والفردي . فعلى الصعيـد العـام يتمثل في ضغطه على المؤسسة التي يعمل فيها المتخصص والتي غالبـا مـا تقع ضحيـة شرك الروتين الحكومي ، فتتحول من مؤسسة علميـة متخصصة منتجـة الى مؤسسة شأنهـا شأن المؤسسات الاخـرى البيروقراطية في الدولة ، حيث ان رصـد الاعتمادات المالية لتمويـل الابحاث وشراء التجهيزات العلميـة وتكاليف حضور المؤتمرات العلمية وايفاد المتخصصين ، عمليات مهمـة للمحافظة على المستويات العلمية للمتخصصين وحمايـة كفاءاتهم . أمـا على الصعيد الفردي فكان انشغال المتخصص بالركض وراء تأمين مستلزمـات حياته وحيـاة افراد عائلته ووقوعه في شباك الديـون المالية والتفكير بايفائها سواء ما كـان فيها لافـراد المجتمع او مؤسسات الدولة ، غالبـا ما يصرف ذوي الكفاءات عن تفرغهم لتطويـر مستوياتهم ومتابعـة دراساتهم مما يؤدي وبالتالي الى عدم انتفاع المجتمع منهم .

* * *

لقد حاولت خلال الفقرات الثلاث السابقـة ان اصنف منافـذ الكفاءات الى الخارج بايجاز ، ولكـن قد يخطر على البال ان الحـل الاساسي هو تغير المجتمع العربي جذريـا بدءا بعلاقات الانتاج وانتهاء بالنظام القيمي باعتباره بناء فوقيـا يترتب على القاعدة السابقـة . وهذا صحيح ، الا ان هذا يشكل الطموح النهائي . وما التنبـه الـى مشـكلة اغتراب الكفاءات العربية وضرورة جذبها وحمايتها الا سـطح واحد لهذا الطموح سيساعد بلا شك في اسوأ الاحوال على تسريـع الساعة لصالح موعد التغير .

نعود الى السؤال الثاني الذي شرحناه في البدايـة عن قطعيـة وكمال التشريعات التـي خصصت لهذا الفرض . وللجواب اعـود الى البديهيـة العلميـة التي تقـول بعدم وجود الكمال في غير المخيلة او كمـا عرفناها ورضعناها مع الحليب في الوطـن وهي (لا كمال لغير الله) . لقد نصبت التشريعات على معالجـة سطح واحـد لاحد العوامل الثلاثة السابقة ، وقـد طرح بشكل غامض تقريبا ، وهو العامل الاقتصادي الخاص بالفرد ذي الخبرة . وعلى الرغم مـن ان التسهيلات الماليـة المسطرة فيها هي ديون تسترد منـه خـلال فترة خدمته ، كانهـا ليست كافيـة لضمـان مستوى الحياة الذي كان عليه خلال لفترة مكونه خارج الوطن . قد يختلف البعض معي في هذا الرأي ، ولكـن الا يعتقـد هؤلاء ان المعالجـة الاحاديـة الجانب سلبية وذات مردودات عكسـية في غالب الاحيان ؟ انني اعتقـد ان ايـة معالجة لهذه المشـكلة ينبغي ان تكـون شمولية ، وفي تقديري انه لا بـد من اجراء تعديلات شاملة في القوانين عموما او ـ على الاقل ـ تعديـل الفقرات القانونية المتصلة بالوسط الثقافي عموما .

اجراءات لتخفيف الضغوط الاجتماعية :

١ ـ ضمـان الحرية الاكاديمية داخل الجامعات والمعاهد العربية ، وذلك بان تمنح حق ادارة نفسـها وتقرير الامور العلمية والماليـة الخاصة بها ، على ان يرسخ ذلك ويصبح تقليدا عامـا وكي يؤتى ثماره على المدى البعيـد .

قد يقال ان ذلك مضمون قانونا في بعض البلاد العربيـة . ولكن ما هو مدى احترامه وتطبيقه من قبل المؤسسات العليا ؟

٢ ـ تؤلف لجان متخصصة للنظر في الخلافـات التي تنشأ بين

المؤسسات العلمية من جهة والدولة من جهة اخرى ، واعني باللجان المتخصصة ان يكون اعضاؤها ذوي اختصاص علمي بشأن موضوع الخلاف ، سواء في الادارة او الاقتصاد او ادارة الابحاث او التخطيط لها في المستقبل .

٣ ـ يكون رأي اللجان المتخصصة معولا عليه في تقرير المسائل الفنية التي تعنيها سواء ما كان منها في الوزارات او مؤسسات التخطيط والاقتصاد .

٤ ـ تؤلف لجنة متخصصة للاشراف على شؤون الافراد في حقل الترقيات العلمية لتقيم منجزاتهم .

٥ ـ ان تحقيق الشروط السابقة قانونا وادارة ليس كافيا اذ لا بد ان ترافق ذلك حملات تثقيفية تنشر مبادىء الادارة الحديثة واساليب مواجهة المشاكل الحاصلة مواجهة علمية بين ذوي الشأن في المؤسسات والهيئات ونشر احترام العلم والكفاءات المتخصصة بينهم، وتعلم الابتعاد عن العصبية الفردية والفئوية والسياسية عند بحث الامور . وكذلك نشر احترام الكفاءة العلمية والتخصص العلمي .

٦ ـ نشر الوعي السياسي القومي بين تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات ، الذين سيكونون خبراء وكفاءات المستقبل سواء اكانت كفاءات مهاجرة او مستقرة . وينطوي تحت ذلك شرح مشاكل التخلف الاقتصادي والاجتماعي التي يعانيها منها الوطن العربي وتبيان الحاجة الماسة الى الكفاءات العلمية والخبرات لمواجهة تلك المشاكل . ذلك بالطبع يتطلب التركيز والالحاح على مشاكل التنمية وضرورة مواجهتها بالعلوم المتخصصة وحاجة الوطن الام الى المتخصصين في ذلك ، حتى يصبح هذا هو تصور التلاميذ السائد لمهمتهم في المستقبل وينمي لديهم ارتباطهم بالوطن العربي وبمشاكله ومستقبله .

اجراءات لتخفيف الضغوط التكنلوجية :

ان اعتماد خطة شاملة للنهوض بالجامعات ومؤسسات البحث العلمي وهيئات التخطيط القائمة في وطننا امر غاية في الاهمية ، ولا بد ان تشمل هذه الخطة النقاط التالية :

١ ـ بناء مكتبة علمية شاملة ووافية لكل جامعة او معهد علمي تحوي الكتب والنشرات العلمية والمجلات الهامة التي تصدر باللغات الاجنبية الرئيسية (انجليزية ـ روسية ـ المانية ـ فرنسية) . واذا لم يتوفر بناء مكتبات شاملة مستقلة لكل جامعة او معهد لاسباب اقتصادية وتنظيمية فلا بد ـ على الاقل ـ من بناء مكتبة واحدة من هذا النوع المتكامل في كل مدينة رئيسية في كل قطر (مثلا .. بغداد ـ القاهرة ـ الاسكندرية ـ دمشق ـ طرابلس ـ الموصل .. وهكذا) حيث تخدم تلك المكتبة كل الجامعات والمؤسسات العلمية والحكومية القائمة في المدينة المعينة .

٢ ـ تكملة لخدمة المكتبات المحلية المذكورة لا بد من اقامة اتفاقات تبادل واستعارة بين المكتبات المحلية في حالة عدم توفر مرجع او مقال علمي معين لديها .

٣ ـ تمد الجامعات ومعاهد الابحاث ـ وبسخاء ـ بما تحتاجه من تجهيزات علمية ومعامل سواء ما كان منها للتدريس او للبحث .

٤ ـ نرى ان يستعان في تحليل النقاط السابقة بخبرة بعض الجامعات والمعاهد العلمية المتخصصة في البلاد المتقدمة .

٥ ـ ان الاخذ بمبدأ الاجازة العلمية بالنسبة لاعضاء هيئة التدريس بالجامعات والباحثين ورجال الادارة في المؤسسات الكبرى امر مهم واعني منح الباحث سنة كل ست سنوات خدمة مثلا كاجازة علمية بمرتب كامل يقضيها في احدى الجامعات او معاهد البحث في الخارج ، لكي يطلع فيها ويتعرف على مستوى البحث والعمل في المؤسسات العلمية المتقدمة بالخارج . ان هذا النظام مأخوذ به في كثير من البلاد المتقدمة ، واعتقد ان بلادنا العربية هي اكثر حاجة لمثل هذا النظام باوضاعها العلمية الراهنة .

٦ ـ عقد اتفاقات ثقافية بين جامعاتنا ومعاهدنا وبين جامعات ومعاهد متقدمة بالخارج تضمن تبادل المدرسين والباحثين في الفروع المختلفة . وكذلك للاستعانة بخبرتها في تخطيط برامج التدريس وخاصة برامج الدراسات العليا وكذلك الاتجاهات العامة للابحاث في بعض فروع العلم .

٧ ـ انشاء معاهد دراسات وابحاث متخصصة في الاوجه التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية ذات الاولويات بالنسبة للقطر العربي مع الاخذ بنظر الاعتبار حاجة الوطن العربي عموما . على ان يراعى تجهيزها تجهيزا سليما في ناحية الخدمات المكتبية والمعامل واتصالها بالمعاهد الاجنبية القابلة كما مر سابقا .

٨ ـ انشاء معاهد مسائية تهتم بقضايا التعليم المستمر وتقدم دراسات فصلية في المواضيع العامة التي تهم عامة الشعب ، وكذلك في المواضيع الرئيسية والمستجدة التي تهم العاملين في المؤسسات وترفع من مستواهم المهني ادارة وهندسة وتعليما وغير ذلك ، على ان لا تكون من مهامها منح الدرجات العلمية لخريجيها حيث يترك ذلك للجامعات والمعاهد الرسمية .

اجراءات لتخفيف الضغوط الاقتصادية :

١ ـ تخصيص ميزانيات كافية لتمويل الابحاث وما يلزمها من تجهيزات استثنائية للمؤسسات وللباحثين انفسهم ، وكذلك تمويل اية ابحاث اخرى تساعد في اثراء دراسات الباحثين في مجالات تخصصهم .

٢ ـ تيسير الاجراءات ورصد المال لسفر المتخصصين لحضور المؤتمرات العلمية العالمية وتشجيع ذلك بكل الطرق . حيث ان المؤتمر العلمي يمثل اكثر الطرق اقتصادية للاطلاع على التقدم العلمي العالمي في مجال التخصص .

٣ ـ توفير المال للرحلات العلمية . وكذلك توفير المساعدات للطلبة الفقراء لشراء الكتب اللازمة لمتابعة المحاضرات .

وذلك حتى لا يضطر المدرس الجامعي اثناء محاضرته الى املائها عليهم، مما يضيع وقت المحاضر بدون طائل ، ويقلل من الوقت الباقي للتوجيه العلمي والشرح .

خاتمة :

يبدو من مطالعة هذا التقرير ان الاجراءات المقترحة لتخفيف مشكلة هجرة العقول في الوطن العربي هي ذات طابع شمولي وغالية

التكاليف ، ذلك صحيح ، ولكن لا بد من القول ان عودة بعض الخبرات العربية المهاجرة وتشجيع الخبرات المقيمة على البقاء في الوطن الام سيكون فقط احد المردودات الكثيرة فيها ، كما سيكون لهذه الاجراءات اذا نفذت باجتهاد ورقة واستمرار ـ اثر حاسم في تطوير وتقدم المؤسسات العلمية والاقتصادية القائمة ، وانشاء مؤسسات جديدة على اسس علمية سليمة . بل وفتح الباب لنهضة علمية عربية اضافة الى انها توظيف بعيد المدى للمال والجهد ليس في مجال عودة العقول المهاجرة الى الوطن فقط وانما في مجال اسهام عربي مبرمج وفعال في الحضارة الانسانية ايضا .

ملحق :

لقد حاولت فيما تقدم الايجاز في المعالجة وعلى الرغم من معرفتي بوجود بعض المقترحات التي اشرت اليها قيد التنفيذ في بعض الاقطار العربية الا انني اعتقد جازما انها لم تتبلور بعد . لذلك فان الالتفات الى تحصينها وتطويرها امر في غاية الاهمية . كما ان الاتجاه الجدي الى التعليم واعادة النظر في مناهج مختلف المراحل الدراسية بما يتوافق والمبادىء القومية وحاجة خطط التنمية القطرية والقومية والاهتمام بتدريس اللغات العالمية وبخاصة (الروسية ، الانجليزية ، الالمانية والفرنسية) والتشديد عليها باعتبارها لغة العلم المعاصر ، عوامل مساعدة في خلق نهضة عربية علمية .. هذا اضافة الى اصدار مجلات علمية متخصصة باللغات العالمية او تاسيس دار نشر عربية باللغات العالمية مهمتها الرئيسية نشر الابحاث والكتب العلمية .

وفي الختام لا بد من الاشارة الى اهمية احتضان الطلبة العرب غير المرتبطين بعقود مع حكوماتهم وتقديم التسهيلات المساعدة على اكمال دراستهم وضرورة تمتين ارتباطهم بالوطن عن طريق اطلاعهم على احداثه وتطوراته وتسهيل او تخطي الروتين الحكومي لدى تمشية معاملاتهم عامة ، لا كما هو عليه الان في معظم ممثلياتنا في الخارج ، مما سيخلق رد فعل حسنا لدى الطالب لانه يملك عقلا مغارنا بنتيجة حياته في مجتمع اكثر تطورا . هذا اضافة الى الضغط والمعاناة النفسيين اللذين يعيشهما الطالب العربي المغترب بفعل التضاد بين طموحاته وواقع الحياة الجديدة ومتطلباتها العالية وبين ما يمتلكه في الواقع من مساعدات وفرص عمل يسيرة لخدمة الوطن .

د . طارق يوسف اسماعيل

استاذ العلاقات الدولية بقسم العلوم السياسية

في جامعة كالجاري بكندا

د . علي عيسى عثمان

التربية وتنمية الموارد البشرية في البلاد العربية

تغني المواضيع المدرجة في برنامج هذا المؤتمر عن الدخول في بعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع بالذات ، وبذلك يفسح المجال في الوقت المحدد لهذا الموضوع التركيز على حال التربية العربية وعلى بعض جوانب الواقع التي تعمل فيه ، ثم على بعض الافكار لتطويرها لتصبح قادرة على تأدية دورها في تنمية مواردنا البشرية .

وسأعرض كذلك عن الجوانب الكمية لحال التعليم واقتصر على واقع نوعية التربية السائدة في بلادنا لان هذا هو موضوع الساعة من ناحية ولان نوعية العقلية ونوعية الصفات الشخصية المطلوبة في عمليات التنمية هي التي تعطي للاعداد المطلوبة من مختلف الكفاءات والمهارات في مجالات التنمية الفروق الحاسمة في ابداعها وانتاجيتها .

واهتمامات التربية في اقترانها بتنمية الموارد البشرية تشمل جميع الناس : جميع العاملين منهم بكل فئاتهم ومستوياتهم ، وكذلك جميع الذين يمكن ان يعملوا لجعل هؤلاء جميعا اكثر كفاءة واصدق استعدادا للقيام بواجباتهم وبادوارهم في عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبذلك تشمل التربية في اهتماماتها جميع الكبار وجميع الصغار .

اما بالنسبة للكبار فالتربية العربية تردهم من حبث حاجاتهم التربوية والتدريبية الى الفئات التالية :

الفئة الاولى : وتشمل جماهير الشعب الذين لم يحصلوا على الحد الادنى من المعارف والمهارات اللازمة لهم للقيام بادوارهم الاقتصادية والاجتماعية في عمليات التنمية .

الفئة الثانية : وتشمل الذين حصلوا قدرا من التعليم (أي اتم اكثرهم المراحل العليا من التعليم المدرسي) لكن هذا التعليم لا يصلح لاستيعابهم الا في مجالات محدودة في عمليات التنمية فيحتاجون الى تدريب متخصص يهيئهم للاستيعاب .

والفئة الثالثة : وهم الذين تخرجوا من المعاهد العليا او من الجامعات .

اما بالنسبة للفئة الاولى من الكبار فتوهمت التربية في بداية اهتمامها بهم ان محو اميتهم سيخلق الصلة اللازمة بينهم وبين ما يحتاجون ه نمعارف وبهذه الصلة سيتطورون تطورا ذاتيا يجعلهم اكثر كفاءة للقيام بادوارهم في عمليات التنمية لم استبدلت هذه المحاولات بما يسمى بالتعليم الوظيفي لهؤلاء الكبار . ي شد الناس الى حب التعلم لان مضمون هذه التعلم يستمد من حاجاتهم الاقتصادية والاجتماعية وتحاول هذه التربية استغلال مختلف الوسائل والحيل التي توصلت اليها التكنولوجيا التربوية كما تحاول تدريب العاملين للعمل مع هؤلاء ، كل ذلك لاحداث التغير المطلوب في ممارستهم وتقاليدهم المتوارثة بغية بلورة كفاءاتهم ان كان ذلك في ادوارهم الاقتصادية او في الزراعة او في الاعمال المهنية الاخرى ، او في ادوارهم الاجتماعية كاباء وامهات ومواطنين وغير ذلك .

ولكن هذه المحاولات لا تزال ضيقة في شمولها وبدائية في خيالها وقد يكون ذل كللاسباب التالية :

اولا : ان نظرتنا الى جماهيرنا لا تزال تتارجح بين تردد غير المكترث لمصير هؤلاء وبين ضغوط التخلف وما يترتب على هذا التخلف من تخوفات داخلية واستغلال خارجي .

ثانيا : ان معرفتنا لجماهيرنا معرفة سطحية والدراسات التي يمكن ان تسعفنا في هذا المجال قليلة جدا وغير كافية . فلا نعرف الكثير عما تتوارثه جماهيرنا من عقلية تنعكس في معتقداتهم وممارساتهم وفي عاداتهم وتقاليدهم ، وبالتالي لا نعرف كيف تخاطب هذه العقلية ونتفاعل معها .

ثالثا : وعندما تتوفر لدينا هذه المعرفة او بعضها يعوزنا الخيا لفي وضع البرامج القادرة على شد اهتمامات هذه الجماهير والتأثير فيها .

لم تعد الامكانات المالية هي العقبة في كثير من الدول العربية ، وحتى ارادة المسؤولين في بعضها لم تعد هي العقبة . لكن كيفية الوصو لالى جماهيرنا بالتاثير الفعال عن طريق العاملين او المرشدين او عن طريق الوسائل الاعلامية هي المشكلة الكبرى ، فتدريب العاملين ما زال غير مرتبط ارتباطا وثيقا بواقعنا الاقتصادي والاجتماعي او بعقلية جماهيرنا ، وانتاج الوسائل التعليمية لا يزال اما بدائيا او حتى غير موجود . ومع حرصنا على استغلال اخر ما توصلت اليه التكنولوجيا التلفزيونية فلم تنتج الافلام الملائمة لرعاية اطفالنا ولمعالجة مشاكلنا الصحية والزراعية وخاصة المستمدة من واقع مجتمعاتنا المتخلفة ليرى فيها المشاهد او المشاهدة مراة لنفسه ولممارساته .

اما بالنسبة للشباب الذين نالوا قسطا من التعليم المدرسي ، أي الفئة الثانية من الكبار ، فارى ان نجمع اليهم فئة الشباب الذين فاتهم التعليم المدرسي والذين تسربوا منه في مرحلة مبكرة . هؤلاء جميعا يعدون بمئات الالاف (او حتى بالملايين اذا اخذنا المجتمع العربي ككل) . لا تستطيع مؤسساتنا التدريبية الموجودة الا استيعاب عدد قليل جدا من هؤلاء ويبقى اكثر هؤلاء قوة معطلة مع ازدياد حاجاتنا الى الكفاءات والمهارات المتوسطة . وفي رأيي ان درجة التنمية ستتوقف الى سنوات عديدة على السرعة في تدريب هذه الفئة من صفار الكبار

وانتقل الى التعليم العالي اي الى الفئة الثالثة اعلاه ، ولي هنا بعض الملاحظات وسأتناولها بايجاز شديد . واعتقد اننا جميعا احسسنا بها .

الملاحظة الاولى : تتعلق بعدم ارتباط تعليم الجامعيين بواقع مجتمعنا في ابعاده المختلفة . يمر الشاب في مراحل التعليم المدرسي والجامعي ويكاد يخرج منها اميا بالنسبة لواقعنا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

الملاحظة الثانية : تتعلق بالنوعين الموجودين بين المثقفين : نوع ينتمي الى علماء الدين ، لم يدخل في تعليمهم الا القدر اليسير من المعارف والعلوم الحديثة ونوع ينتمي الى المثقفين الذين لم يدخل في تعليمهم الا القدر اليسير من ثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا . فكيف نطور فلسفة مشتركة لتنمية مجتمعاتنا ونطلق طاقات الانسان فينا ولا تزال هاتان الفئتان من علمائنا ومفكرينا غرباء عن بعضهم البعض تختلف الصورة التي تريدها كل فئة للانسان والمجتمع عن تصور الفئة الاخرى؟

فكيف يمكن لهذه الثقافات المختلفة استخلاص ما نشأ وتطور في حضارتنا من قيم عليا من ناحية ، واستيعاب ما توصلت اليه المعارف والعلوم البشرية واستيعاب تجارب الامم الاخرى من ناحية اخرى ؟ اي كيف تلتقي حضارتنا نفسها وحضارات الامم الاخرى في شخص المفكر والعالم الواحد فينا وما هو دور الجامعات وما هو دور الدراسات والابحاث في ذلك ؟ ثم كيف يمكن ان تتغلغل نتائج ذلك في جميع المراحل التعليمية ؟

والملاحظة الثالثة : تظهر في العمل والتطبيق ، أي عند الحاجة الى القدرة على ادراك الواقع وادراك ما فيه من ابعاد وامكانات ، والقدرة على تصور كيفية تحريكه نحو اهداف الامة وغاياتها . وهذه القدرة تستلزم وجود صفات عقلية وفكرية وخلقية كان يجب ان تتأصل في النفس في مراحل التعليم الدنيا والعليا . لكن المطلع على سلوك اكثر العاملين في المواقع القيادية والاستراتيجية في عمليات التنمية من قادة سياسيين واداريين وعلماء وفنيين يرى ان هؤلاء جميعا بحاجة الى الخيال والابداع اللازم لتكييف الافكار السائدة في التنمية وتطبيقها .

والان انتقل الى التربية المدرسية : اي الى تربية المنبع الأول للموارد البشرية . وتبرز هنا قضيتان خطيرتان بالنسبة لتنمية الموارد البشرية .

القضية الاولى : هي ان حظ اعداد هائلة من اطفالنا – ما زالوا اكثرية في بعض البلاد العربية – من التعليم المنظم لا يزيد على ست او سبع سنوات وسيدخل هؤلاء بعد بضع سنوات من تسربهم من المدرسة السوق الاقتصادية والسوق الاجتماعية : أي العمل للذكور والعمل والزواج للبنات . أي أن هؤلاء يدخلون فئة الكبار المنتجين الفعالين في المجتمع بعد سبع سنوات من التعليم المنظم فقط .

هذه حقيقة . ولكن ما هي اهمية هذه الحقيقة للتربية ولتنمية هذا المورد البشري ؟ او بعبارة اخرى : هل احست التربية وهل احس المخططون لتنمية الموارد البشرية بحاجات هذه الفئة لدخولها في فئة العاملين في تنمية المجتمع . الجواب هنالك بعض المحاولات لتعليم الراغبين منهم – وهم قلة قليلة بالنسبة الى اعدادهم – تعليما يختلف عن التعليم المدرسي . لكن ما هي المعارف وما هي المهارات التي يستطيعون اكتسابها والتي يجب ان تتوفر لهم لرفع كفاءاتهم في مجالات العمل ولتحسين ادوارهم كآباء وامهات ومواطنين ؟ وما هي المناهج الصالحة لتحقيق ذلك : فهذا سؤال لم يطرح بالجدية الكافية بعد .

والقضية الثانية : تتعلق بالاولى وتنتج من ترابط المراحل التعليمية الاكاديمية ، كل مرحلة منها مصممة لتهيء الطفل للمرحلة التي تليها في سلم التعليم . وكل هذه المراحل مصممة لتصب في التعليم العالي . فاذا لم يتيسر للطفل الترفي من مرحلة الى مرحلة ، اضطر للخروج من التعليم المنظم باحساس من الشل يحطم كرامته واحترامه لنفسه وقد يقتل آماله وتطلعاته . فما هي المجالات التعليمية والتدريبية التي يجب ان نفسح لهؤلاء ليحتفظوا بكرامتهم الشخصية من ناحية ، وليكونوا منتجين فعالين في عمليات التنمية من ناحية اخرى ؟

هنالك بدايات في تنويع التعليم المدرسي الثانوي لاستيعاب امثال هؤلاء . ولكن هنا ايضا لا تستوعب هذه الا الفئة القليلة منهم من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا ترتبط المناهج المصممة لهم ارتباطا وثيقا بحاجاتهم في المستقبل .

والان نظرة عامة في المدرسة العربية ككل . لا شك ان المدرسة كانت من اكثر العوامل فعالية في التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي حدث في البلاد العربية في هذا القرن . ولكن ليس هذا مجال بحث ذلك . فالذي يعنينا هنا هو نوعية الانسان الذي تخرجه المدرسة العربية ، وهل نجحت المدرسة في تربية تلك الصفات العقلية والفكرية والواجدنية والخلقية التي تعكس نموا سليما متكاملا للانسان ؟ وهل نجحت في تنمية المهارات الاساسية ليعيش هذا الانسان عيشة راضية في هذا العصر ؟ وهل نجحت في تأصيل الانتماء الحضاري والقومي في ابنائنا وبناتنا مع اختلاف خلفياتهم وبيئاتهم ؟ وهل نجحت في تحريرهم بدلا من تدجينهم في البنيات السياسية والاقتصادية القائمة ؟.

هذه الاسئلة وما ارتبط بها من اسئلة اخرى هي اليوم ما يشغل بال المربين . فلا شك ان اكثر البلاد العربية مستاء من نتاج المدرسة العربية الحالية ، وامام هذه الاسئلة وما شابهها ، بل وامام تحديات التخلف وامام المخاطر التي تتعرض لها الامة العربية ، تقف هذه البلاد الان وقفة ناقدة لواقع التعليم المدرسي ، وتطرح تساؤلات جذرية حول ما ينبغي ان تصير اليه التربية المدرسية . فبعد ان اطمانت هذه البلاد الى توفير التعليم المدرسي الاكثر صارت نوعية التربية هي القضية الكبرى في هذا التعليم . التعليم .

ومن عجيب امرنا انه مع كثرة الجامعات وكليات التربية ومعاهد تدريب المعلمين ، فان الدراسات التي تبين طبيعة نتاج التعليم المدرسي ، او الدراسات التي تبين واقع التعليم المدرسي والابعاد الحضارية والاجتماعية التي تجعله كما هو عليه ، والدراسات التي يمكن ان تسعفنا ونسترشد بها في تطوير نوعية التربية ، تكاد تكون معدومة .

هنالك ارادة جدية لتغيير واقع التعليم المدرسي . ولكن ما هي خلفيات هذا الواقع وابعاده ؟ ولماذا هو كما هو ؟ ثم كيف يمكن تحريكه ؟ والى أين يجب ان يتجه ؟ وما هي الانظمة التربوية وما هي الوسائل البشرية والوسائل المادية اللازمة لذلك ؟ هذه هي بعض الاسئلة الكبرى التي يقتضي التغيير توضيحها .

وبهذه المناسبة فان هذا البلد – في دولة الكويت – مركزا للبحوث التربوية من بعض مهماته معالجة هذا النوع من الاسئلة اتوقع ان تكون له آثاره الايجابية في تطوير نوعية التربية المدرسية .

ولا استطيع أن ادعي انني اعرف اثار التعليم المدرسي في اطفالنا معرفة علمية ، وكذلك لا استطيع ان ادعي ان ما ينبغي ان تصير اليه التربية المدرسية العربية واضح كل الوضوح عندي . فهذا الوضوح يقتضي تعاون الفلاسفة والمفكرين والعلماء الاجتماعيين والمربين ، ولكن سأحاول طرح بعض الخلفيات التي تؤثر في واقع التعليم تأثيرا مباشرا وذلك في سبيل توضيح الرؤية امام الذين سيقع على عاتقهم تطوير التربية العربية .

ولا اتناول في هذه المحاولة ما هو من فنيات توضيح هذه الرؤية : اي ما توصلت اليه المكتشفات السيكولوجية عن طبيعة الطفل ومراحل نموه وطبيعة تعلمه ، او ما توصلت اليه التربية حول مضمون التعليم لمراحل نمو الطفل وحول خير الاساليب والممارسات والنشاطات اللازمة لتوفير الجو التربوي المطلوب ولكن سأقتصر على ذكر بعض الخلفيات الحضارية والاجتماعية التي اعتقد ان لها علاقة مباشرة بجعل واقع التعليم كما هو عليه .

اولا : النزعة نحو الكمال : في عقليتنا نزعة قوية نحو وضع نظام كامل ونهائي لما نريد تطويره . فاذا وضعنا سياسة تربوية او مناهج او كتبا مدرسية او برامج لتدريب المعلمين وغيرهم من القوى التعليمية نتوقع من انفسنا ان نضع كلا من هذه الاجزاء وضعا محكما وكاملا . فلا نترك لتطور المعرفة او للتجربة ابوابا تدخل منها وتتسرب لتغيير ما وضعناه ونسمع بالمعرفة الجديدة ونمر بالتجارب الكثيرة ولكن استمرارية النظام الذي وضعناه تبقى اقوى من ان تنفتح لهذه المعرفة وتلك التجارب ، الى ان تقوى الضغوط على تغيير النظام فننتقل الى وضع نظام جديد مغلق اخر وهكذا .

ثانيا : الهرمية في التنفيذ : التجارب المباشرة في التطبيق هي التي يمر بها المعلم وهي التي يمر بها التلاميذ . وهي التي لا يحس بها المسؤولون عن تطوير التربية احساسا مباشرا . وقنوات التغيير هي القنوات الادارية من الاعلى الى الاسفل : اي من الذين لا يباشرون التنفيذ الى الذين يباشرونه ولان المعلم يرى تطوير دوره في العمليات التعليمية التربوية من خلال تحسسه لما يرضى المسؤولين فان وعيه لتجاربه الشخصية ولاهميتها في تطوير مضمون ما يعلم او تطوير اساليبه في تعليم ذلك المضمون يكاد يكون معدوما عند اكثر المعلمين ولان تحسس المعلم في ارضاء رؤسائه اهم في مصيره نتيجة واقعنا الاداري من تحسسه لمقتضيات وظيفته التربوية ، فالجو السائد في مدارسنا هو التزلف نحو هؤلاء الرؤساء والتقرب اليهم بعلاقات شخصية .

ثالثا : النمو الذاتي : التجربة الشخصية لا نعي اهميتها في النمو المهني ، وكذلك لا نعي اهمية القراءة والاطلاع في هذا النمو . واسباب ذلك كثيرة منها ما ذكرناه عن الادارة الهرمية ومنها ان القراءة في حد ذاتها اقترنت بالالات والمخاوف والمعاناة التي اقترنت بمراحل نمونا كتلاميذ ومواجهتنا للامتحانات الحاسمة في حياتنا كانت القراءة مرتبطة في تلك المراحل بحفظ الذي يفرض علينا للنجاح في الامتحانات . وصار الخروج من التعليم المنظم هو التحرر من هذا الفرض . فالرؤساء لا يقرأون ، وبالتالي لماذا يقرأ المعلمون ؟

النتيجة هي ان مضمون التعليم يتقلص عند المعلمين الى تعلم المطلوب بغض النظر عن اهميته في حياة الاطفال او حاجاتهم في النمو المتكامل ، وارتباطه بواقع مجتمعهم .

رابعا : مفهوم العلم وموضوعه : ويقترن بهذه الاتجاهات والممارسات مفهوم للعلم توارثناه من قرون الانحطاط الحضاري . سادت اهمية الفقه على المعارف والعلوم الاخرى في هذه القرون لاهمية الفقه في سلوك المسؤولين ولاهميته في حياة الناس اليومية ومعاملاتهم . وبذلك صار الفقيه ذا مكانة خطيرة في المجتمع .

اما موضوع الفقه فبطبيعته يجب ان يكون مقننا ، وعلى طالبه ان يحفظه لانه دائما عرضة للسؤال ، واجوبة الفقيه يجب ان تكون صحيحة ومحددة .

والذي يسود في مدارسنا اليوم يعود في جذوره الى هذا التراث . والعلم موجود في الكتب المتفق عليها والمقررة ، ودور المعلم في التعليم هو شرحها وتلقينها ، ودور المتعلم هو حفظ ما فيها وتذكره عند الطلب . وجاءت اهمية الامتحانات في انظمتنا واساليب كتابة الكتب المدرسية لتؤكد هذا التراث وتعززه .

خامسا : العلاقات الانسانية في المدرسة : التربية الحديثة واساليبها تعتمد على وجود علاقات ديمقراطية بين المعلم والتلميذ ، علاقات تعكس من ناحية المعلم احتراما حقيقيا لشخص الطفل واحتراما حقيقيا لحاجاته كانسان في مراحل نموه الاولى والاساسية ومن ناحية الطفل اطمئنانا بانه انسان محترم له الحرية في التعبير عن حاجاته وتساؤلاته دون تخوف من عقاب .

ولكن ما هو واقع هذه العلاقات في المدرسة العربية ؟ وكيف تؤثر في تكوين اطفالنا في اتجاهاتهم نحو انفسهم ؟ وفي اتجاهاتهم نحو صاحب السلطة ؟ وفي اتجاهاتهم نحو العمل والقيام بالواجب ؟ وفي اتجاهاتهم نحو العلم والمعرفة ... الى اخره ؟ لا نستطيع ان ندرك اثار المدرسة في اطفالنا ما لم ندرك اثار هذه العلاقات في نمو اطفالنا وتكوين صفاتهم اللازمة لشخصيتهم .

من اين جاء المعلم باتجاهاته نحو الصغار وكيف اكتسبها او قد نبحث هنا عن العلاقات بين الكبار والصغار والعلاقات بين من هم في موقع السلطة ومن هم في موقع الخضوع لها للجواب على هذه الاسئلة ولكن لا نستطيع تطوير التربية المدرسية وخاصة في تدريب المعلمين ما لم تتضح لنا هذه الاجوبة .

هذه بعض الخلفيات التي لا نستطيع ان نهملها اذا اردنا للمدرسة ولغيرها من المؤسسات التربوية ان تصير اداة فعالة في تنمية وتربية العنصر البشري القادر على مواجهة تحديات هذا العصر ومخاطره .

ومع ذلك فعلينا ان نسأل : هل تكفي دراسات الباحثين والعلماء اللازمة لتطوير التربية العربية ؟ وهل يكفي تفكير الفلاسفة والمفكرين لتحديد غاياتها ؟ وهل يكفي ابداع المربين وخيالهم لترجمة ذلك الى انظمة تعليمية تربوية قادرة على تحقيق تلك الغايات والاهداف ؟

الجواب في واقعنا السياسي والاداري هو ان هذه الجهود — وان كانت اساسية لا تكفي وحدها لتطوير واقع التربية . بل يعتمد التطوير المطلوب الى درجة كبيرة على تفهم وارادة من يملكون القدرة على اتخاذ القرارات الكبرى للتغيير ويملكون القدرة على توفير الامكانات اللازمة لهذا التغيير ان كانت مالية او تنظيمية (بانشاء المؤسسات اللازمة للبحث والتطوير) . فما لم يمتد الاحساس بضرورة التطوير ووضوح الرؤية في ما ينبغي ان تصير اليه التربية العربية الى الذين يملكون هذه القدرات وتتولد عندهم الارادة الصادقة بضرورة التطوير . فان هم الباحثين والعلماء والمربين تبقى معطلة ولا تثمر سوى القهر والاحساس بالعجز .

ولكن قضية التربية العربية لا تقف عند توفر ارادة القادرين وجهود العارفين ، بل عليها في النهاية ان تسأل عن مصير نتاجها وكيف يتأثر هؤلاء عند استيعابهم في البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة في المجتمع . فالتربية لا تنظر الى الانسان كمجرد وظيفة ذكية وفعالة في هذه البنيات والا صارت تربية تدجين للناس . ولكنها اولا وقبل كل شيء تنظر اليه ككائن تكمن فيه طاقات هائلة وظيفتها هي تحرير هذه الطاقات وتنميتها . مالم تتغير طبيعة هذه البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتنسجم مع وظائف التربية في تحرير الانسان ، فان هذه البنيات ستفرض على نتاج التربية سلوكا يلائم طبيعتها ويضطر الناس للتخلق بهذا السلوك طلبا للعيش والامان . وعندئذ تذهب قدرات وصفات اساسية في عمليات التنمية الحقيقية هدرا .

وباختصار ان التربية العربية في محنة حقيقية وقضية تطويرها قضية معقدة وشاقة تحتاج الى دراسات كثيرة وعميقة وتحتاج الى تغيرات جذرية في جوانب عمليتنا المتوارثة وتحتاج الى خيال وابداع وجهود متواصلة واهم من ذلك تحتاج الى ارادة صادقة من قبل القادرين والى تغييرات جذرية في بنياتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فاين نبدأ وكيف نسير ؟ نرجو لهذا المؤتمر ان ينجح في اتخاذ التوصيات العملية اللازمة .

د . علي عيسى عثمان

رئيس المؤسسة العربية لتطوير التربية

د . نجاة المرسي السنباري

تعليم المرأة وعلاقته باحتياجات العالم العربي من القوى العاملة

تمثل المرأة نصف الثروة البشرية في العالم العربي ، وتعليمها استثمار لتلك الثروة ، تعود فوائده عليها وعلى اسرتها وعلى المجتمع باسره .

ولن يتحقق تقدم المجتمع العربي اجتماعيا واقتصاديا دون مساهمة المرأة مساهمة ايجابية داخل البيت وخارجه ، وكما قال الشاعر المرحوم حافظ ابراهيم منذ سبعين عاما :

من لي بتربية النساء فانها ... في الشرق علة ذلك الاخفاق

وينطبق قوله على العالم العربي اليوم كما انطبق في بداية القرن العشرين . فبالرغم من التوسع في تعليم الفتيات والنساء خاصة خلال العقدين الماضيين ، فلا زال مستوى تعليم المرأة في معظم البلاد العربية متخلفا عنه في جميع بلدان العالم المتقدمة منه والنامية على السواء ، كما لا تزال مساهمة المرأة في القوى العاملة محدودة للغاية كما سابين فيما بعد .

في هذا البحث ساقوم اولا بتحليل الوضع الحالي لتعليم المرأة في البلدان العربية عامة موضحة الاختلافات بينها في هذا المجال ، وسأعتمد في تحليلي هذا على اخر الاحصاءات في المنشورات العالمية والنشرات الرسمية للحكومات العربية .

وفي القسم الثاني من هذا البحث سأناقش العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر على تعليم المرأة في البلدان العربية ، ثم أبين اهمية التوسع في هذا التعليم ، وتغيير محتواه ، حتى يفي باحتياجات المجتمع العربي المتطور ، ويساعد على تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية . بعد ذلك سأناقش مدى مساهمة المرأة في القوى العاملة بالدول العربية ، وضرورة فتح مجالات العمل المتنوعة امام المرأة وتوثيق الرابطة بين تعليمها وبين احتياجات العالم العربي من القوى العاملة على جميع المستويات حتى تساهم المرأة في تنمية المجتمع ، وزيادة الانتاج .

الوضع التعليمي للمرأة في العالم العربي

أبدأ بالحديث عن المشكلة الاساسية التي تمثل حجر عثرة في سبيل تقدم العالم العربي ، وهي مشكلة الامية المتفاقمة وخاصة بين النساء ، فقد ترتب على اهمال تعليم المرأة عبر قرون التاريخ ان نسبة الامية بين النساء العربيات تزيد عنها بين جميع نساء العالم ، كما تزيد على نسبة الامية بين الرجال العرب ، ولبنان هو البلد العربي الوحيد الذي تتضاءل فيه نسبة الامية بين النساء حتى تصل الى ٣٠ في المائة فقط وتلي لبنان سوريا والاردن .

اما في جميع البلاد العربية فتزيد نسبة الامية بين النساء على ٨٠ في المئة وليست هنالك بوادر للتحسن في هذه الناحية بالرغم من المجهودات الكبيرة التي تبذلها جميع الدول العربية في برامج محو الامية ، وهذه المشكلة تتفاقم عاما بعد عام ، فبينما تنخفض نسبة الامية بين النساء والرجال على السواء حيث تضاعف عدد النساء اللاتي يعرفن القراءة والكتابة في الفترة ما بين ١٩٦٠ و ١٩٧١ يزداد عدد الاميين والاميات زيادة مستمرة ايضا وتدل الاحصائيات على انه في عام ١٩٦٠ كان هنالك ٢٤ مليون امرأة امية بنسبة ٩٠٫٧ في المائة من مجموع النساء ، وقد انخفضت النسبة الى ٨٥٫٧ في المائة عام ١٩٧٠ بينما زاد عدد الاميات الى ٢٩ مليون امرأة فوق سن ١٥ سنة ، وهذه الظاهرة موجودة في كل الدول العربية فيما عدا لبنان . ويرجع ذلك الى عجز التوسع التعليمي عن استيعاب جميع الطلبات في سن التعليم وعن مجابهة الزيادة الكبيرة في السكان ، ولان الغالبية من المستفيدين من برامج محو الامية رجال . ونظرا لانتشار الامية بين النساء العرب ، فان الغالبية العظمى منهن يصبحن خارجات عن نطاق العمالة لعدم توفر المهارات اللازمة لديهن .

تفاوت الفرص التعليمية بين البنات والبنين

صحيح ان مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية بين الجنسين مكفول نظريا في جميع الدول العربية ، فقد نصت قوانين هذه الدول على ان التعليم الابتدائي الزامي بالنسبة للجنسين لمدد تتراوح بين ٩و٥ سنوات ، كما ان حق الالتحاق بالتعليم الثانوي والجامعي مكفول للفتيات والفتيان بشرط الحصول على الدرجات المؤهلة . وبذلك لا يوجد في المجتمع العربي تمييز ضد الفتيات من ناحية المبدأ في حق الالتحاق بالتعليم على جميع المستويات وفي معظم التخصصات ، هذا بالاضافة الى ان التعليم مجاني في معظم البلاد العربية حتى نهاية المرحلة الجامعية ، وهذا شيء لم تحققه كثير من الدول المتقدمة اقتصاديا .

ولكن العرض يقل عن الطلب في جميع البلاد العربيـة حيث لا تسمح امكانيـات معظمها بتوفير فرص التعليم لكل من يرغب في ذلك ، وتعطى الاولوية لتعليم الاولادِ في جميع المراحل .

ولذلك فان واقع التعليم في البلاد العربية لا يتمشى مع ما اعلنته تلك البلاد من مبادىء عادلة بالنسبة لحق الجنسين في التعليم ، وبالرغم من الزيادة الكبيرة في اعداد الفتيات الملتحقات بكل مراحل التعليم ، فـلا زالت اعدادهـن اقل بكثير من اعداد الطلبة في جميع مراحـل التعليم وانواعه المختلفة .

ويعطي جدول رقم ١ صورة موجزة عن التقدم الكمي في تعليم البنات في العالم العربي في الفترة ما بـين ١٩٦٠ و ١٩٧١ .

ويوضح هذا الجدول الزيادة الكبيرة في اعداد الفتيات خلال هذه الفترة ، وانا على يقين من استمرار الزيادة خلال السنوات الثلاث الماضية . وقـد تقـدم تعليم البنات في كل المراحل بسرعة تفوق تقدم تعليم الاولاد ممـا ادى الى تضييق الفجـوة بين تعليم الجنسين الـى حـد ما . وفيما يلي اناقش التقدم في تعليم الفتيات في كل مرحـلة علـى حـدة .

الجدول رقم ١

عدد الطالبات ونسبتهـن الى مجموع الطلبة في العالم العربي عامي ١٩٦٠-١٩٧١

مرحلة التعليم	عام ١٩٦٠ عـدد الطالبات	عام ١٩٦٠ النسبة المئوية	عام ١٩٧١ عـدد الطالبات	عام ١٩٧١ النسبة المئوية
جميع المراحل	٢٤٧٧٥	٣٢	٦٤١٤٧	٣٥
المرحلة الابتدائية	٢٤٤١٣	٣٤	٤٤٧٨٩	٣٦
المرحلة الثانوية	٣٣٣	٢٦	١٤٢٢٩	٣٣
المرحلة العالية	٢٩	١٧	١١٩	٢٤

في المرحلة الابتدائيـة

تدل الارقام الموضحة بجدول رقم ١ ان الغالبيـة العظمى من الطالبات في العالم العربي يتواجدن في التعليم الابتدائي ونظرا لان التعليم الثانوي والعالي للبنات قد تطور بسرعة تفوق تطور التعليـم الابتدائي كمـا تدل على ذلك معدلات الزيادة السنوية لكل مرحلة ، فقد حدث بعض التوازن بـين توزيع الفتيات على مراحل التعليـم المختلفة . ومن المتوقع أن يستمر هـذا الاتجاه نتيجة لزيادة استيعاب التعليم الثانوي والعالي للفتيات .

وقد زاد عدد الطالبات في التعليم الابتدائي من ٢٤٤١٣٠٠٠ عام ١٩٦٠ بنسبة ٣٤ بالمئة من مجموع المسجلين ، الى ٤٤٧٨٩٠٠٠ او بنسبة ٣٦ بالمئة عام ١٩٧١ ، أي ان عدد الطالبات في هذه المرحلة قد تضاعف خلال احدى عشرة سنة بينمـا لـم تتغير نسبتهـن تغـيرا ملحوظا .

وهنالك تفاوت كبير بـين الدول العربية في هذا المجـال كما يتبين من جدول رقم ٢ الذي يعطي نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة فـي المرحلتين الابتدائية والثانوية في كل بلد على حده في الفترة مـا بين ١٩٥٠ و ١٩٧١ .

ففي عام ١٩٧١ وصلت نسبة الفتيات الى ٤٥ في المائة في كـل من لبنان والكويت والاردن والبحرين ، ونجـد ان الغالبية العظمى من البلاد العربية تتراوح فيها نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة فـي التعليم الابتدائي بـين ٣٤ و ٣٩ في المائة كمـا هو الحـال في مصر وسوريـا والجزائر وتونس وليبيا والمغرب والسـودان . وتصل نسبة الفتيـات الى ٢٩ في المائة فقط في العراق وهي نسبة ضئيلة فـي دولة لديهـا الثروات المادية اللازمة لتحقيق تكافؤ الفرص للجميع .

وتنخفض النسبة الى ٢٠ في المئة في جمهوريـــة اليمـن الديمقراطية و ١٠ في المئة في اليمن .

وتجب الاشارة هنا الى ان الفجوة بين تعليم الفتيات والفتيان ظلت على ما هي عليه في مصر خلال فترة تزيد على ثلاثـين عامـا ، اذ لـم تتغير نسبة الفتيات في التعليم الابتدائي منذ عـام ١٩٤٥ وهي نسبة ٣٨ في المائة وتقل عمـا كانت عليه في عام ١٩٤٠ وهي ٤١ في المائة .

جـدول رقم ٢

التطور في نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة في المرحلتين الابتدائية والثانوية عام ١٩٥٠\٥١ و ١٩٧١\٧٢

البلـد	المرحلة الابتدائية ١٩٥٠\٥١	المرحلة الابتدائية ١٩٧١\٧٢	المرحلة الثانوية ١٩٥٠\٥١	المرحلة الثانوية ١٩٧١/٧٢
الكويت	...	٪٤٥	...	٪٤٣
لبـنان	...	٪٤٥	...	٪٤٠
الاردن	٣١	٪٤٥	٪١٧	٪٤٠
قطـر	...	٪٤٥	...	٪٣٢
البحـرين	...	٪٤٢	...	٪٤٥
مصـر	٣٥	٪٣٩	٢٠	٪٢٩
تـونس	٢٨	٪٣٩	١٥	٪٢٩
ليبيا	...	٪٣٩	٢	٪٢١
الجزائـر	٣٤	٪٢٨	٤٣	٪٢٩
سـوريا	٢٨	٪٣٧	٢٤	٪٢٧
المغـرب	٤٣	٪٢٤	٣١	٪٢٩
السـودان	١٠	٪٢٤	١١	٪٢٧
العربية السعودية	...	٪٣٢	...	٪٢٠
العـراق	٢٥	٪٢٩	١٩	٪٢٩
اليمن الجنوبية	...	٪٢٠	٦	٪٢٠
اليمـن	...	٪١٠	...	٪٦

مرتبة ترتيبا تنازليا حسب نسبة الفتيات في التعليم الابتدائي في عام ١٩٧١ .

المصدر : منظمة اليونسكو-الدليل الاحصائي العام -١٩٧٢ و١٩٧٣
... المعلومات غير متوفرة .

واذا فحصنا معدلات الالتحاق الموضحة في جدول رقم ٢ نجد ان مـا يزيـد على النصف من الفتيات في سن المرحلة الابتدائية لا زلـن خارج النظام التعليمي في معظم البلاد العربية ، وترتفع نسبة المحرومات من الدراسـة الابتدائيـة الى ٦٠ في المائة في كل من العراق والمغرب ، و ٧٨ في المائة في المملكة العربية السعودية و ٨٣ في المائة في جمهورية اليمن الديموقراطية . وذلك حسب احصاءات عام ١٩٧٠ / ٧١ .

ويقدر عدد الفتيات المحرومات من التعليم الابتدائي في العالـم العربي بخمسة ملايين ، ولا زال الطريق طويلا نحـو تصميم التعليم الابتدائي للبنات في معظم الدول العربية وقد لا يتحقق قبل عام ٢٠٠٠ بينمـا المتوقع ان يتحقق التعليم الالزامي للاولاد في عام ١٩٧٧ ، كما نبه الى ذلك مؤتمر مراكش . ويسـاعـد هذا الوضع على استمرار الامية الفحشاء ليس فقط بين النسـاء ولكن بـين الاجيـال المتعاقبة مـن النساء والرجال على السواء ، ففتاة اليوم ام الغد وتعليمها لـه آثار مضاعفة كمـا يشير الـى ذلك علمـاء الاقتصاد . ولن اطيل هنـا في التأكيد على اهميـة الام المتعلمة ، ولا خلاف على ذلك وقد اقرت ذلك

التوصيات الصادرة من مؤتمرات وزراء التربية والتعليم في اديس ابابا وطرابلس ، ومراكش ، والمؤتمرات الخاصة بتعليم النساء في البلاد العربية والتي عقدت في تلمسان بالجزائر عام ١٩٦٤ ، وفي الكويت عام ١٩٦٩ ، وكذلك وثيقة العمل الدولية الصادرة عن مؤتمر الامم المتحدة بمناسبة عام المرأة في المكسيك في يونيو من العام الماضي .

وعلاوة على ذلك ، فان حرمان الملايين من الفتيات من التعليم الابتدائي يغلق امامهن فرص العمل في دول تتجه الى التصنيع وبذلك يصبحن عبئا اقتصاديا على اسرهن وعلى المجتمع كله ، وقد تدفعهن الحاجة الى الوقوع فيما لا يتمشى مع الدين وتقاليد المجتمع العربي التي حاولنا الحفاظ عليها قرونا عديدة بحرمان المرأة من التعليم وبدعوى ان لا حق لها في العمل الا تحت الحاجة القصوى .

التعليم الثانوي للبنات

لازال التعليم الثانوي في البلاد العربية تعليما للصفوة وخاصة في حالة الفتيات كما تدل معدلات الالتحاق الموضحة بالجدول رقم (٣) . والكويت هي البلد العربي الوحيد الذي يتيح فرص التعليم الثانوي لما يزيد على النصف من الفتيات في سن التعليم وهو ايضا البلد الوحيد الذي استطاع ان يحقق المساواة النسبية للجنسين في الالتحاق بالتعليم على جميع المراحل ، وهذا عمل عظيم في دولة استطاعت استغلال عائد ثرواتها المادية في تنمية ثروتها البشرية وتلك هي الثروة الحقيقية .

الجدول رقم ٣

معدلات الالتحاق بالتعليم حسب المرحلة والجنس في بعض ابللاد العربية عام ١٩٧٠ \ ٧١ .

البلد	المرحلة الابتدائية		المرحلة الثانوية		المرحلة العالية	
	بنات وبنين	بنات	بنات وبنين	بنات	بنات وبنين	بنات
لبنان	١١٦	١٠٣	٤٠	٣٠	٩ر٧	٣ر٢
ليبيا	١٢٢	٨٤	٢٢	٨	٣ر٤	٠ر٨
تونس	١٠٧	٨٥	...	...	...	...
سوريا	٨٨	٦٦	٣٩	٢١	٨ر٠	٣ر٠
الكويت	٩٠	٧٩	٦٩	٢٥	٢ر٤	٢ر٢
مصر	٧٠	٥٤	٣٣	٢١	٧ر٤	٤ر٠
الجزائر	٧٥	٥٨	١١	٦	...	...
العراق	٦٩	٤١	٢٥	١٥	٥ر٠	٢ر٣
المغرب	٥٥	٣٨	١٢	٧	١ر٨	٠ر٤
العربية السعودية	٣٤	٢٢	٩	٣	١ر٣	٠ر٢
اليمن الجنوبية	٤١	١٧	٩	٥	...	...

المصدر : منظمة اليونسكو ، الدليل الاحصائي السنوي ، عام ١٩٧٣ ، ١٩٦٥ .

وفي جميع البلاد العربية نجد ان عدد الفتيات في التعليم الثانوي قد زاد من ٣٣٣ الفا في عام ١٩٦٠ \ ٦١ الى ١٬٢٣٩٬٠٠٠ عام ١٩٧١ \ ٧٢ وقد زادت نسبتهن في هذه الفترة من ٢٦ في المائة الى ٣٣ في المائة . ويصل معدل الالتحاق من البنات في التعليم الثانوي الى ٣٠ في المائة في لبنان ، ٢١ في المائة في كل من مصر وسوريا ، و ١٥ في المائة في العراق ، وتقل عن ١٠ في المائة في بقية الدول العربية .

وتتسع الهوة بين تعليم البنات والبنين في المرحلة الثانوية عنها في المرحلة الابتدائية في كل البلاد العربية كما تدل الاحصاءات الواردة في الجدول رقم ٢ . وتتراوح نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة بين ٤٢ في المائة في الكويت و ٧ في المائة في اليمن .

وتجب الاشارة هنا الى ان انخفاض نسبة الفتيات عن الاولاد لا يرجع الى نقص في قدرة الفتيات على التحصيل الدراسي ، بل على العكس من ذلك ، لقد دلت دراسات عديدة على ان نسب النجاح في الامتحانات بين الفتيات اعلى منها بين البنين . ولكن لا زالت الحكومات تعطي الاولوية لتعليم الاولاد .

توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة بالتعليم الثانوي

بالاضافة الى ما سبق ، يتميز تعليم البنات في المرحلة الثانوية بعدم التوازن بين توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة بهذه المرحلة . فنجد ان الغالبية العظمى من الطالبات تتركز في التعليم الثانوي العام ، وتقل نسبة الملتحقات بالتعليم المهني والتقني وكذلك في معاهد اعداد المعلمين .

وذلك يدل على ان التعليم الثانوي للبنات لازال في مجالات لا ارتباط لها باحتياجات التنمية في المجتمع العربي ، وان تعليم الآلاف من طالبات المرحلة الثانوية يعتبر تقضية للوقت او اعدادا للالتحاق بالتعليم العالي . وتقتضي مرحلة التحول للبلاد العربية من دول ذات اقتصاد زراعي تقليدي الى دول تلتزم بالتصنيع يقتضي ذلك التأكيد على التعليم المهني والتقني وربط هذا التعليم باحتياجات المجتمع العربي في المجالات الصناعية والزراعية الحديثة والخدمات، وذلك للحد من الاقبال الشديد على التعليم العالي .

اما فيما يتعلق بالتعليم الثانوي العام الذي يستوعب الغالبية من طالبات الثانوي ، فليست لدي احصائيات عن توزيع الفتيات على القسمين العلمي والادبي .

ويعطي الجدول رقم ٤ صورة موجزة عن توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة بالتعليم الثانوي في مختلف البلاد العربية .
وبما ان نصيب مصر من طالبات التعليم الثانوي يفوق اية دولة اخرى وتتضمن تقاريرها الرسمية احصاءات عن اعداد الناجحات في شهادة الثانوية العامة للفترة ما بين ١٩٦٦–٦٧ و ١٩٧١–٧٢ . ويتبين من هذه الاحصاءات ما يلي :

١ – في الاعوام الستة زاد عدد خريجات القسم العلمي عن خريجات القسم الادبي . بين الفتيات عنها بين الاولاد .
٢ – تطور التعليم النظري للبنات يفوق تطور التعليم العلمي خلال تلك الفترة . ففي عام ١٩٦٦ – ٦٧ كان عدد خريجات القسم العلمي يعادل ضعف خريجات القسم الادبي ، ولكن في عام ١٩٧١ – ١٩٧٢ زاد عدد خريجات القسم العلمي على الادبي بمقدار ٥٠ في المائة فقط . ويتضح ذلك من الاعداد التالية :

اعداد الناجحات في الثانوية العامة بمصر

السنة	علمي	ادبي
١٩٦٦–٦٧	١٢٬٧٨٦	٦٬٨٩٠
١٩٦٧–٦٨	١٢٬٦٤٦	٩٬٢٤٢
١٩٦٨–٦٩	١٦٬٠١١	٩٬٦٤٥
١٩٦٩–٧٠	١٦٬٩٤٧	١١٬٥٨١
١٩٧٠–٧١	١٥٬٢٨١	٩٬٠٥٩
١٩٧١–٧٢	١٧٬٨١٤	١٢٬٤٢٤

وقد حدث تطور مماثل بالنسبة للاولاد .
وزيادة خريجات القسم العلمي عن الادبي ظاهرة طيبة قد يطيح بها النمو السريع في التعليم الثانوي للبنات حيث ان التعليم الادبي

تعليم رخيص ، ولكنه يحد من فرص التعليم العالي للبنات ، ولا يعد خريجاته لممارسة عمل معين ، ويكون مصير الكثير من خريجاته البقاء بالبيت بينما توجد حاجة كبيرة الى خريجات في التخصصات العلمية وفي معاهد اعداد المعلمات وفي التعليم المهني .

التعليم المهني للبنات

لازال التعليم المهني للبنات في طفولته في كثير من الدول العربية وليس متوفرا في بعضها ، وتتضاءل اعداد الفتيات في التعليم المهني بالمقارنة الى الاعداد الملتحقة بالثانوي العام في كل البلاد العربية ، وان كانت هنالك اعداد كبيرة من الفتيات في التعليم المهني في كل من مصر وتونس والجزائر والعراق . وتقل نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة في هذا النوع من التعليم عنها في كل من الثانوي العام ومعاهد اعداد المعلمين كما يتضح من المعلومات الواردة في الجدول رقم ٤ .

الجدول رقم ٤

توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة في التعليم الثانوي عام ١٩٧١ – ٧٢ .

البلد	الثانوي العام: عدد الطالبات	الثانوي العام: النسبة	الثانوي المهني: عدد الطالبات	الثانوي المهني: النسبة	اعداد المعلمات: عدد الطالبات	اعداد المعلمات: النسبة
الأردن	٢٦٫٢٠٣	٤٢	٧٦٨	٢٢	—	—
البحرين	٦٫١١٨	٤٩	١٠٩	٩	—	—
تونس	٢٦٫٩١٥	٣٠	[illegible]	٢٤	—	—
الجزائر	٦٦٫٦٢٥	٢٩	[illegible]	٢٧	٢٫٧٥٤	٣٥
العربية السعودية	١٦٫٥٢٥	٦٦	٥٤٣	٣٤	٦٫٧٢٣	٤٩
السودان	٣٦٫٨٦٩	٢٧	٧٨	٣	٩٧٨	٣٦
سوريا	٩٧٫٦٦٩	٢٨	٩٢٣	٧	٢٫١٤٥	٤٥
العراق	٩٢٫١٥٦	٢٩	٢٫٢١١	٢٣	—	—
الكويت	١٩٫٩٨٢	٤٣	٩٨٠	٢٩	٦٥١	٧٦
لبنان	[illegible]	٤٩	...	...	١٫٦٢٤	٤٨
ليبيا	١٠٫١٢٩	٢٦	٤٢٢	٣٩	١٫٨١٧	٣٢ [١]
مصر	٢٠٤٫٦٦٦	٣٣	٩٢٫٤٦٠	٣٢	١٢٫٦١٩	٤٦
المغرب	٩٠٫٤٨٣	٣٠	١٫٥٠٠	١٨	٥٢٣	٢٨
اليمن الشمالية	٣٫٦١٢	٢٠	...	...	٩٤	٢٣
اليمن	٤٤	١	—	—	٤٢٩	٦٩

عام ١٩٦٨

١ – التعليم الحكومي فقط .

– غير موجود

وقد لا تكشف هذه المعلومات عن ظاهرة هامة وهي نوعية التعليم المهني للبنات حيث يقتصر في كثير من الاحيان على التعليم النسوي استنادا الى ان مهنة المرأة الاساسية هي دورها كربة بيت ، ولكن مفهوم التعليم المهني او التقني المقصود به هو التعليم الذي زود الافراد بالمهارات اللازمة للعمل في الحرف الماهرة والتي تتطلب تدريبا مهنيا معينا ، وقد اشارت الدراسة الخاصة بالتحاق الفتيات بالتعليم المهني في البلاد العربية ، التي اعدتها منظمة اليونسكو للمؤتمر الخاص بالتعليم المهني للبنات (الكويت عام ١٩٦٩) . ان هذا التعليم النسوي لا يصح ان يطلق عليه اسم التعليم المهني او التقني . ويجب دمج هذا التعليم بانواع التعليم الثانوي الاخرى لتزويد خريجي وخريجات هذه المرحلة بما يعدهم لتحمل المسؤوليات الاسرية في الكبر .

وليست كل التخصصات في التعليم المهني مفتوحة امام الفتيات حتى في الدول التي احرزت تقدما كبيرا في هذا الميدان ، ففي مصر مثلا نما التعليم المهني عامة نموا كبيرا وزاد عدد الفتيات الملتحقات به من ٤٩٥ عام ١٩٥٠ الى حوالي ٢٥ الف عام ١٩٦٠ و ٥٨ الف عام ١٩٦٨ و ٩٢ الف عام ١٩٧١ .

وبالرغم من ذلك فلا زالت الفتيات محرومات من دخول التعليم الصناعي والزراعي ، وقد تم دمج التعليم النسائي مع التعليم التجاري وقد توسع ذلك توسعا كبيرا ، ويبدو قصر التعليم الصناعي والزراعي على الاولاد غريبا في دولة فيها آلاف من الطالبات في كليات الهندسة والزراعة .

وقد اثرت الاتجاهات الاجتماعية المقتبسة من الغرب في التوسع في التعليم التجاري بمصر حيث يتدرب عدد كبير من الفتيات على اعمال السكرتارية ، ويدل ايضا على عزوف الفتيات المقتدرات عن الالتحاق بالتعليم الثانوي الصناعي وبالرغم من التوسع الكبير في التعليم المهني بالعراق حيث زاد عدد الطلبة من ٦٢٦ ، ١ في عام ١٩٦٥ الى ٩٫٥٤٣ في عام ١٩٧١ ، ولكن انخفض عدد الفتيات الملتحقات بهذا التعليم في نفس الفترة من ٣٫٧٩٧ الى ٢٫٢٣٥ طالبة . وقد حدث في سوريا ايضا انخفاض في عدد ونسبة الفتيات المسجلات بالتعليم المهني من ١٫٠٨٦ طالبة بنسبة ١٢ في المائة من جميع المسجلين عام ١٩٦٥ الى ٤٨٢ عام ١٩٧٠ بنسبة ٥ في المائة فقط ثم ارتفع عددهن الى ٩٢٣ طالبة بنسبة ٧ في المائة من جميع الطلبة الذين زاد عددهم زيادة هائلة في هذه الفترة .

وحدثت تطورات مماثلة في كثير من الدول العربية ، وهذه ظاهرة خطيرة تدل على ان مرحلة التصنيع في البلاد العربية والتوسع في التعليم المهني لتزويد الصناعة بالعمال المهرة ، صاحبه ارتفاع كبير في اعداد الطلبة وتضاؤل في اعداد الطالبات مما يدل على استمرار الاتجاهات المعادية لاشتغال المرأة وخاصة في مجالات الصناعة وغيرها من المهن في مجتمع متطور عصري . وهذه التطورات تناقض توصيات مؤتمر اليونسكو الخاص بالتحاق الفتيات بالتعليم المهني في البلاد العربية الذي عقد هنا في الكويت عام ١٩٦٩ ، وكذلك توصيات مؤتمر مراكش الذي اكد على ضرورة تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص امام الفتيات وخاصة في التعليم المهني ، وليست هذه مسالة معنوية او انسانية فقط ولكنها ايضا وفوق كل شيء ضرورة لسلامة الكيان الاقتصادي والذي يقتضي تسخير واستخدام جميع القوى البشرية لتحقيق زيادة الانتاج والتقدم الاجتماعي .

وبما ان الاحصاءات المتوفرة من مساهمة المرأة في الصناعة تدل على ان هنالك اعدادا لا بأس بها في الحرف والصناعات في معظم الدول العربية ، فيمكن القول ان هؤلاء العاملات غير مدربات مهنيا لما يقمن به من اعمال .

اعداد المعلمات بالمرحلة الثانوية

مهمة هذا التعليم اعداد معلمات للمدارس الابتدائية وتزيد نسبة الفتيات الى جميع المسجلين في هذا النوع من التعليم عن نسبتهن في التعليم الثانوي العام والثانوي المهني ، وكان من المتوقع ان تصل نسبة الفتيات في معاهد اعداد المعلمين الى النصف او اكثر من مجموع الطلبة وخاصة في البلاد التي تتجه الى تأنيث هيئة التدريس بالمرحلة الابتدائية مثل مصر مثلا ، وقد تحسن الوضع كثيرا منذ عام ١٩٦٥ ، ونجد ان في عام ١٩٧١ – ٧٢ كانت نسبة الفتيات تزيد على ٤٦ في المائة في ثماني دول عربية وهي مصر (٤٦٪) ، والبحرين (٤٨٪) والكويت (٤٩٪) ولبنان (٤٨٪) والمملكة العربية السعودية (٤٩٪) واليمن (٦٩٪) ، ولا زالت نسبة الفتيات في هذا التعليم منخفضة جدا في كل من تونس والمغرب حيث وصلت نسبهن الى جميع المسجلين ١٥٪ في تونس و ٢٨ في المائة في المغرب .

وقد حدث تطور سريع في هذا النوع من التعليم في كل البلاد العربية وخاصة الكويت والمملكة العربية السعودية والى حد ما في البحرين وقطر وذلك لسد احتياجات هذه البلاد الى معلمات التعليم الابتدائي من بين المواطنات فيها ، وتخفيف حدة الاعتماد على المعلمات المغتربات . وقد صاحب ارتفاع نسبة الطالبات في هذا التعليم زيادة في نسبة المعلمات الى جميع المعلمين بالمرحلة الابتدائية كما سأبين فيما بعد .

وتجدر الاشارة هنا ان التعليم الثانوي المهني واعداد المعلمات قد أصبح من اهم الوسائل لتحقيق الارتقاء الاجتماعي لكثير من الفتيات من اسر دون المتوسط في المستوى الاقتصادي ، ولا زالت القيم الاجتماعية تقلل من مكانة هذين النوع ينمن التعليم حيث انهما يعتبران تعليما للطبقات الدنيا ، كما يطلق على « خريجات وخريجي هذين النوعين من التعليم الثانوي « انصاف المتعلمين » وهذه وصمة تجعل الكثيرات من البنات بوجه خاص يعزفن عن الاقبال على هذا التعليم والطموح الى الالتحاق بالجامعة او المعاهد العليا بغض النظر عن القدرة على مواصلة الدراسة او الامكانيات الاقتصادية .

وستستمر طبقية هذين النوعين من التعليم الثانوي باستمرار النظام الحالي الذي يفصل فصلا كاملا بين التخصصات المختلفة في مدارس خاصة بذلك ، أي في نظام الفصل بين التعليم الثانوي العام والمهني واعداد المعلمين . والوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الطبقية وتشجيع الالتحاق بالتخصصات المهنية والمواد التربوية ، هو القضاء على المدارس الثانوية المتخصصة والاخذ بمبدأ المدرسة الثانوية الشاملة مع اتاحة فرص الاختيار والتخصص داخل نطاق نظام موحد لجميع طلاب وطالبات المرحلة الثانوية ، وتشجيع الطالبات على اختيار ودراسة المواد المهنية والتربوية وذلك يزيد من رصيد هذه البلاد من خريجات التعليم الثانوي اللاتي يجمعن بين قدر من التعليم العام والتعليم المتخصص ويمكن تعبئة الاعداد اللازمة للاشتغال في الحرف الماهرة ، وكذلك الاعداد اللازمة للتدريس بالمدارس الابتدائية .

وينادي بعض علماء التربية بالعالم العربي بالغاء معاهد اعداد المعلمات واستبدالها بكليات التربية على المستوى العالي وذلك لرفع مستوى معلمات المرحلة الابتدائية وهذا هو المثل الاعلى الذي قد تصبو اليه البلاد العربية في المستقبل البعيد ، ولكنني ارى انه لا يمكن تحقيق ذلك في المستقبل القريب وخاصة في البلاد التي تعاني عجزا في المواد اللازمة للتوسع التعليمي ولعدم قدرة بعض الفتيات على مواصلة التعليم فيما بعد المرحلة الثانوية لاعتبارات مادية واجتماعية .

التعليم العالي

مهمة التعليم العالي هي اعداد الاشخاص المؤهلين تأهيلا عاليا . والتعليم العالي في البلاد العربية تعليم للصفوة حيث ان معدلات الالتحاق بهذ االتعليم محدودة للغاية في جميع البلاد العربية كما يتبين من الاحصاءات الواردة في جدول رقم ٢ ص ٧ .

وقد نما التعليم الجامعي عامة وتعليم البنات بوجه خاص نموا كبيرا منذ عام ١٩٦٠ كما يتبين من جدول رقم ٥ الذي يعطي اعداد الفتياتونسبتهن الى مجموعطلبة التعليم العالي عامي ١٩٦٠ و ١٩٧١. وكما رأينا في جدول رقم (١) فقد زاد عدد الملتحقات بالتعليم الجامعي في كل البلاد العربية من ٢٩ الف عام ١٩٦٠ الى ١١٩ الف عام ١٩٧١ اي زيادة في العدد اربع مرات ، وزادت نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة خلال تلك الفترة من ١٧٪ الى ٢٤٪ ، أي انه بالرغم من الزيادة الكبيرة في اعداد الطالبات والتي فاقت الزيادة في اعداد الطلبة ، فان الفتيات يمثلن الربع فقط من مجموع طلبة التعليم العالي من الجنسين .

وهنالك تفاوت كبير بين مختلف البلاد العربية في مستوى مساهمة الفتيات في التعليم العالي ، وبالرغم من حداثة التعليم الجامعي للبنات في الكويت فقد استطاعت هذه الدولة تحقيق انجازات هائلة وتطورا سريعا في التعليم العالي للبنات حتى انه في عام ١٩٧٣ – ٧٤ كان عدد البنات في جامعة الكويت اكبر من عدد الاولاد . وتدل الاحصائيات الرسمية على ان عدد الطالبات لهذا العام كان ٢،٢٤٠ طالبة كويتيات وغير كويتيات مقابل ١،٥٩٦ طالبا كويتيين وغير كويتيين ويفوق عدد الطالبات الكويتيات بالجامعة وهو ١،٢٧٢ طالبة عدد الطلبة الكويتيين البالغ ٧٠٥ فقط وترجع هذه الزيادة الى ان عددا كبيرا من الطلبة الكويتيين يدرسون بالخارج في التخصصات الهندسية والعلمية .

جدول رقم ٥

التطور في التعليم العالي للنساء في البلاد العربية
عامي ١٩٦٠ – ٦١ و ١٩٧١ – ٧٢

البلـــد	عدد الطالبات		النسبة المئوية	
مصر	١٨،١٢٢	٦٦،٥٣٩	١٧	٢٧
لبنان	*٣،٦٦٨	١١،٠٠٠	*١٨	٢٥
العراق	٢،٧٦٧	١٠،٥٨٥	٢٣	٢٢
سوريا	٢،٤٧٣	٩،١٧٤	١٧	١٩
الجزائر	٢،٣٠٤	٥،٥٤٠	٣٢	٢٣
تونس	*١،١١٧	٢،٥٠١	*١٧	٢٣
المغرب	٦٧٣	٢،٧٩٧	١٤	١٦
السودان	٢١٣	٢،٤٦٧	٥	١٥
الكويت	...	١،٧٥٥	...	٤٩
الاردن	٢٣٧	١،٦٢٤	٢٤	٢٢
العربية السعودية	...	٩٦٧	....	١٠
ليبيـا	١٨	٧٣٥	٢	١٢
البحرين	...	١٦٦	...	٥٣
اليمن الشمالية	...	٢٥	...	٢٧

* عام ١٩٦٥ – ٦٦ .

١ – مرتبة ترتيبا تنازليا حسب عدد الطالبات .

... لا يوجد .

المصدر : اليونسكو الدليل الاحصائي السنوي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ .

وتتراوح نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة بين ٢٢ و ٢٧ في المائة في معظم البلاد العربية كما هو الحال في مصر ولبنان والعراق والجزائر وتونس ، وتقل عن ٢٠ في المائة وتزيد عن ١١ في المائة في كل من سوريا والمغرب والسودان وليبيا ، وتصل نسبة الفتيات في التعليم العالي الى ١٠ في المائة في المملكة العربية السعودية .

بالاضافة الى ذلك فان التعليم العالي هو تعليم للصفوة من ذوي القدرات الذهنية او الاقتصادية وتتراوح معدلات الالتحاق بهذه المرحلة بين ٣ و ١٠ في المائة بين الجنسين في هذه البلاد ، وتقل عن ٥ في المائة بين الفتيات في كل البلاد العربية ، وتصل الى ١ في المائة فقط في كثير منها .

وقد احرزت كل من مصر ولبنان وسوريا والعراق والاردن والكويت تطورا كبيرا في التعليم العالي للبنات من حيث الكم والكيف ، واخص بالذكر توزيع الفتيات على التخصصات العلمية المختلفة كما سأوضح فيما يلي :

توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة

بالاضافة الى انخفاض نسبة الفتيات في التعليم الجامعي ، فهنالك عدم توازن في توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة في معظم البلاد العربية ويتمثل ذلك في تركيز الفتيات في التخصصات التعليمية التي تعتبر مناسبة للمرأة مثل الانسانيات والعلوم الاجتماعية والتربية ، وهذه الظاهرة غير قاصرة على الدول العربية ولكنها موجودة في كثير من الدول الغربية ، وتوجد اعداد كبيرة من الطالبات في كليات الحقوق والتجارة لان هذه المجالات قد فقدت مكانتها الاجتماعية والاقتصادية وذلك عكس الحال في الدول الغربية ، وتتميز المجالات التي تساهم فيها الفتيات مساهمة كبيرة بانها مجالات ضعيفة الصلة باحتياجات المجتمع العربي من القوى العاملة المتدربة على المستوى العالي ، ولكنها انواع من العلم يمكن التوسع فيها دون نفقات باهظة كالتي تتطلبها التخصصات العلمية . ويدل تركيز الفتيات في هذه المجالات ايضا على ان كثيرا من الفتيات العربيات يعتبرن التعليم الجامعي تقضية للوقت ومن اجل الحصول على شهادة جامعية لما لها من قيمة اجتماعية حتى لو لم تؤهلهن للعمل في مهنة معينة .

وتجدر الاشارة هنا الى ان كثيرا من الطالبات في هذه التخصصات التحقن بها ضد ارادتهن ونعدم حصولهن على المجموع المؤهل لدخول كليات او تخصصات علمية .

واذا كانت غالبية خريجات هذه التخصصات تعمل في مهنة التدريس في المدارس الاعدادية والثانوية لكان ذلك ظاهرة طيبة ، ولكن كثيرا من الخريجات يتهافتن على العمل في مكاتب الحكومة حيث لا حاجة لهن ويساهمن في تعقيد مشكلة البطالة المقنعة . ويعتبر تعليمهن صناعيا لثروات مادية وبشرية ثمينة لقيامهن باعمال لا تساعد على زيادة الانتاج .

وبالرغم من ذلك فقد حققت كثير من الدول العربية انتصارات كبيرة في مجال التعليم العالي للنساء وخاصة في التحاق الآلاف من الطالبات في تخصصات تعتبر رجالية في كثير من دول العالم المتقدمة واخص بالذكر مجالات الهندسة والطب والرياضيات والعلوم الطبيعية حيث تزيد الفتيات الى مجموع الطلبة في بعض الدول العربية عنها في كثير من الدول الغربية ، وتوجد اعداد كبيرة من الطالبات في كليات الهندسة الى حوالي ١٠ في المائة من جميع الطلبة (٣٠٥٠ طالبة مقابل ٣٦٠٥٠٠ طالب عام ١٩٧١ ــ ٧٢) مقابل ١ في المائة فقط في امريكا ، ونصف في المائة في انجلترا في نفس العام . وترتفع نسبة الفتيات نسبيا في هذا المجال في كثير من البلدان العربية ، ولكنه امنخفضة جدا في لبنان ويرجع ذلك الى تأثر لبنان بالطابع الغربي في التعليم العالى للنساء .

وارتفاع نسبة الفتيات في كليات الهندسة في مصر خاصة ظاهرة تستحق الدراسة فهي لم تأت نتيجة لسياسة معينة من جانب الحكومة بهذا الخصوص ولكن لان الفتيات قد فرضن انفسهن على هذا التخصص بحصولهن على الدرجات اللازمة . واثبتت كثير من الفتيات قدرتهن على اتمام الدراسات الهندسية بجميع تخصصاتها بنجاح وتفوق ولم تستطع اية معارضة ان تقف في طريق تحقيق المرأة لهدفها واثبات كيانها في مجالات كان البعض يعتبرها قاصرة على الرجال .

وترتفع نسبة الفتيات ايضا في كليات الطب في كثير من البلاد العربية وكذلك في جميع التخصصات المتصلة بمهنة الطب ، حيث تتراوح نسبة الفتيات الى مجموع الطلبة بين ٢٥ و ٣٠ في المائة في كل من لبنان ومصر والجزائر .

يمكن تلخيص ما تقدم كالاتي :

بالرغم من التقدم الكبير الذي احرزته الدول العربية في تعليم المرأة وخاصة خلال الحقبتين الماضيتين ، فلا زال تعليم المرأة متخلفا عن تعليم الرجال والفتيان ، والمشكلة الاساسية هي مشكلة الامية المتفاقمة والتي تزيد حدتها عاما بعد عام بالرغم من الانخفاض المستمر في نسبة الامية بين الجنسين ، وتأتي في المرتبة الثانية مشكلة عدم توفر الفرص التعليمية لما يقرب من نصف الفتيات في سن المرحلة الابتدائية وما زال الطريق نحو التعليم الابتدائي للبنات طويلا وشاقا في معظم الدول العربية وخاصة البلدان ذات التعداد السكني المتضخم ، وهنالك ايضا مشكلة انخفاض نسبة الفتيات في التعليم الثانوي والعالي ، ومشكلة عدم التوازن في توزيع الطالبات على التخصصات التعليمية المختلفة حيث تتركز الغالبية في التعليم النظري ، ولا زالت مشاركة الفتيات في التعليم المهني والتقني محدودة وغير متوفرة في بعض البلدان .

كما ان مستوى مساهمة الفتيات في تعليم اعداد المعلمين على المستوى الثانوي والجامعي لا يزال اقل من المطلوب للوفاء باحتياجات التوسع في تعليم الفتيات ، واخيرا فان نسبة الانقطاع عن التعليم والتغيب عن الدراسة تزيد بين الفتيات عنها بين البنين بالرغم من ان مستوى التحصيل الدراسي للفتيات ــ كما تعيشه الاختبارات المختلفة ــ يناظر بل يفوق تحصيل الاولاد .

وانتقل الان الى تحليل العوامل المؤثرة في تعليم الفتيات والنساء في الوطن العربي .

العوامل المؤثرة في تعليم المرأة وعملها

توجد عقبات كثيرة تحول دون التوسع في تعليم المرأة ومساواته بتعليم الاولاد في البلاد العربية والاسلامية عامة . وتنقسم هذه الى عوامل تاريخية واجتماعية واقتصادية يحتاج تحليل كل منها الى بحث مستقل ، ولكنني سألخصها في الآتي :

العامل التاريخي

ابدأ بالعامل التاريخي وهو تعليم المرأة بالمفهوم الحديث وهو نتاج القرن العشرين بل والنصف الثاني من القرن العشرين في كل من المملكة العربية السعودية واليمن ، وقد انشئت المدارس الاجنبية التبشيرية للبنات في مصر وسوريا ولبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وكانت هنالك معارضة كبيرة لهذه المدارس في البداية لطبيعتها الدينية ، وبدأ الاهالي يضغطون على الحكومة لانشاء المدارس الوطنية للبنات وتم ذلك في الثلث الاخير من القرن العشرين ، ويرجع تاريخ انشاء اول مدرسة حكومية مصرية للبنات عام ١٩٧٤ وهي مدرسة السنية الحالية بمدينة القاهرة . وكان نمو تعليم البنات نموا بطيئا جدا في البداية ولم يؤد الاستعمار الى تحسين المستوى التعليمي لافراد الشعب من الجنسين وخاصة النساء وذلك لضآلة ما كان يصرف على التعليم عامة ، ولعدم العناية باعداد المعلمين والمعلمات ، وكانت الحاجة في عدم التوسع في تعليم البنات هي عدم المساس بتقاليد المجتمع العربي وتعاليم دينه التي يزعم انها تعارض تعليم المرأة .

وبتحقيق الاستقلال السياسي من الاستعمار الاجنبي حدثت طفرة كبيرة في التعليم الذي اعتبرته الحكومات الوسيلة الاولى لتحسين

مستوى الشعب الاجتماعي والاقتصادي ، واستفادت الفتيات من التوسع في التعليم ومن قوانين التعليم الالزامي التي صدرت بعد الاستقلال . وكان الغرض الاساسي من تعليم المرأة هو تزويدها بقدر من المعلومات الاولية وبعض المهارات اللازمة لاداء مهمتها كربة بيت وبدأت الصلة بين تعليم النساء والعمالة تتبلور نتيجة للتوسع الكبير في التعليم والحاجة الماسة الى معلمات المرحلة الابتدائية ، ثم الاعدادية والثانوية ، وبدخول الفتاة الجامعة في العقد الثالث من القرن العشرين في كل من مصر ولبنان وسوريا والعراق ، أولا في كليات الاداب ثم في المخصصات العلمية الاخرى ، بدأ يتكون لدى هذه البلاد رصيد من خريجات مراحل التعليم المختلفة يمكن اجتذابه للعمل في المجالات « النسائية » وخاصة تلك التي لا تتيح فرص الاختلاط بين الجنسين وكانت مهنة التدريس في مدارس البنات أول مهنة تفتح باب العمل للمرأة خارج القطاع الزراعي التقليدي ، وتبعتها مهن التمريض والخدمة الاجتماعية والطب ، ولا زالت مساهمة المرأة في الاعمال التي تعتمد على مستوى عال من التعليم ، في معظم البلاد العربية محدودة وتنحصر في هذه المهن التي تعتبر متمشية مع تقاليد المجتمع الاسلامي العربي .

العامـــــل الثقـــافي

يرد في العديد من المؤلفات الشرقية والغربية على السواء ان تعليم المرأة يخالف تعاليم الدين الاسلامي ، والدليل على ذلك ان تعليم المرأة متخلف في جميع البلدان الاسلامية العربية وغير العربية عنه حتى في الدول التي على نفس مستوى النمو الاقتصادي للـــدول العربية والاسلامية . وتختلف الاراء ويحتد النقاش في هـذا الموضوع ويذهب مؤيدو تعليم المرأة الى ان الدين الاسلامي لا يميز بين الرجال والنساء في طلب العلم وكما ورد في الحديث الشريف ان تحصيل العلم فرض على كل مسلم رجلا كان أو امرأة ، وان كان مفهوم العلم في هذا الحديث غير واضح ، ويقوم الدكتور علي عثمان في بحثه عن « اراء حول الاتجاهات الحضارية نحـو تعليم المرأة في البلاد العربية » بتحليل دقيق للاتجاهات التي تحد من تعليم المرأة ويؤكد فيه ان الاسلام لم يكن يعارض تعليم المرأة « والواقع ان العـادات والتقاليـد الاجتماعية السائدة هي التي حالت دون تعليم المرأة حتـى الازمنـة الحديثة وبسبب استمرارية هذه العادات والتقاليد عبر مئـات السنين صار الكثيرون من الناس ينظرون اليهـا خطا على انها عادات وتقاليد دينية ، ولهذا كان يتبادر لذهن هؤلاء ان تعليم المرأة مخالف للدين وتعاليمه » .

ويجب الاضافة ان المعارضة لتعليم المرأة لـم تكن معارضـة لهذا التعليم في حد ذاته ، ولكن للحريات التي تترتب على تعليم المرأة ، مثل حرية الاتصال المباشر وغير المباشر بالعالم الخارجي ، ففي المجتمـع الاسلامي الذي تعود قرونا طويلة ابقاء المرأة داخل جدران البيت،كان تعليم المرأة وخروجها الى المدرسة يوميا كسـرا للحصـار الذي فرض على المرأة عصورا طويلة ، وتبع ذلك الخوف من أن يؤدي تعليم الفتيات الى الانحراف الخلقي والخروج على تعاليم الدين الاسلامي .

وكان حرص الاسر على الشرف والسمعة المرتبطين ارتباطا وثيقا بسلوك الفتاة والرغبة في حماية الفتيات من الوقوع فيما يسيء الى سمعة الاسرة ، والحرص على تزويجها أو « سترها » في سن مبكرة ، من اهم العوامل التي حالت دون اتاحة تكافؤ الفرص التعليمية للمرأة وبالتالي الى الحد من مساهمتها في الاعمال الاقتصادية المختلفة .

وقد عمت هذه الاتجاهات بين الرجال وكثير من النساء ، وقد قبلت المرأة اتجاهات المجتمع نحوها ونحو دورها في الحياة على انـه الوضع الطبيعي ، بل وانه ارادة الله ، فرضيت بحالها ، ولا زالت اتجاهات النساء كبار السن وما لديهن من ثقافة نسائية خاصـة جامدة ، تمثل عقبة كبرى في سبيل تغيير مكانة المرأة الاجتماعيـة ، واستفادتها من فرص التعليم والعمل المتزايدة . حقـا ان هناك رائدات في مجالات اجتماعية واقتصادية عديدة ولكنهن أقليـة وتأثيرهن على مجموع النساء محـدود .

وبالرغم من أن الغالبية العظمى ممن يعارضون ، أو بالاحـرى ، لا يعطون الاهمية الكافية لتعليم النساء هم الاميون من الاهالي الذين لا يقدرون اهمية التعليم بالنسبة للمرأة وخاصـة لتأدية دورهـا كربة بيت ، وان لم يكن للمساهمة في الاعمال الاقتصادية ، فهنـاك الكثيرون من واضعي السياسة التعليمية وبعض رجال الدين الذين يعارضـون اتاحة الفرص المتكافئة للدراسـة والعمل امام الفتيـات لاعتبارات ايديولوجية . فمثلا في كتاب « المرأة بين الفقه والقانون » للاستاذ مصطفى السباعي يسلم الكاتب بحق المرأة في التعليم ولـكن للقيام بدور الامومة فقط ، ويخصص لموضوع تعليم المرأة صفحـة ونصفا من كتابه المكون من ٢٥٠ صفحة . وفي كثير من كتابات رجال الدين تعبير عن الخوف من انتشار التعليم بين النساء ، مع معارضة شديدة للتعليم المختلط ، والخوف اساسا من اشتغال المرأة خـارج البيت ، واعتبار ذلك تهديدا لكيان الاسرة والمجتمـع .

ولا زال المجتمع العربي ينظر الى المرأة ودورها في الحياة نظرة محدودة بوظيفتها البيولوجية كما ورد في النص الاتي من مقالة للاستاذ توفيق علي وهبه بعنوان « دور المرأة في المجتمع الاسلامي » .

« لقـد خلق الله سبحانه وتعالى الانسان من ذكر وانثى ويسر كلا لما خلق له ، وبطبيعة الانسان ، للرجل عمله في الحياة والمجتمع وللمرأة عملها . فبحكم تكوين الرجل عليه ان يعمل ويكدح ليعـول زوجته وابناءه ، والزوجة تنجب الاولاد ، وترعاهم وتربيهم وتقوم على شؤن المنزل وليس في ذلك غضاضة لاي منهمـا ولا يقلل من قـــدر دورهما في الحياة ، فعمل المرأة الاساسي في منزلها وان كان الاسلام لا يمنعها من الخروج والعمل خارج المنزل والكدح في الحياة الى جانب الرجـل اذا كانت هناك ضرورة تدفعهـا الى ذلك لكي تعول نفسها أو تنفق على اولادها العاجزين عن الكسب أو من تعول من اخوة أو اقارب اذا لـم يكن لهم من يعولهم سواها » .

ويضيف « ان فتح باب العمل للمرأة على مصراعيه تدمير للمجتمع من حيث لا نـدري » . « ان اخشى ما اخشاه ان يجيء يوم وكل النساء تعمل ، ويبقى الابناء في ضياع فتضيع معهم القيم والمبادىء والاخلاق ، وان الذينيتشدقون بدعاوى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل انما يدعون الى طريق خطر لان الله الذي خلق كلا من الرجل والمرأة من نفس واحدة ، يسر كلا منهما لما خلق له » .

ولا مبرر لهذا الخوف ، فلا زالت نسبة النساء العاملات ضئيلة جدا ، والمطلوب زيادتها الى حد معقول يقدر حسب احتياجات هــذه البـــلاد .

وتذكر الآية الكريمة « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض في الرزق » مع ان هذه الآيـة لا تقصر فرص العمل على الرجال ، فان فيها عنصر التفضيل أي أن فرص العمل أمام الرجل وقدرته على الكسب اكبر منها عند المرأة .

وبذلك يختلط العامل الاقتصادي مع العامل الايديولوجي ، فهنالك حرص على تأكيد اعتماد المرأة اقتصاديا على الرجل ، وايثار الرجل بحق العمل واعفاء المرأة من مسؤلية الانفاق حتى ولو كان عندها دخل من عملها أو ممتلكاتها . ولا يتمشى هذا المنطق مع واقع النصف الثاني من القرن العشرين ، وفي ضوء ارتفاع تكاليف المعيشة في كل مـــكان .

العامـــــل الاقتصـــادي

في رأيي ان التقاليـد العربية والاتجاهات الاجتماعية نحو تعليم المرأة لم نعـد هي العقبة الاساسية في سبيل هذا التعليم في معظـم الدول العربية ، فالغالبية العظمى من الاهالي يرغبون في تعليم ابنائهم وبناتهم اذا سمحت ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية بالتخلي عـن خدماتهم لفترة مـا ، وللاستثمار في تعليمهم . لان التعليم اصبح هو الوسيلة الاساسية للارتقاء الاجتماعي وخاصة للاولاد فالولد هو الذي يحمل اسم الاسرة ويعاون والديه في الكبر فيكون اسرة من زوجـة واولاد يكون هو المسئول الاول عن الانفاق عليهم وتربيتهم . اما البنت فان مركزها الاجتماعي لا زال يتحـدد بمركز والدها وزوجهـا ، واذا عملت فان عملها يعتبـر اضافة وهي غير مسئولة عن اعانـة والديها أو المساهمة في نفقات بيتهـا .

ويذهب البعض الى ان التكاليف المترتبة على عمل المرأة لا تكفي لتغطية النفقات المترتبة على هذا العمل مثل مصاريف حضانة الاطفال وملابسها ومواصلاتها ، ويغفل هؤلاء ان المرأة العاملة تساهم في زيادة الانتاج في مجتمعها الكبير ، وترتفع بمستوى اسرتها لانهـا لا تحب ان تكون معفاة من المسئولية ، او ان تكون عبئا اقتصاديا ، وهي ايضا تخلق اعمالا لغيرها من النساء ، ولذلك فان مساهمة المرأة في العمالة يتطلب مفهوما جديدا عن المجتمع . فالمجتمع الراكـد يمكنه تجميـد طاقات النساء وعزلهن عن مجرى الحياة ولو كان ذلك على حسـاب تقدمه ومكانته بين دول العالم ، وتتميز المجتمعات العصرية بالحركة الدائمة والتغيير المستمر والبناء من اجل مجتمع افضل يعتمـد على طاقات كل افراده رجالا ونساء .

وفي معظم البلاد العربية ، حيث تتركز الغالبية العظمى من سـكان العالم العربي ، فان العقبة الاساسية في سبيل التوسع التعليمي عامة وتعليم المرأة بوجـه خاص لهي نقص في الاموال والمعدات اللازمة ، والعجز في المعلمين والمعلمات ، وان الطفرات التي احرزتها الكويت ودول الخليج العربي عامة في مجال التعليم منذ الستينات لدليل قاطع على أهمية العامل الاقتصادي في التغلب على العقبات الاجتماعيـة في سبيل تعليم المرأة ، ويجب التأكيد هنـا ان التوسع التعليمي في حد ذاته ليس ضمانا لاتاحة تكافؤ الفرص للجنسين على السواء ، وخاصة اذا كانت الامكانيات لا تسمح بتعليم جميع من هم في سن الدراسة ، حينئذ تعطى الاولوية لتعليم الاولاد ، وقد سلمت جميع الدول العربية بان تعميم التعليم الالزامي لا بد من ان يتحقق بـين البنين قبل تحقيقه بـين البنات ، وهذا ما تتضمنه جميع الخطط التعليمية للبلاد العربية .

وكما يؤثر العامل الاقتصادي على مستوى الحكومات بالحد من توفير الاماكن اللازمة لتعليم البنات ، فان تأثير العامل الاقتصادي على مستوى الاسرة لهو على مستوى كبير من الاهمية أيضا ، فالاسـر الفقيرة والمتعددة الاطفال ، تفضل تعليم الابناء على تعليم البنـات ، وتضطر البنت الى البقاء في البيت لمعاونة والدتهـا في اعمـال البيت . ولذلك نجد ان الغالبية العظمى ، ان لـم يكـن جميـع المحرومات من التعليم بكل مراحله هن الفتيات من اسر فقيرة ، كما ان التوقف عن الدراسة والتغيب ظاهرة تزيد حدتهـا بـين الفتيات وخاصة في الطبقات الفقيرة ، بينما تتوفر فرص التعليم داخل البلاد أو خارجها ، في مدارس حكومية أو خاصة للفتيات من أسـر متوسطة أو غنية ، وقد استطاعت بعض الحكومات العربية تشجيع الفتيـات على الاستمرار في التعليم عن طريق المنح والجوائز والبعثات التعليمية. ولكن المستفيدات من تلك البرامج لا زلن اقلية ، وليست مجانية التعليم ضمانا لديمقراطيته ، فلا زالت هنالك نفقات غير مباشرة للتعليم تعجز اسـر كثيرة عن تحملها ، ويجب وضع هذا العامل موضع الاعتبار عند التخطيط للتوسع في تعليم البنات خاصة . فقد نجد بعض الدول العربية التي تعاني عجزا في الاموال اللازمـة للتوسـع التعليمي ان تشجع انشاء المدارس الاهلية والخاصة حتى تقـل الضغوط على المدارس الحكومية ، وقد يبدو هذا الاقتراح متنافيـا مع مبادىء الديمقراطية ولكن الغاء التعليم الخاص او الحد منـه لم يلغ الطبقية في التعليم أو المجتمع .

ولا بد هنا من الاشادة بدور التعليم الخاص في تقدم تعليم المرأة العربية منذ حقب عديدة ، فقد سبقت المدارس الخاصة للبنات المدارس الحكوميـة في مصر وسوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية وغيرها . ولا زالت نسبة الفتيات الى جميع الطلبة اعلى منها بكثير في المدارس الخاصـة منهـا في المدارس الحكومية ، وذلك يؤكـد اهمية القدرة المادية للاهالي والحكومات على التغلب على الطبقـات الاجتماعية في سبيل تعليم المرأة .

وليس عامل الانوثة وحده هو الذي يحدد فرص تعليم الفتيات ، ولكن ذلك يعتمد على عوامل كثيرة من بينها المستوى التعليمي للبلـد الذي تعيش فيه الفتاة ، فان فرص التعليم امام الفتاة الكويتيـة او المصريـة أو اللبنانية احسن من فرص تعليم الاولاد في الســودان والمغرب واليمـن .

العامـــــل الريفـــي

تقل فرص تعليم الفتيات في القرى عنهـا في المدن وذلك بسبب التخلف الحضاري في القرية عموما وكذلك تخلف الخدمات التعليمية في القرى عنها في المدن . وتدل الاحصائيات الرسمية للدول العربية على ان نسبة الفتيـات الملتحقات في المدارس بالقرى اقل بكثير منهـا في المــدن .

ففي سوريا مثلا ، تدل احصائيات عـام ١٩٦١ ـ ٦٢ الى ان نسبة الفتيات الى جميع الطلبة بالمدارس الابتدائية كانت تتراوح بـين ٣٨ في المئة في دمشق ، ٢٩ في المئة في كل من حمص وحماه ، و ١٣ في المائة في دير الزور ، وتوجد فروق مشابهة في التعليم الثانوي حيث كانت نسبة الفتيـات الى مجمـوع الطلبة ٣٢ في المائة في دمشق و١٩ في المائة في كل من ادلب ودرعا .

وتوجد فوارق مشابهة تشيراني اتساع الهوة بين تعليم الفتيات في المدن والقرى في كل من مصر والجزائر وليبيا وغيرها من الدول العربيـة . وليست هذه الظاهرة قاصرة على البلدان العربية ، ولكنها مشكلة تعاني منها جميع الدول الناميـة كمـا يتضح من الدراسات الدوليـة التي اجرتها منظمـة اليونسكو عن التحاق الفتيات بالتعليم في المناطق الريفية عامة . وتدل هذه الدراسات على ان الفتيـات تعانين معاناة مزدوجة بسبب محل اقامتهن وبسبب جنسـهن ممـا يضعهن في المرتبة الثانية فيمـا يتعلق بالاستفادة من الخـدمات التعليميـــة .

وقد ادى اهمال تعليم البنات في القرى واعطاء الاولوية لتعليـم الاولاد الى تعقيـد مشكلة الهجرة من القرى الى المـدن حيث يذهب الرجال باحثين عن عمل ويرفضون العودة الى الريف والعمل في الزراعة ، ولعكس هذه الظاهرة يجب التأكيـد على تعليم الفتيـات لرفع المستوى الثقافي للقرية العربيـة .

تعليم المرأة ومشكلـة البطالـة

من المعروف انه كلما ارتفع المستوى التعليمي للمـرأة كلما زادت فرص العمل امامها ، وقد اشارت الدراسات التي اجرتها هيئـة القوى العاملة في مصر في عام ١٩٦٢ ان عـدد النسـاء المشتغلات وخاصة في القطاع الحكومي في زيادة مستمرة ، وذلك نتيجة لتحسن

فرص تعليم المرأة ، وان نسبة مساهمة المرأة في العمل خارج البيت تزيد بين المتعلمات تعليما عاليا ، وتقل مع انخفاض المستوى التعليمي .. ففي بحث اجرته الهيئة بين ٢٥ الف امرأة مصرية على مستويات مختلفة من التعليم ، وجد ان نسبة المساهمة من القوى العاملة كانت ٧٤ في المائة بين المتعلمات تعليما عاليا ، مقابل ٤٧ في المائة بين خريجات التعليم الثانوي ، و٦ ، ٤ في المائة بين الحاصلات على أقل من التعليم الثانوي . وتشبه هذه النتائج الى حد كبير النتائج التي توصلت اليها الابحاث في الولايات المتحدة الامريكية .

وحيث ان بعض البلاد العربية ، كمصر مثلا ، تعاني من مشكلة البطالة بين المتعلمين حيث يصعب استيعاب جميع الخريجين في الوظائف الحكومية وغيرها ، فان تعليم المرأة ينظر اليه احيانا على انه قد يزيد من تعقيد مشكلة البطالة بين المتعلمين والمتعلمات ، وان النساء اصبحت تتزاحم على شغل الوظائف المحدودة مما يقلل من فرص العمل امام الرجال ، وفي المجتمع العربي يعتبر التوظف والمساهمة في القوى العاملة حقا لا نزاع فيه للرجل ، وقد اشار عالم الاقتصاد جونار ميردال في دراسته لدول اسيا « ان المجتمع الذي يصعب فيه استيعاب جميع الخريجين في العمل الاقتصادي، لا يشجع على ازالة العوائق التقليدية ضد مساهمة المرأة في القوى العاملة » . وانه لمن السخريات ان في الدول العربية حيث ترتفع نسبة الامية بين النساء ، بدأت بوادر البطالة بين المتعلمات تظهر وتحتد ، ويرجع ذلك الى سوء توزيع الفتيات على التخصصات التعليمية وتركيزهن في الكليات النظرية كما اشرت سابقا ، بينما تحتاج البلاد العربية جميعها الى خريجات في التخصصات العلمية ، ومجالات الطب والتمريض والخدمة الاجتماعية ، ويحتاج التوسع في تعليم البنات الى الآلاف من المعلمات في جميع التخصصات .

ولذلك نرى ان مشكلة البطالة بين المتعلمات والمتعلمين عامة ناتجة عن خلل في النظام التعليمي ، وسوء استغلال الخريجات والخريجين . ومن المتوقع ان التغير في الهيكل الوظيفي في البلاد العربية نتيجة لحركة التصنيع والتعمير التي بدأت تعم هذه البلاد ، سيزيد من قدرة الاقتصاد على استيعاب الخريجين من جميع المستويات التعليمية ، مما يخفف من حدة البطالة بين المتعلمين والمتعلمات ، وخاصة اذا اعيد توزيع طالبات وطلبة التعليم الثانوي والجامعي على التخصصات المختلفة والتأكيد على التخصصات العلمية والمهنية .

مساهمة المرأة في القوى العاملة

ان مستوى واهمية مشاركة كل من الرجال والنساء في المجالات الاجتماعية والاقتصادية يتحدد بمستوى ونوعية تعليم أي منهم . وقد ترتب على انخفاض مستوى تعليم المرأة العربية ، وفي تركيزه في مجالات لا ترتبط باحتياجات البلاد من اجل التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، بالاضافة الى شيوع اتجاهات تعارض اشتغال المرأة ، وتقصر دورها على البيت ، ان نسبة النشاط الاقتصادي بين النساء في البلاد العربية منخفضة جدا ، وهي تتراوح بين ١. في المائة و١ في المائة من مجموع النساء في البلدان المختلفة بمتوسط قدره ٣ في المائة في معظم البلاد العربية .

وتنخفض نسبة النشاط الاقتصادي عموما في البلاد العربية حيث تقدر بثلاثين في المائة . ويرجع ذلك الى المساهمة المحدودة للمرأة في العمل الاقتصادي ، بالاضافة الى خلل في التكوين الديمقراطي للسكان حيث ترتفع نسبة الافراد ممن هم دون سن ٢٠ سنة عنها في معظم بلاد العالم .

وتعطي الاحصاءات المتضمنة في الجدول رقم ٦ صورة موجزة من اعداد النساء الناشطات اقتصاديا وتوزيعهن على قطاعات العمل المختلفة بما فيها الاعمال باجر وبدون اجر ، في بعض الدول العربية التي تتوفر لديها هذه الاحصاءات ، وتجب الاشارة هنا الى أن بعض هذه الاحصاءات قديمة ، ولا يمكن معرفة مدى دقتها ، واستعمالها هنا ليس تمثيلا للحقيقية ولكنها ارقام تقريبية . فد تزيد آو تقل عما هو موجود فعلا في هذه البلاد .

ويتضح من هذا الجدول ما يلي :

بالرغم من ضآلة مساهمة المرأة في القوى العاملة في هذه البلاد فهن موزعات على العديد من القطاعات الاقتصادية المختلفة وأن لم يكن هنالك توازن في هذا التوزيع حيث يركز عمل المرأة في بعض المجالات ويقل في البعض الاخر ، مع التفاوت الكبير بين البلدان المختلفة في هذه الناحية . وباختصار فان عمل المرأة العربية في المجال الاقتصادي لا يقتصر على مجالات محدودة كما يزعم بعض الكتاب الغربيين فقد غزت المرأة في كثير من البلدان العربية مجالات عمل لم تكن مفتوحة للمرأة فيما مضى ، وهذا ، بفضل التوسع التعليمي للبنات في هذه البلاد . وتتميز مساهمة المرأة في العمل بما يلي :

لا زالت الغالبية العظمى أو ما يقرب من ٤٠ في المائة من النساء العاملات في البلاد العربية المذكورة في الجدول رقم ٦ وذلك باستثناء الكويت ، يعملن بالعمل في مجال الزراعة التقليدي باجر أو بدون أجر ، وذلك يرجع لقدرة الزراعة على استيعاب النساء الاميات ، وهذا يؤكد اهمية تنظيم برامج نوعية لهؤلاء النساء ، وتدريب الاعداد اللازمة من النساء للعمل في التوجيه والارشاد الزراعي ، لتحسين مستوى الانتاج الزراعي والخدمات في القرية .

ويوجد عدد كبير ، او ما يقرب من ٢٦١ الف امرأة ، في مجال الحرف والصناعات الخفيفة ، وهذا المجال ايضا يمكن مساهمة المرأة فيه دون اعداد مهني أو حرفي معين . والمتوقع أن معظم العاملات في هذا المجال اميات وغير مؤهلات حرفيا ، ويمثل هذا المجال اكبر مساهم للنساء في العمل في كل من ليبيا وتونس . ويجب اجراء البحوث اللازمة لمعرفة المستوى التعليمي للنساء في هذا المجال ودور التعليم المهني في زيادة مساهمة المرأة في الاعمال الصناعية عامة ، وخاصة في الوقت الذي تتجه فيه الدول العربية نحو التصنيع ، حتى لا يؤدي هذا التطور الى الاستغناء عن النساء لعدم توفر المهارات اللازمة لديهن .

وقد اشرت سابقا الى الاتجاهات المعادية لاشتغال المرأة وخاصة في المصانع بحجة ان هذا العمل يضر بصحة المرأة وانوثتها ، وكم من اعمال تقوم بها المرأة خارج المصانع اشق بكثير مما يقوم به كثير من الرجال .

وهناك اتجاه في بعض الدول العربية حديثا يدعو الى اشتغال المرأة في الصناعة كوسيلة للحد من النمو السكاني حيث ان المعروف ان عدد الاطفال لدى المرأة العاملة أقل منه بين النساء غير العاملات .

وتستوعب الخدمات بكل أنواعها اعدادا كبيرة من النساء في معظم البلاد العربية وبشمل ذلك الخدمات العليا التي تحتاج الى قدر كبير من التعليم مثل الخدمات الاجتماعية والصحية والمجالات الرياضية ، وكذلك الخدمات الدنيا مثل الخدمة في البيوت وهذا مجال منتشر بين النساء في المغرب ، ومن المتوقع ان يقل اقبال النساء على هذا النوع من العمل نتيجة للتوسع في تعليم الفتيات .

وتقوم اعداد كبيرة من النساء بأعمال المبيعات والتبادل التجاري الفردي وخاصة في لبنان ومصر والمغرب وتونس والجزائر . وترتفع مساهمة المرأة في المهن العليا والمتوسطة من ناحية العدد بالنسبة الى جميع العاملين في هذا القطاع حيث تمثل المرأة ما بين الربع والثلث من جميع العاملين ، وهي نسبة اعلى من نسبة مساهمتهن في العمل بوجه عام ، وتستوعب مهنة التدريس اكبر عدد من النساء العاملات في المهن العليا ، وتلك هي المهنة الوحيدة التي تتوفر عنها الاحصاءات عن نسبة النساء الى جميع العاملين ، وترتفع نسبة النساء نسبيا في مهنة الطب ولكنها اقل بكثير منها في مهنة التدريس وذلك لحداثة الدراسات الطبية للنساء في معظم البلاد العربية .

جـــدول رقـــم ٦

مجموع النساء العاملات وتوزيعهن على قطاعات العمل الرئيسية في بعض البلاد العربية

القطـــاع الاقتصـــادى	مصر ١٩٦٦	الجزائر ١٩٦٦	المغرب ١٩٧١	تونس ١٩٦٦	ليبيا ١٩٦٤	سوريا ١٩٧٢	لبنان ١٩٧٠	الكويت ١٩٧٠
لمشتغلات فى المهن العليا والوسطى	٧٨ر٧٠٠	١٨ر١٠٠	٢٣ر٨٠٠	٧ر٦٠٠	١ر٤٠٠	١٨ر٤٠٠	٤٠ر٠٠٠	٧ر٥٠٠
" " الاعمال الاداريـــة	٦ر١٠٠	١ر٢٠٠	٢٧ر٧٠٠	٣٠٠	٣٠	٠٠٠	٢٢٥	١٠
" " العمل المكتـــبى	٤٢ر٦٠٠	١٠ر٤٠٠		٥ر٣٠٠	٢٤٠	٨ر٧٠٠	٩ر٧٠٠	١ر٥٠٠
" " المبيعات والتجـــارة	٣٠ر٠٠٠	١ر٦٠٠	١٠ر١٠٠	١ر٠٠٠	١٧٠	٨٠٠	٢ر٠٠٠	١٤٠
" " الزراعـة	١٢٥ر٨٠٠	٢٣ر٢٠٠	٢٢٨ر٤٥٠	٨ر٠٠٠	٣ر٦٠٠	٢٨٩ر٠٠٠	٢١ر٢٠٠	١١
" " المواصلات والاتصـــال	١ر٥٠٠	٩٠٠	٠٠٠	٦٠٠	٩٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠
" " الحرف والصناعـــات	٤٢ر٢٠٠	١٤ر٦٠٠	١١٨ر٤٠٠	٢٨ر٢٠٠	٨ر٤٠٠	٣٠ر٠٠٠	١٨ر٥٠٠	٧٠٠
" " الخدمات والرياضـــة	٨٧ر٥٠٠	٢٩ر٠٠٠	١٢٤ر٧٠٠	١٢ر٠٠٠	٢ر٣٠٠	٢ر٠٠٠	٢١ر٢٠٠	٦ر٦٠٠
ملات فى غير المهن السابقة والباحثات ن عمل	٢٠٧ر٥٠٠	١٠ر٣٠٠	٧٣ر٠٠٠	٣ر٤٠٠	٣ر٧٠٠	٨ر٢٠٠	٥ر٣٠٠	١٤٠
جميـــع المشـــتغلات	٦٢١ر٩٠٠	١٠٩ر٥٠٠	١٠٥ر٢٠٠	٦٦ر٥٠٠	١٩ر٩٠٠	٣٥٧ر٥٠٠	٩٩ر١٠٠	١٦ر٦٠٠
النسبة المئوية الى جميع النســـاء*	٤ر٠ ٪	١ر٨ ٪	٨ر٠ ٪	٣ر٠ ٪	٢ر٧ ٪		٩ر٥ ٪	٥ر٢ ٪

المصدر : منظمة العمل الدولية ، الدليل السنوي لاحصائيات العمل ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ .

وهنالك حاجة كبرى الى تجميع الاحصاءات عن اعداد ونسب النساء في كل مهنة على حدة للوقوف على حقيقة مساهمة المرأة في هذه المجالات .

وتجتذب المهن العليا النساء في الدول العربية ، وخاصة مهن التدريس والطب والخدمة الاجتماعية لانها تعتبر متمشية مع تقاليد المجتمع الاسلامي ولانها تتمتع بمكانة عالية وخاصة مهنة الطب والتدريس بالمرحلة الجامعية .

وتساهم المرأة في مجالات الادارة مساهمة محدودة فيما عدا مصر حيث تعمل اعداد كبيرة من النساء في النظارات والتفتيش وغيرها من الاعمال الادارية وخاصة في وزارات التربية والتعليم ، والخدمة الاجتماعية ، والاعلام ، والتعليم العالي ، وتوجد نسبة لا بأس بها من النساء في الاعمال الادارية في كثير من الدول العربية حيث فرص الترقي امام النساء المؤهلات تأهيلا عاليا مفتوحة في كثير من المجالات ، ولكن لابد من المزيد من النساء في المراكز القيادية حتى يكن نموذجا تحتذي به الفتيات والنساء ، وليس في ذلك مزاحمة للرجال ولكن مشاركة في تحمل المسئوليات وبناء المجتمع .

ويستدعي ذلك تغييرا في اتجاهات المجتمع نحو المرأة وقدرتها على القيام بالاعمال القيادية .

وقد كانت اعمال السكرتارية من المجالات التي يقل اقبال النساء عليها في المجتمع الاسلامي لانها تستدعي الاختلاط بالرجال ، ولبنان هو البلد العربي الوحيد الذي تصل فيه نسبة النساء في اعمال السكرتارية الى ٢٥ في المائة ، ويليه تونس . اما في بقية البلاد العربية فلا زالت مساهمة المرأة في هذا المجال محدودة ، وان كان هنالك تطور كبير في هذه الناحية نتيجة للتوسع الكبير في التعليم التجاري للبنات في مصر مثلا ، ونتيجة لانشاء معاهد السكرتارية .

مما تقدم يتضح ان مساهمة المرأة في الاعمال المختلفة في زيادة مستمرة وتشمل معظم المجالات في كثير من البلدان العربية ، ولا زالت مساهمة المرأة محدودة في بعض البلاد مثل العربية السعودية حيث يقتصر عمل المرأة على التدريس والتمريض والطب والخدمة الاجتماعية. وبزيادة فرص تعليم النساء في كل البلاد العربية فمن المتوقع ان يزيد عدد النساء العاملات زيادة كبيرة ، وان تفتح امامهن مجالات عمل جديدة وخاصة في العمالة المدربة . ففي تونس مثلا زاد عدد النساء العاملات من ٦٦٫٥٠٠ بنسبة ٣ في المائة من كل العاملين عام ١٩٦٦ الى ما يزيد على ٣٤٠ الف بنسبة ١٣ في المائة عام ١٩٧١ . وخلال نفس الفترة تضاعف عدد النساء العاملات في سوريا اربع مرات من ٨٨ الف الى ٣٠٧ آلاف . بينما تدل الاحصاءات على أن عدد النساء العاملات ونسبتهن الى جميع العاملين لم تتغير في مصر بين عامي ١٩٦٠ الى ١٩٧٢ بينما تغير توزيع العاملات على القطاعات المختلفة حيث انخفضت مساهمتهن في مجال الزراعة والحرف غير المدربة وزادت في مجالات المهن العليا والمتوسطة .

وتجب الاشارة هنا الى انه بالرغم من انخفاض نسبة العمالة بين النساء في العالم العربي ، فان المرأة العربية العاملة تتمتع بامتيازات لم تحصل عليها المرأة الغربية ، مثل تساوي الاجور في الاعمال المتساوية وخاصة في القطاع الحكومي ، والامتيازات العينية ، وفرص الترقي على قدم المساواة مع الرجال وذلك ناتج عن اتباع نظام الترفية الاجتماعية وشغلت المرأة منصب وزيرة في العراق في الخمسينات ، وفي مصر في الستينات ، ويجب المحافظة على هذه المنجزات بل وزيادتها .

فبغض النظر عن مبادىء العدالة والمساواة التي تحتم اتاحة الفرص المتكافئة للمرأة في التعليم والعمل ، فان المجتمع العربي اليوم يواجه اقسى التحديات ويمر بفترة تطور وبناء لم يشهدها في الماضي ، وهو في هذه الفترة في اشد الحاجة الى الافراد المتدربين من الجنسين على جميع المستويات . ويمكن القول هنا ان المرأة العربية ثروة بشرية لم تستثمر ولم تستغل بعد بالقدر الكافي . ويمكن الاعتماد عليها لكفاية حاجة هذه البلاد من القوى العاملة المتدربة في مجالات لا تتعارض مع تقاليد المجتمع العربي ، فانا أتوقع أن يستمر في البلاد العربية التمييز بين تلك الاعمال التي تعتبر اكثر ملاءمة للنساء وأخرى للرجال ، ويجب اجراء البحوث لحصر كل الاعمال التي يمكن زيادة مساهمة المرأة فيها لتحسين الكفاءة وزيادة الانتاج . وقد يبدو لاول وهلة ان هذه الاعمال قاصرة على التدريس والتمريض والطب والخدمة الاجتماعية كما يزعم البعض المخططون للقوى العاملة في بعض البلاد العربية .

فبالاضافة الى هذه المجالات توجد اعمال المحاسبة والصيدلة واجراء البحوث بكل انواعها ، والارشاد الزراعي ، واعمال الادارة والتخطيط التربوي والاقتصادي ، ويجب ان يتسع نطاق عمل المرأة فيشمل جميع المستويات من العمل اليدوي في المصنع الى المساهمة في وضع السياسة التعليمية والاقتصادية ، وخاصة في تلك المجالات التي يكون لها تأثير على حياة المرأة والاسرة بوجه عام .

يتضح مما سبق ان هنالك حاجة ماسة الى المزيد من الايدي العاملة النسائية وخاصة في قطاعات العمل الحديثة في كل البلاد العربية ، وباستطاعة هذه البلاد ان تعتمد على رصيدها من النساء لرفع مستوى القوى العاملة كما وكيفا ، ولا يعني ذلك تحويل المجتمع العربي الى مجتمع غربي ، ويمكن المحافظة على الطابع الشرقي الاسلامي بالتأكيد على رفع مساهمة المرأة في تلك المجالات التي يعتبر العمل فيها متمشيا مع تقاليد المجتمع ، مع ترك مجال العمل مفتوحا في كل المجالات التي ترغب النساء العمل فيها ، والتي يكون لديهن الاستعداد والقدرة على ادائها وان يتسع شعار الرجل المناسب في العمل المناسب ، « ليشمل المرأة الكفء في العمل المناسب » .

فهنالك اعمال اثبتت المرأة تفوقها في ادائها ، واذا اتيحت فرص العمل المتكافئة امام المرأة في مجالات عديدة متنوعة لاثبتت قدرتها وكفاءتها فيها .

وفيما يلي اذكر بعض المجالات التي يجب ان تعطى الاولوية في محاولات زيادة مساهمة المرأة في القوى العاملة .

الحاجة الى المعلمات

تقاسي جميع البلدان العربية من نقص شديد في المعلمين والمعلمات لسد احتياجات التوسع التعليمي في كل المراحل . ويمكن سد العجز في هذا المجال عن طريق زيادة مساهمة النساء في مهنة التدريس من مرحلة الحضانة حتى الجامعة ـ فمثلا في هذه المهنة التي تعتبر متمشية مع تقاليد المجتمع الاسلامي ، لا زال تمثيل المرأة فيها أقل من المطلوب ، وتدل الاحصاءات على ان نسبة المعلمات الى مجموع المعلمين من الجنسين أقل في البلاد العربية منها في معظم دول العالم حيث يعتبر التدريس بالمرحلة الابتدائية مهنة نسائية . وحيث تتساوى مساهمة النساء والرجال في التدريس بالمرحلة الثانوية ، اما في البلاد العربية فلا زالت نسبة المعلمات في المرحلة الابتدائية اقل من النصف من مجموع المعلمين فيما عدا مصر والعراق والاردن وقطر ، والى حد ما الكويت والبحرين وذلك نتيجة للزيادة الكبيرة بأعداد المعلمات في هذه البلاد خلال السنوات القليلة الماضية .

ويعطي الجدول رقم ٧ اعداد المعلمات ونسبتهن الى مجموع المعلمين حسب المرحلة في كل بلد على حدة . وتدل هذه الاحصاءات ان نسبة النساء تقل في المراحل العليا من التعليم ، وتقل احيانا عن نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة مما يؤدي الى الاستعانة بالمعلمين في مدارس البنات الثانوية ، ونادرا ما تقوم المعلمات بالتدريس في مدارس البنين كما في العراق مثلا ، وقد لجأت المملكة العربية السعودية حديثا لسد النقص في معلمي المرحلة العليا الى الاستعانة بالتلفزيون لتوصيل محاضرات الاساتذة الرجال الى الطالبات . ويحتاج التوسع في تعليم البنات على جميع المراحل الى الالاف من المعلمات وخاصة معلمات المرحلة الابتدائية . ومن المقدر انه لتحقيق هدف تعميم التعليم الالزامي في عام ١٩٨٥ حسب توصيات مؤتمر مراكش ان يزيد عدد المعلمين والمعلمات الى ٩٦٤ الفا ، ويكون النصف او اكثر من النساء . اي انه يجب ان يتوفر لدى هذه البلاد ما يقرب من نصف مليون معلم بينما كان عدد معلمات الابتدائي أقل من ١٢٤ الفا في عام ١٩٧١ - ٧٢ . هل تستطيع هذه البلاد بامكانياتها الحالية تدريب ٣٥٠ الف معلمة في مدة ١٥ سنة ؟ والواضح ان معاهد اعداد المعلمات لا تستطيع وحدها توفير احتياجات هذه البلاد من المعلمات ، ويحتاج التوسع في انشاء معاهد المعلمات اموالا باهظة تعجز معظم البلاد العربية عن توفرها ، ولذلك فانني ارى ضرورة ادخال المواد التربوية في المدارس الثانوية وجميع الكليات التي فيها اعداد كبيرة من الفتيات والنساء حتى يمكن الاستعانة بالخريجات في التدريس بالمرحلتين الابتدائية والثانوية ، حتى اذا اقتضى الامر تكليف الخريجات بالتدريس في المدارس الابتدائية خاصة ولو فترة معينة ، ولابد من توفير الحوافز اللازمة لتشجيع الخريجات للعمل بالتدريس ، ورفع مكانة المعلمة والمعلم .

الجدول رقم ٧

اعداد المعلمات ونسبتهن الى مجموع المعلمين حسب المرحلة التعليمية عام ١٩٧١ - ٧٢

البلد (١)	عدد المعلمات: التعليم الابتدائي	الثانوي	العالي	النسبة المئوية: ابتدائي	ثانوي	جامعي
مصر	٥٢ر٠٠٠	[illegible]	٠٠٠	٥٣	٢٩	٠٠٠
العراق	١٨ر٣٠٠	[illegible]	١ر٠٠٠	٧١	٣٣	١١
الجزائر	١١ر٩٠٠ *	[illegible]	٠٠٠	٢٦	٢٧	٠٠٠
سوريا	٩ر٣٠٠	[illegible]	١٠٩	٣٦	٢٩	٩
السودان	٧ر٧٠٠	[illegible]	٠٠٠	٢٣	١٩	٠٠٠
المغرب	٦ر٣٠٠	[illegible]	٩٦	١٨	٣٠	١٤
السعودية	٥ر٠٠٠	[illegible]	٦٩	٢٨	١٨	٧
الأردن	٣ر٨٠٠	١ر٧٠٠	٥٩	٤٩	٣٤	٢٠
ليبيا	٣ر٤٠٠	٦٠٠	١٧	٢٤	٢٩	[illegible]
الكويت	[illegible]	[illegible]	٢٣	٤٦	٤٥	١٠
تونس	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
اليمن الديمقراطية	[illegible]	٢٠٠	٥	[illegible]	[illegible]	[illegible]
قطر	٥٠٠	١٢٦	٠٠٠	٥٦	٣٣	—
البحرين	٤٠٠	١٢٨	١٣	٤٢	٣٣	٣١
اليمن	٢٣	٠٠٠	—	٢	٠٠٠	—

* عام ١٩٦٨ .

(١) مرتبة تنازليا حسب عدد المعلمات في المرحلة الابتدائية

أ - عام ١٩٦٥

المصدر : اليونسكو ، الدليل الاحصائي السنوي عام ١٩٧٣ .

ويعطي جدول رقم ٨ صورة موجزة عن الزيادة في اعداد المعلمات في الفترة ١٩٦٠ - ٦١ الى ١٩٧١ - ٧٢ . ويلاحظ ان عدد المعلمات في جميع المراحل قد تضاعف اربع مرات خلال تلك الفترة ، وكانت الزيادة في معلمات المرحلة الابتدائية اقل منها في كل من المرحلتين الثانوية والعالية ، وكلها زيادات هائلة تشهد على مجهودات الدول العربية في هذا المجال ، وعظم المسئولية التي واجهتها هذه البلاد في التوسع التعليمي خاصة ، مما يؤكد ان الاعتماد على الوسائل التقليدية في التوسع في التعليم النظامي ومجال تعليم الكبار لن يكفي لتحقيق التقدم المنشود ، ولابد من تعبئة كل الجهود والطاقات لتوفير القوى العاملة والامكانات اللازمة ، حتى لو استدعى الامر اللجوء الى الخدمة الاجبارية وقد لجأت مصر حديثا الى الاستعانة بخريجات وخريجي الجامعة لمواجهة العجز في معلمات ومعلمي الابتدائي ، وقد امكن ذلك عن طريق تنفيذ قانون الخدمة العامة لمدة سنة لخريجي الجامعة ، وفي هذا العام ٧٥ - ٧٦ طلبت وزارة التربية والتعليم ٦٠٠ر٧ مكلف من الجنسين لهذا الفرض . وقد اطلت في الحديث عن هذا الموضوع لايماني بضرورة تعميم التعليم الالزامي وخاصة للبنات ، وبأهمية الاستعانة بالالاف من خريجات الجامعة اللائي يتهافتن على العمل في مكاتب الحكومة بينما المدارس في أشد الحاجة الى خدماتهن . ولا بد ايضا من الاستعانة بالتقنيات التعليمية الحديثة لتسهيل مهمة المعلمين والمعلمات .

وهنالك حاجة كبرى الى مساعدات المعلمات لتمكين المعلمات المؤهلات من العمل في فصول مدرسية كبيرة نسبيا حيث يتوقع ان يبقى عدد الطالبات بالنسبة للمعلمة على ما هو عليه حاليا بل قد يزيد في فترة التوسع الكبير لاستيعاب اكبر قدر ممكن من التلميذات في سن الدراسة .

جدول رقم ٨

مؤشرات الزيادة في اعداد المعلمات بالبلاد العربية

المرحلة	عام ١٩٦٠	عام ١٩٦٥	عام ١٩٧٠	عام ١٩٧١
كل المراحل	١٠٠	٢٠٠	٣٤٨	٤١٠
المرحلة الابتدائية	١٠٠	١٥٨	٢٠٩	٢٢٦
المرحلة الثانوية	١٠٠	١٥٥	٢٢٠	٢٢٥
المرحلة العالية	١٠٠	١٥٦	٢٨٩	٢١١

وسيتبع تعميم التعليم الالزامي الابتدائي - الذي قد لا يتحقق في عام ١٩٨٥ - مد سن الالزام ليشمل المرحلة الاعدادية كما فعلت كل من الاردن والكويت وليبيا . وسيحتاج ذلك الى اعداد طائلة من المعلمات والمعلمين ، كما ان ذلك سيؤدي الى توسع كبير في المرحلة العليا من التعليم الثانوي وما سيتطلبه ذلك من زيادة في اعداد المعلمات لتلك المرحلة . ويصح ذلك بالنسبة للمرحلة الجامعية أيضا .

ولا تقتصر الحاجة الى المعلمات على الناحية الكمية فقط ، بل تتعداها الى الناحية الكيفية ، وذلك لاستبدال المعلمات والمعلمين غير المؤهلين بغيرهم على المستوى اللازم من التعليم والاعداد التربوي .

وهنالك حاجة ماسة الى معلمات الكبار للعمل في ميدان محو الامية ومحاربة تلك الافة في العالم العربي .

وباختصار نرى ان جميع البلاد العربية تعاني من عجز في المعلمات وخاصة معلمات اللغات الاجنبية والعلوم والرياضيات . وهذه الظاهرة موجودة حتى في مصر التي تعير الآلاف من المعلمات لغيرها من الدول العربية والافريقية . ومن ناحية اخرى فان دولا عربية عديدة تعتمد اعتمادا كبيرا على المعلمات المغتربات اللائي تزيد نسبتهن عن المواطنات في كل من السعودية والكويت بوجه خاص ،

والحاجة الى المعلمات من المواطنات في هذه البلاد واضحة ، وقد بذلت هذه البلاد جهودا كبيرة في هذا المجال ، ويشهد على ذلك التوسع الكبير في تعليم اعداد المعلمات خلال السنوات القليلة الماضية وخاصة في المملكة العربية السعودية .

من هذا يتضح انه اذا توفرت احتياجات البلاد العربية من المعلمات فقط لامكن مضاعفة اعداد النساء العاملات في هذه البلاد . فما بالنا باحتياجات هذه البلاد الى النساء العاملات في مجالات الطب والخدمة الاجتماعية والاعمال الادارية والبحوث وادارة المكتبات والصناعات المختلفة ، ومجالات الاعلام وغيرها من الانشطة الاقتصادية .

الحاجة الى العاملات في مجال الخدمات الطبية

في فترة التحول التي يمر بها العالم العربي حاليا ، تبذل مجهودات كبيرة لتحسين مستوى الخدمات الصحية بزيادة عدد الاطباء من الجنسين والممرضات وانشاء المستشفيات والوحدات الصحية العلاجية والوقائية في جميع انحاء هذه البلاد ، ويحتاج ذلك الى اعداد هائلة من القوى العاملة في المجالات الطبية من الاطباء والطبيبات والممرضات والمساعدات الصحيات ، وقد اشرت سابقا الى ان مستوى التحاق الفتيات بكليات الطب في بعض البلاد العربية مرتفع نسبيا عنه في كثير من دول العالم ، وهذه ظاهرة طيبة ، ولكنها لا تفي باحتياجات المجتمع العربي ، اذ تحتم تقاليد هذا المجتمع توفر اعداد متساوية من الطبيبات والاطباء . ولا توجد احصائيات عن نسبة النساء في مهنة الطب ، ويمكن القول بأنها لا زالت نسبة صغيرة جدا وذلك يرجع الى حداثة التعليم الطبي للنساء في كثير من البلدان العربية ، ولا تكفي الاعداد الموجودة حاليا من الطبيبات لتوفير الخدمات الطبية للنساء والاطفال او ما يزيد على نصف سكان العالم العربي .

وتوجد حاجة كبرى الى الممرضات والمساعدات الصحيات في جميع البلاد العربية ، حيث يصل عدد الممرضات الى ما يقرب من خمس عدد الاطباء بينما يجب ان يعكس هذا الوضع وان يزيد عدد الممرضات زيادة كبيرة عن عدد الاطباء والطبيبات ، وقد توسعت الدول العربية حديثا في انشاء معاهد التمريض على المستوى الجامعي لرفع مستوى ومكانة مهنة التمريض ، ولتوفير الاعداد اللازمة من الممرضات المؤهلات تأهيلا عاليا لتوفير الخدمات الصحية اللازمة في المستشفيات وتقليل الضغط على الاعداد المحدودة من الاطباء والطبيبات ، وقد لا تتمكن الدول العربية في المستقبل القريب من توفير الاعداد اللازمة من الممرضات وزيادة معدلهن بالنسبة للاطباء والطبيبات ، ولكنه هدف يجب ان يوضع في الاعتبار عند التخطيط للتوسع في تعليم البنات ، ولتحسين الخدمات الصحية . وهنالك ايضا حاجة الى المساعدات الصحيات على المستوى المتوسط من خريجات التعليم الثانوي او الكليات المتوسطة ، لتقليل الضغوط على التعليم العالي ، ولتوفير الخدمات الصحية العامة مثل نشر التوعية الصحية ، ومقاومة الامراض المتوطنة والعمل في الصحة الوقائية وما شابه ذلك من خدمات لرفع المستوى الصحي في العالم العربي .

وتعتمد الكويت والمملكة العربية السعودية ودول الخليج العربي اعتمادا كبيرا على الطبيبات والممرضات المغتربات وقد بدأت مجهودات حديثة في هذه الدول لزيادة رصيدها من العاملات في المجالات الطبية من بين مواطناتها بفتح معاهد التمريض ، وايفاد الطالبات لدراسة الطب خارج تلك البلاد ، كما فتحت المملكة العربية السعودية حديثا الدراسات الطبية بجامعاتها للمرأة السعودية .

ولا يتسع المجال هنا لحصر كل الاعمال التي تحتاج الى المزيد من النساء العاملات وهذا ميدان يتسع للدراسة والتحليل على مستوى الدولة أو العالم العربي أجمع للتعرف على احتياجات كل دولة من القوى العاملة النسائية وامكانيات التوسع في تعليم المرأة ومساهمتها في القوى العاملة . ولابد من تعاون الوزارات المختلفة داخل كل بلد مثل وزارات التربية والتعليم العالي ، والعمل ، والصحة ، والشئون الاجتماعية ، والقوى العاملة ، والتخطيط ، لان توفير القوى العاملة اللازمة لاحتياجات التنمية لا يمكن ان يقع على عاتق وزارات التربية والتعليم وحدها . ولابد من التعاون ايضا على نطاق المنطقة العربية كلها حتى يمكن استثمار الثروة المادية في تنمية الثروة البشرية وخاصة تلك الثروة النسائية التي لم تستغل بعد بالقدر الكافي .

خاتمة

اوضح هذا البحث عدة انجازات وكثيرا من المشكلات التي تتعلق بتعليم المرأة ومساهمتها في القوى العاملة في البلاد العربية . فلقد دخلت هذه البلاد ميدان تعليم المرأة ومساهمتها في قطاعات العمل العصرية متأخرة ، ومع ذلك فقد تمكنت من السير بخطى سريعة بعيدا عن التخلف ، ولكنها لم تلحق بعد بركب التقدم ، وعليها ان تحدد الاتجاه ، وتضع الاولويات ، وترسم الاستراتيجيات لزيادة فرص تعليم المرأة ومساهمتها في تطوير المجتمع .

وستظل مهمة تعليم المرأة الاساسية هي رفع مستواها الثقافي ، واعدادها لاداء مهمتها كربة بيت لتساهم مساهمة غير مباشرة في تنمية المجتمع اجتماعيا واقتصاديا عن طريق بث العادات والاتجاهات السليمة المتطورة في ابنائها وبناتها . ولذلك يجب ان تعطى الاولوية لتعميم التعليم الالزامي للبنات ، واعطاء عناية خاصة لبرامج تعليم الشابات ، بين سن ١٤ و ٢٠ سنة ، اللائي فاتتهن فرص التعليم النظامي ، ولبرامج محو الامية بين كبار النساء ، وذلك لرفع المستوى الثقافي للمجتمع العربي ، وقد يكون العام الدولي للمرأة حافزا للدول العربية التي لم توقع بعد اتفاقية الامم المتحدة بشأن عدم التمييز ضد النساء في التعليم ، لتوقيع هذه الاتفاقية ، اعترافا باهمية تعليم المرأة لاداء دورها داخل البيت وخارجه .

بالاضافة الى ذلك ، يجب اعادة توزيع الفتيات على التخصصات المختلفة في التعليم الثانوي والجامعي ، وتشجيع الفتيات على الالتحاق بالتخصصات العلمية والعملية والتربوية بغرض زيادة النشاط الاقتصادي بين النساء وخاصة في قطاعات العمل الحديثة . ويمكن تحقيق ذلك دون زيادة باهظة في مخصصات التعليم ، وذلك بحسن استغلال الموارد الحالية ، وزيادة كفاءة النظم التعليمية ، وتقليل الضياع للموارد البشرية والمادية .

وقد اكد ميثاق العمل لجامعة الدول العربية « ان الرجل والمرأة شريكا حياة ومصير ، ولابد لهما من الاسهام معا في صنع الحياة على اساس من التعاون والمساواة » .

وكما قالت مارجريت ميد عالمة الانثروبولوجي الامريكية :

« اذا قبلنا مبدأ انه يمكننا بناء عالم افضل باستخدام المواهب المختلفة لكل جنس ، كان لدينا نوعان من الحرية ، حرية استخدام المواهب المعطلة لكل جنس ، وحرية التسليم بتفوق كل جنس على الاخر في مجالات خاصة ، والعمل على تنمية هذه المواهب » .

لقد ساندت المرأة الرجل في كفاحه عبر القرون ، اذ وقفت دائما وراءه تؤيده وتسانده ، وتقضي متطلبات الحياة الحديثة ان تترك المرأة مكانها خلف الرجل ، وان تقف بجانبه ، لتسهم معه في بناء الاسرة والمجتمع ، وفي تحمل مسئوليات الحياة .

ان العالم العربي محدود الثروات الطبيعية ، ولن تستمر الثروة البترولية الى الابد ، ولكي يتقدم المجتمع العربي لابد من تغيير وجه الارض التي يعيش عليها . فاذا اراد تحويل الصحراء الى جنات غناء ، توفر الغذاء للملايين المتزايدة ، فلابد من الاعتماد على مجهودات كل فرد في المجتمع برجاله ونسائه .

د. نجاة المرسي السنباري
دائرة دراسات الشرق الاوسط
بجامعة كاليفورنيا بركلي

توصيات مؤتمر قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي

انطلاقا من أهمية دور المثقف العربي في تطوير وبناء مجتمعه العربي وضرورة مشاركة كل انسان عربي اينما كان في عملية البناء هذه ، تعاون المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب واتحاد خريجي الجامعات الامريكيين العرب في عقد مؤتمر في الكويت ما بين ٢٨-٣١ ديسمبر ١٩٧٥ يتناول موضوع قضايا تنمية الموارد البشرية في الوطن العربي .

وقد شارك في المؤتمر عدد من اتحاد خريجي الجامعات الامريكيين العرب وعدد من رؤساء الجامعات العربية ونخبة من المفكرين العرب وبعض اساتذة الجامعة في الكويت وبعض المهتمين بقضايا تنمية الموارد البشرية ، والقيت في المؤتمر بحوث متصلة بالموضوعات وجرت مناقشات اتسمت بالموضوعية ، وقد اجمع المشتركون على أن :

مايمر به الوطن العربي في هذه المرحلة التاريخية ونحن على أبواب الربع الاخير من القرن العشرين ، يدعونا الى المناداة من الكويت ، القطر العربي الذي تمثلت فيه الكثير من الممارسات الديمقراطية واتاح للافكار والاراء ان تتفاعل في هذا التجمع العربي على الارض العربية غير المسبوق في فكرته وتطبيقه ان نعلن :

ان هدف الامة العربية في الربع الاخير من القرن العشرين هو ان يكون الانسان العربي وسيلة التنمية وغايتها وتحقيق ذلك يمكن من خلال مباديء عامة هي :

١ ـ الحرية : وخاصة الحرية الفكرية التي تخلق المبادرة وتطلق للعقل فرص الابتكار في حدود الالتزام باهداف المجتمع العربي العليا.

٢ ـ الديمقراطية : التي تتيح للانسان العربي التعبير عن رايه ورسم خططه المستقبلية دون ضغوط او فروض ، وهي نابعة من الممارسة القائمة على مبدأ احترام الانسان وعدم استغلاله .

٣ ـ المساواة : التي يجب ان يتمتع بها الانسان العربي في داخل قطره او في الاقطار العربية الاخرى ، ولا تحدها الا درجات العطاء من ذلك الانسان وتبعده كليا عن انواع التفرقة القانونية او العرفية .

٤ ـ فتح الحدود العربية وبناء القاعدة الاقتصادية للمواصلات والاتصالات كي يتنقل العربي بجسمه وفكره في وطنه العربي حرا لاتقيده قيود او عقبات .

ان استراتيجية التنمية الاقتصادية المعاصرة في كافة البلاد العربية تركز على استثمار راس المال المكثف
Capital Intensive Development

وعلى التكنولوجيا الغربية والزراعة التجارية للتصدير وكلها ثبت اتجاهات الاقتصاد والعمالة التي كانت سائدة في عهد الامبريالية الماضي .

هذه الاتجاهات هي :

١ ـ زيادة اعداد ونسب القوة العاملة غير المنتجة .

٢ ـ زيادة اعداد ونسب القوة العاملة غير الماهرة .

٣ ـ زيادة اعداد ونسب البطالة والبطالة المقنعة .

٤ ـ خفض اعداد المرأة في الاقتصاد المنتج داخل وخارج البيت .

هذه الظواهر هي اساس المعضلة الانسانية الناجمة عن استراتيجية التنمية العربية المعاصرة . فتطور وتنمية الموارد البشرية يعتمد في الاصل على تطور اقتصاد عربي منفصل عن الامبريالية والامبريالية الجديدة ومعتمد على النفس .

التوصيات

اولا : موضوع احتياجات القوى البشرية والتخطيط والتنمية في الوطن العربي :

١ ـ مناهج التنمية واستراتيجياتها :

ـ يوصي المؤتمر باجراء الدراسات المقارنة عن المناهج والوسائل المتبعة في العالم العربي في مجال التنمية وتقديم الحلول والاقتراحات بغية تطويرها وفاعلية برامجها .

٢ ـ احتياجات التربية والتنمية :

ـ اجراء البحوث باستمرار للتعرف على احتياجات الدول العربية مجتمعة ، وكل دولة على حدة ، من القوى العاملة في المستويات المختلفة والقطاعات الاقتصادية المتنوعة مع اتخاذ الخطوات اللازمة للاسراع في تأهيل واعداد المزيد من القوى العاملة والتخطيط السليم لاعدادها .

ـ يدعو المؤتمر الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي لاجراء دراسة شاملة لموضوع الهجرة الداخلية في الوطن العربي وآثارها الاقتصادية والاجتماعية على الدول المعنية .

٣ ـ تنمية القووة العاملة :

ـ ضرورة الاهتمام بظاهرة النمو السريع للقوة العاملة غير الماهرة في العالم العربي ، واجراء الدراسات العلمية والميدانية حولها بغية التخطيط السليم لاعدادها وتدريبها .

ثانيا : التربية وتنمية الموارد البشرية في العالم العربي :

١ ـ مهمة التربية :

ـ يؤكد المؤتمر على ان مهمة التربية هي النظر الى الانسان ككائن تكمن فيه طاقات هائلة ووظيفتها تحرير هذه الطاقات ، والا

نقف عند ارادة القادرين وجهود العارفين بل علينا ان نسأل في النهاية عن مصير نتائجها في سوق العمل والانتاج .

٢ ـ بناء النظام التربوي :

ـ يؤكد المؤتمر على ان اسس النظام التربوي يجب ان تنبع من احتياجات الوطن العربي من اجل بناء الانسان العربي التقدمي المعاصر ولتخدم احتياجات التنمية .وان يتكامل التخطيط التربوي والتخطيط الاقتصادي في اطار كلي شامل .

ـ يوصي المؤتمر بتشكيل لجنة من المؤتمرين لمقابلة سمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء من اجل احياء فكرة « الصندوق الكويتي للابحاث العلمية العربية » على ان تؤلف اللجنة من السيد عبدالله النيباري ، الدكتور حسن ابراهيم ،الدكتور عبدالسلام المجالي ، السيد صلاح‌الدين البيطار ، الدكتور هشام شرابي ، الدكتور نصير عازوري ، الدكتور ابراهيم سعدالدين .

ـ يدعو المؤتمر الى اجراء دراسات موضوعية للقيم الاجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين المرأة والرجل ودور كل منهما في المجتمع العربي وما يحدث له من تغيرات .

٣ ـ تكافؤ فرص التعليم :

يدعو المؤتمر جميع الدول العربية الى اتخاذ الخطوات التنفيذية لتطبيق مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية في جميع المراحل ، وعلى الاخص بالنسبة للفتيات واعطاء الاولوية لتعميم التعليم الابتدائي للبنات كخطوة اساسية نحو محو الامية في العالم العربي والتأكيد على التعليم المهني والفني للبنات على اعتبار ان المرأة تمثل نصف الثروة البشرية ولا بد من زيادة مساهمتها في تحسين القوى العاملة كما ونوعا .

ـ كما يدعو المؤتمر حكومة الكويت لاصدار قرار بقبول جميع ابناء وبنات الوافدين العرب في مدارسها في مختلف المراحل .

٤ ـ الامية في الوطن العربي :

اعرب المؤتمرون عن قلقهم من تزايد اعداد الامية في الوطن العربي ، واكدوا انه لايمكن ان تتحقق تنمية فعالة للوطن العربي ولموارده البشرية الا بمحو الامية في الوطن العربي في مدة محددة وبوسائل جذرية .

٥ـ بطالة المتعلمين :

تدارس المؤتمرون مشكلة بطالة المتعلمين من المستويين الثانوي والجامعي ، ورأوا انه لابد من التأكيد على التعليم الفني والمهني لحل هذه المشكلة ومواجهة احتياجات التنمية .

٦ ـ التعليم الجامعي :

ناقش المؤتمرون اوضاع التعليم الجامعي في الوطن العربي واوصوا بما يلي :

ـ توفير الحرية الاكاديمية والجو العلمي المناسب للدراسة والبحث والحوار .

ـ تطوير النظم الادارية بما يجعلها اداة فعالة في الانتاجية العلمية للطالب والاستاذ .

ـ تحديث المناهج واثرائها وتشجيع البحوث العلمية التكنولوجية والدراسات الاجتماعية التطبيقية لتلبية حاجات التنمية .

ـ اتباع وسائل حديثة في قبول الطلبة وتوزيعهم على الكليات المختلفة .

ـ التوسع في انشاء معاهد التكنولوجيا في العالم العربي ومعاملة خريجيها على قدم المساواة مع خريجي الكليات الجامعية الاخرى وبخاصة في متابعة النمو العلمي لخريجيها .

ـ يوصي المؤتمر بانشاء مركز للدراسات العليا القومية يهتم بتوفير مناخ علمي وبيئة ثقافية لاتاحة الفرصة للقيام بدراسات وابحاث تعالج القضايا القومية والعالمية التي تهم العالم العربي وتساعد على تنمية موارده البشرية وتطلعاته المستقبلية .

ثالثا : استعادة العرب العاملين بالخارج .

ـ اجمع المؤتمرون على أن الوسائل الكفيلة باسترجاع الكفايات تشمل منح اصحابها حوافز مادية مقاربة في مستواها بالاوضاع التي كانوا يتمتعون بها في الخارج وكذلك توفير مؤسسات واجواء علمية ومهيأة للبحث العلمي او تسهم في مشروعات التنمية وتكليف العائدين بمسئوليات تتكافأ مع قابلياتهم وطموحهم .

ـ اقامة مركز للكفاءات العربية كمستودع لتجميع وترتيب المعلومات عن الكفاءات العربية العلمية والفنية والثقافية لاستفادة الدول العربية على افضل وجه ، والعمل كنقطة بداية على اصدار دليل مبدئي للكفاءات العربية بالخارج بالتعاون مع الهيئات الاقليمية العربية والدولية المعنية .

ـ تيسير الاجراءات لتمكين العلماء العرب في الخارج الذين لاتسمح ظروفهم بالعودة الدائمة الى الوطن العربي بخدمة التنمية العربية عن طريق العمل لمدد قصيرة أو طويلة ، في ضوء ما تحتاجه مشاركتهم الفعالة بمشاريع ومعاهد البحوث العلمية والتنمية العربية.

ـ اجراء البحوث والدراسات لتحديد العوامل المرتبطة بهجرة العقول العربية للخارج وسبل جذبها للمساهمة في خطط التنمية والحوول دون تكرارها في المستقبل .

رابعا : توصيات عامة

ـ يوصي المؤتمرون بعقد مثل هذا المؤتمر بانتظام مرة كل سنتين لمناقشة قضايا التنمية التي تهم العالم العربي ، وان يتم التركيز على جوانب متخصصة معينة لموضوعاته .

ـ يتمنى المؤتمرون على المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ان يقوم بطبع البحوث والمناقشات والتوصيات التي القيت او طرحت في المؤتمر ، كما يتمنى ان تصدر طبعة باللغة الانجليزية لهذا الكتاب المقترح .

ـ يوصي المؤتمر جميع الحكومات والمؤسسات العربية بتقديم الدعم المعنوي والمادي للمؤسسات العربية التي تعمل في مجال التعليم في الارض المحتلة ويخص بالذكر جامعة بيرزيت ، وذلك لكي تتمكن من استيعاب اكبر عدد من العلماء العرب الموجودين حاليا في الخارج ومن اجل المحافظة على الوجود الفلسطيني وصموده على ارضه .

ـ يوصي المؤتمر بتشكيل لجنة متابعة مؤلفة من المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب واتحاد خريجي الجامعات الامريكيين العرب لتنفيذ توصيات ومقررات هذا المؤتمر .

يتوجه المؤتمرون بالشكر لسمو ولي العهد رئيس مجلس الوزراء لتفضله برعاية المؤتمر ، كما يشكر السيد وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والسيد امين عام المجلس الوطني والسيد رئيس اتحاد خريجي الجامعات الامريكيين العرب على ما بذلوه في سبيل عقد هذا المؤتمر .

كذلك يتوجه المؤتمر بالتقدير لجهود الصحافة والاذاعة والتلفزيون في الكويت ووكالات الانباء على تغطيتها الشاملة الممتازة لوقائع المؤتمر ومناقشاته واسهامها بذلك في اثارة الوعي لدى ابناء الامة العربية حول اهمية تنمية الموارد البشرية في حاضر هذه الامة ومستقبلها .

الحركة الانعزالية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

« لبنانيون يسعون الى الاستقلال بالغاء الانتداب ، واخرون يتعلقون بالسلطة المنتدبة وبدوام سيطرتها فيستعينون بها ويستمدون منها نفوذهم ومكانتهم . لبنانيون ينادون بالتعاون مع البلاد العربية ، واخرون يتمسكون بالعزلة والانكماش ويولون وجههم شطر الغرب وحده ، ويديرون ظهرهم للشرق رافضين كل تعاون معه ، متنكرين للغته وتقاليده . روح لبنانية حقيقية لاتفرق بين مسيحي ومحمدي (مسلم)، وروح انتهازية ترتكز على تعصب طائفي ذميم مستترة بالوصاية الاجنبية لتحقيق اهداف خاصة . وليس هناك من غيرة على الدين ولامن يحزنون » .

٦ ـ الحرب العالمية الثانية وعهد الاستقلال (العهد الماروني) : المارونية تبلغ سن الرشد .

وهنا نصل الى منعطف هام اخر وهو الحرب العالمية الثانية . فقد جاء سير العمليات الحربية فيها بجبر فرنسا الحرة على ان تعلن بلسان الجنرال كاترو ، نيابة عن الجنرال ديغول ، استقلال سورية ولبنان في حزيران ١٩٤٢ . وفي الوقت نفسه جرت مداولات عربية في القاهرة اكد فيها بشارة الخوري اوفر المرشحين حظـا لرئاسة الجمهورية بحضور مصطفى النحاس باشا وجميل مردم بـك «ان لبنان يريد استقلاله التام ضمن حـدود الحاضر ، واننـا نريد التعاون مع الدول العربية الى اقصى حد على هذا الاساس . تم استدركت ان عدداً من المسيحيين لايعتنق هذا المذهب ، وقـد يعاكسه لاعتقاده بضرورةحماية اجنبية لبلاده..» وقد كان لجميع هذه التطورات تأثير بالـغ على الفرنسين اعداء العروبة في لبنان ممـا قوى الاوساط المعتدلة في الموارنة . ويقول ف . حتى « كان أكثـر النواب المنتخبين (١٩٤٣) من الوطنيين الشديدي الحماس للقضايا الوطنية ومن الذين يعطفون على القضايا العربية » . وهكذا بعـد ان « تحققوا (المسلمون) ان الرسالة استقلالية بحتـه ، امنـوا بالاستقلال وبلبنـان وصاروا من اول عمالـه » (بشارة الخوري) وبالتالي اصبح بالامكان ايجاد الاساس الجديد لدولة الاستقـلال الذي تفاهم عليه بشارة الخوري ورياض الصلح ، فكان الميثاق الوطني وهو تنازل الانعزاليين (اكثريتهم من الموارنة) عن التمسك بالحماية الاوربية وتنازل العروبيين (اكثريتهم من المسلمين) عن الاتحاد مـع سورية . وقد استكملت مفاهيم الميثاق بالبيان الوزاري الاول الذي شدد على شجب القاعدة الطائفية وعلى وجوب العمل على التخلص منها ، كما اوضح علاقة لبنان باخوانه العرب « ان اخواننـا في الاقطار العربية لايريدون للبنان الا ما يريده ابناؤه الاباة الوطنيون ، نحن لانريد الاستعمار اليهم ممرا ، فنحـن وهم اذن نريـده وطنا عزيزاً مستقلا ، حرا ، سيـدا » .

وبذلك فتح في عام ١٩٤٣ الباب على مصراعيه لانشاء دولة لبنانية مستقلة متعاونة الى اقصى حد مع الدول العربية ورافضة للطائفية وصيغها ، ولكـن ذلك لا يعني ان الانعزالية قد انتهت بل هي خبتت بانتظار السانحة المناسبة ، فالوزارة الاستقلالية الاولى (ايلـول ١٩٤٣) « استقبلت استقبالا حارا في بعض الاوساط ، واستقبـالا حسنا في اوساط آخرى ، واستقبالا واجما عند فئة تغالي في حب الانتداب » (بشارة الخوري) . بل لقد بـدأت بعض الاوساط الانعزاليةتجاهر بمعارضتها لاستكمال اسباب الاستقلال مؤيدةبقاءالجيوش الفرنسية في لبنان،ومن ذلك خطابالبطريرك عريضة بالفرنسية في مدرسة عينطورة يوم ١٩ ـ ٣ ـ ١٩٤٦، وقد كانت الحكومة اللبنانية ممثلة بالاستاذ جورج حيمري « .. نحن لا يمكننا نكران هذا الجميل بل اننا نخالف الذين يطالبون بجلاء الجيوش الفرنسية عن بلادنا .. وبما ان وجود الجيوش عندنا لايتنافى مع الاستقلال ، فاننـــا نشجب شجبا عاليا اولئك الذين يصرون على المطالبة بجلاء القوات الفرنسية عن بلادنا » . (جريدة الحياة ٢١ ـ ٣ ـ ١٩٤٦) هـذا مع العلم ان الجلاء الناجز قد تم في نهاية عام ١٩٤٦ .

كما ان اوساطا أخرى كانت قد ماشت الفكرة الاستقلالية أخذت « تأسف لمقاطعة الصهيونية لانها تجاب على لبنان في رايهم اضرارا اقتصادية بالغة » (تصريح بيار الجميل لمناسبة وجود لجنة التحقيق الانكليزية الاميركية ٢ ـ ٤ ـ ٤٦) بل ان اخطر من هذا كـان الحديث الخاص الذي ادلى به المطران مبارك (ذو النفوذ الكبير) الى صحيفة « بالستين بوست » في ٢٦ ـ ٣ ـ ١٩٤٦ . «.. نحن اللبنانيين المسيحيين ندرك ان الصهيونيـــة تاني بالتمدن لفلسطين وللشرق الاوسط كله ، واني منحمس جدا للصهيونية ..» وهنا نورد ايضا ما ذكره بشارة الخوري عن تصرف اخر للمطران مبارك في صيف ١٩٤٧ : « جاءتني رسالة من باريس تتضمن نسخة عن تقرير بعث به المطران مبارك الى اللجنة الدولية التي زارت لبنان للتحقيق بقضية فلسطين ، وقد طالب المطران في تقريره بوطن قومي لليهود في فلسطين ، ووطن قومي للمسيحيين في لبنان ، منتقدا موقـف المسلمين انتقادا مـرا ، وقيل لي أن كميل شمعون قد اطلع في جنيف على هذا التقرير ، ولكنه لم يبلغنا شيئا عنه .. وكنا اوفدنا شمعون الى جنيف ليمثلنا فيها .. » (حقائق لبنانيـة ـ الجـزء الثـالـث) .

ثم كانت نكبة ١٩٤٨ التي اعطت الاوساط الانعزالية املا ظل كامنا في النفوس بان احلام الانعزالية ممكنة التحقيق بالعمل الدؤوب وذلك بالاعتماد على الدول الكبرى وخاصة اميركا التـي اخـذت تدريجيا تحل في حنايا نفوسهم محل فرنسا بدءا بالمتعصبين المتأمركين كالدكتور شارل مالك ، مرورا « بأصدقاء »الانكليز العربقين امثال كميل شمعون الذي اغرق لبنان في بحيرة من الدماء عام ١٩٥٨ (ووقتها لم يكن للوجود الفلسطيني المسلح أي أثر) اكراما لمبدأ ايزنهاور ، وانتهاء بجميع الانعزاليين (ومنهم الكتائب) في السنين العشر الاخيرة (بمن فيهم اشدهم تفرنسا) وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ وتحول موقف فرنسا الديغولية عن تأييدها المتعصب لاسرائيل ضد العرب .

ومما يجب الا يغيب عن البال المؤلفات التي كانت تظهر في الفترة الاخيرة وهي تشيد بالطائفة المارونية كجالية متميزة بـل كقومية قائمة بذاتها ، بالاستناد الى تزييف التاريخ وتحميل احداثه استنتاجات مهيأة لخدمة الفكرة القائلة بأن لبنان قد اوجده الموارنة الذين وصفهم جبرائيل التلاعي قبل حوالي ٥٠٠ سنة بانهم « شعب مختار » والذين قال عنهم د . كمال الصليبي عام ١٩٦٩ « وكان من الطبيعي ان يتسلم الموارنة .. دفة الحكم في الجمهورية .. الا أن الفكرة اللبنانية وان يكـن الموارنه هم الذيـن دعوا اليها في الاصل .. الخ» اما الاب بطرس ضو فقد وضع عام ١٩٧٠ كتابا من حوالـي ٤٠٠ صفحة عن تاريخ الموارنة من ٣٢٥ الى ٧٠٠ م وقد ختمه بالقـول «والمارونية نسمة طاهرة تتحول بسرعة الـى عاصفة لايقـف في طريقها شيء اذا تعرض استقلالها (؟) لسوء » ..

بعد هذا العرض التاريخي السريع والمكثف ، هل يبقى شك في ان الحركة الانعزالية المارونية قـد نشأت بفعل عوامل تاريخية كان العامل الحاسم فيها التدخلات الاجنبية ؟.

بيروت